جحيم الراهب

شاكر نوري

رواية

مكتبة نوميديا 195
Telegram@Numidia_Library

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

جحيم الراهب

شاكر نوري

جحيم الراهب

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

Copyright © All Prints Distributors & Publishers s.a.l.

© جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل

ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

الجناح، شارع زاهية سلمان

مبنى مجموعة تحسين الخياط

ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت، لبنان

تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٤

ISBN: 978-9953-88-829-3

تدقيق لغوي، حبيب يونس

تصميم الغلاف، ريتا كلزي

الإخراج الفني، فدوى قطيش

صورة الغلاف، © iStock.com/imagoRB

إلى صديقي الرَّسام عدنان... أينما كان.

«إذلالُ الإنسانِ ليس عُنصرًا ضَروريًّا لعزَّة السَّماءِ...»

ألبير دُو پوفورفيل، «ماتْجيوي» ١٨٦٢ ـ ١٩٣٩

«لن يكونَ في وسع التَّاريخ أن يُدرك أنّنا سنضطرُّ إلى العيشِ مُجدَّدًا في هذه الظُلمات، بعدما سطعت الأنوارُ ذات مرّة».

كاستيليو ـ «فن الشّك» ـ ١٥٦٢

لم أتنكر بجبّة الرَّاهب من أجل خداع أحد، ولم أنخرط في دينٍ جديد لكي أؤذي الآخرين من بني البشر، مثلما لم ألجأ إلى هذا العالم من أجل الاهتمام بشؤون الآخرة يومًا ما. هكذا أنا من دون حسابات، وجدتُ نفسي مختبئًا تحت ثياب اللّه، أو اللباس الكهنوتي كما يُطلقون عليه، ومعلّقًا على صدري الصّليب الذّهبيّ، الذي كنت أشعر بثقله لأنّنا لا نعرف ما هي قيمة هذه القلادة ولا رمزيتها. فالمسلم لا يعلّق على صدره أي شيء خشية أن يُتّهم بالأنوثة، وهي معيبة عندنا، لكنّني لستُ ذلك المخدوع إلى الأبد، فقد اخترتُ اللحظةَ التي أتخلّص فيها من هذا العبء الثّقيل، لأنّني وبكلّ بساطةٍ، لا أرغب في تكرار الطّقوس عينها إلى ما لا نهاية، فروحي تقبل التّجريب وترفض الرّتابة، وليس في استطاعتي أن أغيّر طقوس أمةٍ كاملةٍ بكل قوانينها الصّارمة، فلعل ذلك من دوام ثوبتها.

يعتقدُ الجميعُ بما لا يقبل الشّك، أنّني مجنونٌ إذ أخطو هذه الخطوة الحمقاء وأسافر بلا جواز سفرٍ أو أيّة أوراقٍ ثبوتيةٍ، وأن أصنع لي عند حداد مخالبَ حديديةً لكي أدافع فيها عن نفسي في الصّحراء، وأنْ أصارع الذّئاب من أجل العبور إلى الجهة الأخرى من الحياة، فهذا ليس تمردًا في نظرهم إنّما هو جنونٌ، وبلهٌ. فهي فكرة جهنميّة أن أكون على قدم المساواة من الذّئاب التي ستنهش جسدي إذا وقعتُ بين مخالبها.

لم أكن انتهازيًّا عندما استهواني العيشُ في الدَّير، رغم أنّني لستُ مسيحيًّا، ولا مسلمًا بمعنى المسلم التقليدي. عرفت أنّ ثلاثة أرباع العالم يعيشون بلا كتابٍ منزّل أو كتاب مقدّس. واسم إسحق، الذي لا يرمز إلى أيّ معنى ديني، اختاره لي أهلي بمصادفة محض ومن دون أيّة دلالة. لا أدري كيف أصبحت واحدًا من نسّاك الجبل المقدّس متوحدًا في ذات الرّب، ومن عشاقه، لأنني بكلّ بساطة، انطلقت من جنون الرّوح، هائمًا، أبحث عن همسة قلبٍ، أو ومضة وجدانٍ، أو إشارة ساحرةٍ.

سوف أعرفك يا من تعرفني، سوف أعرفك كما تعرفني، أُدخلْ إلى نفسي، يا قوّام نفسي، واسكنْ فيها، لكنّني لستُ ذلك الصّوفيّ الذي تتخيله، رغم ترددي كلمات القديس أغوسطينوس الشّهير، لأنّني اختزلتُ حياتي في حالةٍ واحدةٍ: الصلاة ومزيد من الصلاة، مع نسّاك جمعتهم دروبُ السّماءِ، آشوريون أبوا أن يعيشوا سقوط أمبراطوريتهم، فاختاروا أن يعيشوا في عزلةٍ، معلّقين على جبلٍ في العراء. هنا حاولت أن أكتب القصائد الرّوحية، وتصفّحتُ كتبَ الدّير وتأملتُ وجه الرّب، وغنيتُ حتى الامتلاء، وأنا أرفع عينيّ إلى السّماء، إلى فوق ـ من دون كللٍ أو ملل. فالحديث مع الرّب لا ينتهي، والسّبيل إلى الوجود معه في الأبدية العظمى غاية عسيرة حتى لو كنت سكرانَ بروح السّماء، لأن قدميّ لا تزالان تتحسسان بقعة الأرض التي أقف عليها.

سعيتُ إلى إبعاد ضوضاء العالم وصخبه عنّي، وتقمّصتُ سير أبطال بلاد الرّافدين الغابرين. وفكّرتُ في حديث يسوع مع تلاميذه في عشائه الأخير من دون أن أكون مسيحيًّا، لأنّها ليلةُ آلام البشريّة وموتها. لكنّ ذلك لم يمنع أن أستذكر الأنبياء: موسى مقاتل فرعون

الأكبر، ويسوع المتحدّي النبيل في تاريخنا البشريّ، ومحمد صاحب أعظم رسالة عرفها التّاريخ، إلا أنّ شرَّ الشّرور أن تعيش عذابَ الأنبياء والرّسل والشّهداء والقديسين من دون إيمان حقيقي يسكنُ روحك.

* * *

مُفتتحٌ
معجزةُ الآباءِ الآشوريين

هاجر الآباء الآشوريون من بلاد وادي الرافدين إلى لبنان في ظروفٍ صعبةٍ، دفاعًا عن معتقداتهم. عاشوا كأحبّاء، وأصدقاء، ورفاق، وكهنة، وخدم للرب، جنبًا إلى جنب، من دون الاعتناء بدرجاتهم في الرَّهبنة، أو تسلسلهم الهرميّ أو شاراتهم أو نجومهم وتيجانهم وسيوفهم على الأكتاف في دير الأيقونات. عاش الآشوريون في لبنان من دون هويّات، لكنّهم اعتبروا لبنانيين عندما أجرى الانتداب الفرنسي تعدادًا لسكان لبنان الكبير، عام ١٩٣٢، ولكن هذه المرة أيضًا طاردتهم شبهة الشيوعية، كونهم وفدوا من روسيا، فشطبت قيود غالبيتهم من دائرة النّفوس. لجأ الآشوروون العراقيون إلى منطقة زحلة في لبنان بعد المجازر العثمانية، بدايةَ نشوب الحرب العالمية الأولى، وشيّدوا حيّهم الذي حمل اسمهم الخالد مثل أساطيرهم، والذي اشتهر بمدخله على شكل بوابةٍ خشبية كبيرةٍ، تظهر في أعلاها بلاطة رخامية على شكل ملصقٍ، تتوسطه أرزة صغيرة، مذيلًا بعبارة منحوتة «حيّ الآشوريين في زحلة»، وإلى جانبه، لوحة كبيرة للملك آشور بانيبال يصارع أسودًا

خلال رحلة صيدٍ، تحيطها أطباقٌ نحاسيةٌ نُقشت عليها رموز الحضارة الآشورية أبرزها «الثّور المجنّح»، ولعلّ أهم رموزها تلك النّفوس التي تحمل في أعماقها سلالة واحدةٍ من أقدم الحضارات وأعرقها، امتدت أمبراطوريتها، في يوم من الأيام، من النّيل إلى القوقاز.

عاش الآشوريون، منذ إنشاء حيّهم، في حالة أشبه ما تكون بالعزلة عن المدينة. ولم يجدوا الاحتضانَ الذي كانوا يتوقعونه في مجتمع مسيحيّ متعدّد المذاهب، بل جُبهوا بالرفضِ على أنهم «نساطرة»، نسبة إلى البطريرك نسطوريوس الذي حكم عليه مجمّع أفسس بالهرطقة وعوقب بالتحريم الكنسي، فرُفضوا في الكنائس، لذلك اضطروا إلى إقامة شعائرهم الدينية في منزل كاهنهم، إلى أن قام وفدٌ منهم بزيارة لأسقف الرّوم الأرثوذكس المطران نيفن سابا لتهنئته بعيد الفصح. وقد أفضى الحديث عن أحوالهم الدينية والدنيويّة إلى فتح المطران سابا أبواب كنيسة مار انطونيوس في المعلقة، وسمح لهم بممارسة شعائرهم أيام الأعياد وفي المناسبات. وكان التقارب بينهم وبين الطائفة الأرثوذكسية يرتبط بمشرقيتهم وعلاقاتهم مع روسيا التي شكلت محطة أولى لقسم من آشوريي زحلة في هجرتهم، قبل أن ينتقلوا إلى مارسيليا في فرنسا ومنها إلى لبنان.

عندما عَلِمَ الآشوريون في هكاري، في ولاية وان التركية، أن مبشرين من الغرب قدموا إلى مناطق سكن الآشوريين من أجل تبشيرهم بالدّين المسيحيّ القويم، ضحكوا قائلين إن غرباء قَدموا ليبشروا تلاميذ المسيح بالمسيحية، هكذا تحدث البطريرك الشهيد مار شمعون بنيامين ١٨٨٤- ١٩١٨. ورغم ذلك، كانوا يعتقدون أنهم في منأى عن شرور الدّنيا في دير مزروع على قمة جبلٍ، معقودٍ من الحجارة، ومطليّ

بالطين والجبس الأبيض، ومذبحه مصنوع من خشب الجوز، ومكتبته تضّم آلاف المخطوطات والكتب النّادرة، وجدرانه مزينّة بأيقونات جاءت من أرجاء الكون، تحكي قصة نشوء هذا الدّير. لم يشهد تاريخه سوى حياة رهبانٍ وراهبات عاشوا هنا، منسيين في قلّاياتهم وجحورهم وغرفهم، بعيدًا عن أية سلطة كهنوتية.

وبما أن الآشوريين الذين كانوا يعيشون في حيّهم في زحلة، لا يحق لهم ممارسة شعائرهم بحريّة بعد هربهم من موطنهم، جاءوا إلى هذا الدّير المهجور، وأقاموا فيه بعيدًا عن عيون السّلطة أينما كانت ومن أي نوع: مدنيّة ودينيّة وكهنوتيّة. لكن هؤلاء الآباء كانوا يوصفون بالآباء الآشوريين المهرطقين. وفي هذا الدّير، الذي يتربّع على صخرةٍ عاليةٍ، شيّدوا كنيستهم الصّغيرة، وبنوا ست مناسك، فأصبح الدّير مؤلفًا من فسحتين، يمتد حولهما رواقٌ معقودٌ بالحجارة يطلّ على الفسحة عبر قناطرَ جميلةٍ، ودرج ينزل إلى الطبقات السفلى. وعلى جدرانه رموزٌ إنجيلية تفسّر الآيات المقدّسة بالحفر والصّور والأشكال الحيّة.

آباء شاء القدر، أن يكونوا آباءً، لا لشيء إلا لأنّهم أبصروا النّور ذات مرة في بلاد الرّافدين، وعشقوا هذه الأرض، عندما كانت تنجب لهم لبنًا صافيًا في أعالي الينابيع، بينما كانت الأسلحة محفوظة في المخازن، لم تمتد إليها الأيدي بعد، ولم ينظّف أسطوانات بارودها المحاربون، كان كلّ شيء هادئًا: قرية مركا، بودیانها الخضر، وجبالها المعشوشبة، وأنهارها الصافية، وأديم أرضها العذراء. وفي هذا الخضم، هناك بشرٌ لا نتوقع منهم أن يغامروا، فيصبحون أعظم المغامرين، وجبناء يصبحون أشجع الشجعان، وشجعان يصبحون من أكثر المتخاذلين.

هؤلاء الآباءُ الآشوريون الذين اتحدت أرواحهم مع هذا الدّير: الأب الياس، والأب جوزيف، والأب سامر والأب إيلي والأب شربل، والأخت سيسيل، والمطران مار يوسف، تعلّقوا بهذا الدّير باعتباره الحصن الأخير لهم في مواجهة الأرثوذكسية، التي أرادت، بوسائل شتى، أن تهدم أركان كنيستهم. وهم لم ينفكوا عن التفكير في أسطورة قريتهم مركا، أو ميركي، أو مركو، كما تعودوا على لفظها بالآرامية، وهي تعني الأرض الخضراء الواسعة أو المروج النضرة أو الأرض الخصبة، التي تنتشر فيها النباتات والخضروات والثّمار من كل نوعٍ، وتلفظ بالسريانية الغربية مركو وبالسريانية الشرقية مركا أو مركي، وفي اللغة العربية مرج وجمعها مروج.

ومعجزة الآباء الآشوريين أنهم محاربون أشدّاء من محاربي الزّمن الغابر، رغم ما يتسمّون به من رهافة أحاسيس ودماثة أخلاق، فحوّلوا هذا الدّير مغارةً أو ساحات قتال يعيش فيها الجبابرة المخذولون لأنّ أرواحَهم لا تتألق إلا هنا، رغم المنفى، وهم يحملون إشارات القوّة والصّبر والتحدي، وكذلك بذور الثّورة والتمرّد والعصيان والمواجهة، من دون الاستكانة إلى قدرهم ومصيرهم. لا يدل مظهرهم على أفعالهم الجريئة، لأنّها كانت مختبئة في مكانٍ ما، في أرواحهم.

جاءوا من ذاكرة التّاريخ من أجل تشييد دير الأيقونات، بطقوسه الآشورية العتيدة، على ذلك الجبل الشّاهق، كأنهم يريدون بذلك معانقة إله آشور الذي طالما أغراهم بالرّحيل وتأسيس حواضرهم في الأعالي، هنا وهناك، وهم ينسجون تاريخ ديانة يسوع كما رأوها منذ فجر التاريخ، ومن ثم دونوا تاريخ المشرق، الذي لم يكن سوى تاريخ شهداء، وظلت

تلك الشّهادة على مرّ العصور، ينبوعًا لكل الثائرين في العالم، يشحذون هممهم بصرخاتهم التي يطلقونها في البراري، وينحتون من الصخر أسلحتهم لحروب مفاجئة.

هنا يستريح الآباء الآشوريون في دير الأيقونات بين جبال وتلال تغزوها الأشجار والعصافير، مشرعة على الهواء العليل والشّمس، صلاة وتأمّل وارتقاء إلى السّماء وحديث شائق مع الرّب، يستردون حكايتهم كلّما استرخوا على المصاطب الحجرية أو رحل واحد منهم إلى السماء.

مطار بيروت مهجور، وحالك، لا خطوات تُسمع، ولا ضجيج، سوى ما يصدر عن رجال الأمن وبعض المسافرين من جلبة وهم يذرعون أرضه جيئة وذهابًا. يحوم في سديم لا نهائيّ من الخراب، مهدّم الأركان، ترتفع على جدرانه، ألواحٌ من السّخام الأسود الخانق. لا تُدهش إذا رأيت صقورًا على أسطح بنايته القديمة، المتهالكة، وهي متأهّبة لاصطياد أسراب الحمام التي قد تهاجم محرّكات الطّائرات، بغريزة الدخول في باطن غموض الممرات المظلمة في الطّائرة في أيّة لحظة. في تلك الأثناء، كانت إدارة المطار تستبدل الصّقور الهرمة، بأخرى أكثر شبابًا وأكثر حيوية في الصّيد، بعدما تآلفت الصّقور القديمة مع الأديم والغبار والإسمنت، وظلت معلّقة بمخالبها، لا تفزع من أزيز الرّصاص، ولا من أعمدة الدّخان. أما الجنود المدججون بالبنادق، والمنتشرون في زواياه الأربع، فهو مجرد إجراء روتيني، خشية اندلاع الحرب مجددًا، بعد انتهائها. ومن أجل التّخلص من بقايا التّأثيرات النفسيّة لهذا المنظر، سارعتُ مندفعًا إلى الصّفوف الأمامية للطابور. وقبل صعودي إلى الطّائرة، أعطاني الأب سامر مظروفًا من الأوراق: هديّة من الأب جوزيف. فرحت أيّما فرح، لأنّني تخيّلت ما يمكن أن يحتويه هذا المظروف من أوراقٍ مهمةٍ، ومن دونه تذهب كل محاولاتي سدًى، لأنّني سأكون ضائعًا في متاهة، وسأفقد، بلا شك، بوصلتي في شعاب الدّير ودروبه الوعرة، أتخبّط في أسراره وألغازه، رغم السنوات

السّبع التي أمضيتها بين جدرانه، كنت واثقًا أن الأب جوزيف ترك لي شيئًا مُهمًّا أقرأه.

استهل ما كان في المظروف بعبارة أثارت فضولي: أيّها الأب العزيز، إسحق: اعلم أن صدرك يغلي شغفًا لمعرفة ما كانت عليه حياة هؤلاء الآباء الآشوريين، أي قبل قدومنا إلى دير الأيقونات، وتقديرًا مني أزوّدك هذه الأوراق، لكي يرتاح ضميري. وسرعان ما أشعل الأب جوزيف حمى القراءة في نفسي، تلك التي لم أكن أتخلّص منها بسهولة، ولم أعد قادرًا على الاحتفاظ بالمظروف مغلقًا، ومقيدًا بالخيوط المربوطة، والمتشابكة حولها، كأنني أثناء فتحه أحرّره من سجنه الأبديّ، الذي استقر في أرشيف الأب جوزيف سنوات طويلة، فلا يمكن السير بعد ذلك في النّفق المظلم، من دون مصابيح الأوراق البيض التي سوَّدها بقلمه، وقلبه، وروحه. وهاأنذا في نهاية المطاف، أتلمّس طريق الحقيقة بعد انتظار سبعة أعوام عجاف، ولعلّي أكتشف الجزء المدفون في أعماق هؤلاء الآباء الآشوريين الذين عاشرتهم، إلا أنّهم لم يمنحوني سوى الجزء اليسير من أرواحهم المعذّبة، ومعظمهم قد يرحل إلى القبر في أيّة لحظة، لأنّ ما يصطخب في أعماق النّفس البشريّة، دليلٌ آخر على أنه لا يرتوي من أية معلومة إضافية عنهم.

هكذا قدّم إلي الأب جوزيف، ما كنت أبحث عنه على طبق جاهز، فلم أتمالك نفسي كأنني أعثر على كنزٍ، صارخًا تحت أنظار ركّاب الطّائرة: يا إلهي! كم أنت رائعٌ أيّها الأبُ جوزيف! وأنت تروي غليلي بالمعرفة لأنّني لا أبحث عن حياة الآباء الآشوريين بقدر ما أبحث عن أعماق الإنسان التي لا يسبر أغوارها البلهاء الحمقى. وبدأت ألتهم

تلك الأوراق واحدة تلو الأخرى، وأحاول ترتيبها على شكل فصول متسلسلة في ذهني رغم تداخلها وبعثرتها، وهذا ما أشبع بعض فضولي، ووضع نهاية لدوامة تفكيري عن أسرار حياة هؤلاء الآباء الآشوريين قبل مجيئهم إلى الدّير، فأصبح لحياة كلٍّ منهم فصلان، فصل خارج الدّير، وفصل داخله، إذ لولاهما لما اكتملت رؤيتي عنهم، ولكنّني كنتُ واثقًا من أن ما يُكتب ليس هو كل شيء، بل محاولة لتجسيد حياة ما على الورق الصّقيل الأبيض الذي طالما أغرى أقلام البشر بتسويدها بالحبر والدّم، طمعًا بالكشف عن حيرة الأسرار وعذاب الألغاز، فهل حصلتُ على بغيتي، بهذا المظروف المحشوّ بالأوراق البيض؟

* * *

قبل قليل، وسط تساقط رذاذ الثّلج واختلاط الضّوء بالظّلام، ساد صمتٌ ثقيلٌ على الرّكاب المسافرين المتعجلين، وهم يحثّون الخطى نحو مدخل الطّائرة، كأنّهم كائناتٌ مذعورةٌ تريد التّسابق مع الطّيور والرّحيل عن الأرض، كأنّ الجرائم البشرية لا تُقترف إلا على الأرض وحدها، فيما غرقت رؤوس الأشجار والمدرجات الإسمنتية وعربات جرّ الحقائب، باللون الأبيض، كأن كفنًا ضخمًا، أو خيمة ناصعة البياض، افترشت، لكائنات، فأصبحت هلامية الأشكال، لا معنى لها. فالظّلام النهاريّ، مع امتزاجه بأشعة الشمس المنسابة، أضفى على المكان مسحة ديكورات فيلم بوليسي قديم، بالأسود والأبيض، يبحث عن جمهورٍ ذوّاقٍ في صالة عرض سينمائي، ولكن في مختلف الأحوال، وبعيدًا عن التشبيهات والاستعارات الجاهزة، حوّل رحلتي شبهَ رحلة في أعماق الظلام.

لم تكن طائرة البوينغ الضخمة الجاثمة على أرض المطار إلّا خطوةً أولى من خطوات الحلم بامتلاك السّماوات البعيدة والتحكم بآفاقها الشّاسعة، الممتدة في اللامتناهي في الصّغر، ومن ثم الانتهاء بالتخلّي عن سأم الأرض، علّني أجد كائناتٍ أخرى، تمنحني طاقة مواصلتي هذه الرّحلة، وما يشوبها من تفكيرٍ مضنٍ، لا أستطيع أن أبعده عن ذهني، لم يشبه ذلك النّهار السّاطع بقيّة النّهارات الأخرى لأنّه رفعني إلى أدراج السّماء، وجعلني أدقّ أبواب الرّياح. تساءلت: هل الطّائرة المغبرّة، الجاثمة على أرض مطار بيروت، والمدوّن على خاصرتها باللون الأزرق العريض، الرقم ٧٤٧، ستقلّني إلى روما؟

رأيت مختلف الأهوال، وسخّرت جميع أسلحتي من أجل تحقيق هذه اللحظة، ولم تكن أسلحتي فتاكةً، بل هي تأملات في العبادة والاستذكار في غرفتي، واستعنت بأنبياء وآلهة، واستنجدت بيسوع، لأنّه تقاطع مع طريقي، من دون أن أبحث عنه، من أجل أن يحقق حلمي، فكان عليّ الانتظار سبع سنوات حتى تكتمل إجراءات الفاتيكان في الموافقة على دراستي اللاهوتية، ومنحي جواز سفرٍ رفضتْ أية دولة أخرى، بما فيها دولتي أن تزودني إياه، فكان من الطبيعي أن يكون الفاتيكان قبلتي في هذه اللحظة الرّاهنة، كأنّه طرد الأنبياء الآخرين بصفحه وتسامحه. وفي لحظات اليأس القاتل، استنجدت في أدعيتي، بآلهة الرّياح والأمطار والعواصف، التي زودني إياها الآباء الآشوريون هنا، لتطلقني في السّماوات السّبع؛ لا لكي أصل إلى روما وأقدم أطروحتي اللاهوتية، بل لأكتشف هذا الكون المُترامي الأطراف، وأتحرّر من قيود مذلّتي في سجن القلعة، وميناء بيروت، ودير الأيقونات، وأبعد عن ذهني كلّ الأشباح التي صادفتها هنا وهناك. بين دمشق وبيروت، ضيّعت كل

تلك الأعوام، لا بحثًا عن العودة إلى باريس التي غادرتها طواعيةً، بل بحثًا عن الخلاص، الكلمة الجديدة التي دخلت قاموسي، وما برحت تخرج منه، بعدما أمضينا ليالي الشتاءات الطويلة في تقليب معانيها في المعاجم وكتب الأديان والأسفار، بحيث أضفت على روحي شيئًا من إصرار الصوفيين وقساوة المتوحشين.

مزيجٌ من أفكار، هبّت في رأسي، تعصفُ بكلِّ التّواريخ، فيما أجهد نفسي في تنظيمها وترتيبها وتسلسلها، شاقًا الطريق السماوي نحو الحريّة، من دون أن تطأ قدماي الأرضَ، وشاء القدرُ أن أكون على هذه الطّائرة، قاصدًا روما، ليس كشابٍ متمّردٍ، أعيش ذيول ثورة الطلبة، كما نزلتُ في باريس قبل أكثر من ثلاثين عامًا، بل كراهبٍ كهلٍ وتلميذٍ لاهوتٍ في الفاتيكان في روما.

بعد مغادرة الأب جوزيف الدّير، أصبحتِ الأجواءُ لا تُحتمل، مثل هوّة تنفتح على فراغ، ونقطة ضوء في نفقٍ مظلم، يختلط فيها الإنساني بالإلهيّ، حتى كدنا لا نفرّق بين أرواحنا والأشباح، نجهد أنفسنا لفّك التّشابك العجيب بين الحقيقة والوهم، حتى لا يتوانى عن التخفيف عن وقع الخطيئة التي نزلت على نفوسنا من دون جدوى، في محاولة يائسة لتصحيح الانحراف ومكافحة الشياطين والمشعوذين وشُذّاذ الآفاق، مرددًا مع نفسه: هل يمكن إصلاح النّفوس الفاسدة، فاللّه لا يريد عبيدًا بل يريد أحرارًا، فمتى كان يسوعُ كاثوليكيًّا أو أرثوذكسيًّا أو نسطوريًّا أو يعقوبيًّا أو بروتستانتيًّا أو غيره، كانت تلك حكمته في إعطاء الدروس الوعظيّة التي تصلح لكلِّ زمانٍ ومكانٍ كما كان الآباء الآشوريون يؤمنون به.

وكان كلٌّ منّا يسعى إلى ملء الهوّة السّحيقة بالصّلوات والتراتيل والأدعية، ولم يحبط ذلك من عزيمة الأب جوزيف في إنقاذ الدّير من هؤلاء التّائهين، وتحرير أرواحهم، من سجنها الكبير، بعدما قطع آلاف الكيلومترات من أجل تشييد ديره الأفلاطوني على سفح هذا الجبل الشّامخ، ساعيًا إلى تقريب الأرواح بين الآباء الآشوريين وإيمان الرُّهبان والرّاهبات، وكأنّه يريد إقامة توازنٍ واقعيّ بين النبل والعلو، بين الجبل والرّوح، بين الشّجاعة والجبن، كأن هؤلاء القادمين من أصقاع الأرض إلى هذا المأوى، لا يرون شيئًا من ظلمات أرواحهم المختبئة، ولا من الجبل الشّامخ المبارك، فأصبحوا بحكم المكان وعزلته، رهبانًا، ومريدين، وتابعين، وحجاجًا، وأصحاب كرامات... يغلقون بوابات الدّير، ويطلقون العنان لأفكارهم الوثنية والمسيحية، ذلك الخليطُ الذي أرعبَ الفاتيكان، وبدأ يبعث إليهم بإرساليات تلو أخرى من أجل الإحاطة بما أطلقوا عليه الصّفاء اليسوعي.

هههههههه... هكذا يضحك الأب إيلي الأبله، الذي يطرح أسئلة بعد أخرى من دون أن يجيبه أحد. مواعيد الرُّهبان والرّاهبات لا تنتهي، إنهم يتبادلون المواعيد على قصاصات أوراق من تحت طاولات الطّعام! وأنتم تبحثون عن الصّفاء اليسوعي؟

يأتي الأب سامر: ويأخذه من كُمّ جبته المترهّلة، سوف نسجنك أيامًا إضافية ما دمت تكرر السّباب والشّتائم التي لا تُرضي يسوع الرّب.

ويقذفون بالأب إيلي في حجرة مظلمة من دون علم الأب جوزيف الذي لم يقبل سجنه قط، ويقول لهم: يجب أن تتحملوا الأب إيلي، فهو

مثل ملح الأرض، لا بدّ من وجوده، وإلا تصبح حياتكم جافة جرداء، لا معنى لها.

يرسل الأب إيلي نظراته من كوّة سجنه إلى الرُّهبان والرَّاهبات حيث يجتمعون في ساحة الدّير، تحت شجرة السّدر الوارفة الظلال، في الشّمس الحارقة، وينتظر هناك إلى أن تنهمرَ الثّلوجُ، فيخرج، بلحيته الكثة، وقد كذبوا على الأب جوزيف وقالوا له إن الأب إيلي مريضٌ لا يستطيع حضور القداس.

كان الآباء المحافظون يسيطرون على الدّير، أما المتحررون فلا تهمهم خزعبلات الأب إيلي المجنون.

وارتفعت روائح الفضيحة، الرَّاهبة هيلينا التي انتفخ بطنها، فنزعوا منها الرّداءَ الكهنوتيّ، وبصقَ عليها عشرةٌ من الرُّهبان المسؤولين، وهم على شكل خليّةٍ شرطيّةٍ داخل الدّير، شكلها المحافظون في دير الأيقونات، وقالوا لها: لا مكان لك بيننا، اذهبي ولا تدنسي قدسية هذا المكان الذي شيدناه بأرواحنا، وابحثي عن حياتك خارج هذه الأسوار، لعل يسوع يغفر لك. وحاولت الرَّاهبات، بقيادة الرَّاهبة نورا أن يجعلوها تطرح الصّغير من بطنها، من خلال إسقاطها من الدرج مراتٍ عديدة، لكي «تطرح» لكن الطفل بقي عالقًا، متشبثًا بأحشاء أمه، رافضًا الخروج من بطنها، وكانت تلك العمليات مقرونة بالشّتائم والسّباب والضرب بوحشية. وكانت هيلينا تعاني أمراضًا نفسية نتيجة سجنها داخل جدران الدّير، وكانوا يخرجونها إلى ساحة الكنيسة في شتاء قارس، وقد بقيت وحدها ساعات شبه عارية عساها تطرح الطّفل،

إلى أن طردوها بعدما فشلوا في إسقاطه. وأخذوا منها تعهدًا أنها من أرادت ترك الدّير.

عندما وصلتُ، شرعتُ في كنس أرضية الدّير، ثم تنظيف النوافذِ ومسح الأبواب، ثم أتممتم بعض الآيات التي لا أحفظها كاملة. وقف بجانبي الأب إيلي ينصت إليّ: ماذا تقول أيّها الرَّاهب؟ وقبل أن تجيبني أشعر من حركة شفتيك أنّ الألفاظ التي تخرج منها تردد اسم الرّب. أصبت، أيّها الأب العزيز، إيلي، أنت على حق، لا يمكن أن أنظّف بيت اللّه وأنا أجدّف به، أو ألعنه. أجابني الأب إيلي: لم لا. هذا هو الشيطان، ألم تره يحاصرنا بالرذيلة كلّ يومٍ؟

لم تكن تلك الأخبار معروفة لولا الأب إيلي الذي يعيش مع الرَّاهبات ويزورهن في عنبرهن لأنهن يعتبرنه أبله، لا يخجلن أو يستحين منه، هو الذي كشف عن تلك الحقائق بعدما كان يسأل عنها. وقد اعترفت إحدى صديقات هيلينا بذلك.

لم تكن هذه الأخبار وغيرها معروفةً لدى الجميع في الدّير، فقد سُدل عليها ستارٌ كثيفٌ من السّرية. بينما كان الأب جوزيف المسؤول عن الدّير غارقًا في رؤيته، معزولًا في قلّايته، لا يرى ما يحدث من كثرة قراءاته وبحثه وصلاته.

وربما كان سؤال الأب جوزيف الذي يطرحه على نفسه قبل طرحه على الآخرين: من أين جاء هؤلاء لكي يخترقوا هذا الجسد الذي بناه بصورةٍ مثاليةٍ، أو طامحًا إلى ذلك، وأراد أن يرى وجوههم الحقيقية قبل أن تختفي ملامحها وتنسحق في جبّة الرَّاهب، في الرّداء الكهنوتيّ، الذي لا تمسّه الشياطين؟ ولربما أضفت أحاديثه القليلة نوعًا من

الغموض والالتباس بين أقرانه الآباء الآشوريين، الذين ظلّوا يحلمون بفردوسهم الضّائع، وفي الوقت نفسه، كافح من أجل إخفاء جانب من ألغاز حياته، وأسرارها الغامضة حتى لأقرب مقربيه، مثيرًا التساؤل تلو الآخر، في محاولة للإجابة عن هذا السؤالِ المحيّرِ: كيف عاش الرُّهبان والرَّاهبات قبل مجيئهم إلى الدّير؟ هل آمنوا بالرَّهبنة ذات يوم أم جاءوا إليها عن طريق المصادفةِ المحضةِ؟ هل كانوا يعانون ذنوبًا وخطايا، وأتوا إلى هنا لكي يكفّروا عنها؟ هل الرَّهبنة قناعٌ تآلفت معه وجوهُهم وأرواحُهم وحتى أجسادُهم؟

ألا يخشى هؤلاء أن يَختطفَ الرّب أرواحَهم ويُنزِل بها أشدَّ العقابِ؟

تلك أسئلةٌ، بل ألغازٌ وطلاسمُ وتعاويذُ، لا بدّ من حلّ عقدتها، قبل أن تتفاقم الأمور، ويختلط الحابلُ بالنّابلِ، والخيط الأبيض بالخيط الأسود، لكن ما يواسي هو أنّ الزّمن وحده قادرٌ على الإجابة عن تلك الأسئلة، التي أحاطها الآباء الآشوريون بهالةٍ من الكتمانِ والسّريّة والتحفظ، بل شيدوا حولها أسوارًا شاهقةً، لا يقربها البرابرة ولا المغول.

كان رجلًا نادرًا، وورعًا ونزيهًا، لأنه أغرقني بكرمه وإنسانيته، وفتح لي باب الدّير على مصراعيه أيام كنت مشّردًا، وضائعًا، وبائسًا بلا مأوى أو أي مورد للعيش، آتيًا من سجن القلعة، وهاربًا من ميناء بيروت، فلم يخيّب ظني منذ لقائنا الأول، بل منحني الطّاقة اللازمة لأجتاز محنتي، طالبًا من السّماء أن تكون واقيةً لي، لكنني أعلم أن الإنسانَ ليس بمأمنٍ لا هنا ولا هناك، لا في الجحيم ولا في الفردوس، فالأرضُ الطيّبةُ مليئةٌ بالثّمارِ الفاسدةِ والأعشابِ الضّارةِ إلى جوارِ الثّمارِ الطيبةِ والأعشابِ

الطبية، إلّا أنّ السّماء تركتْ لنا مواردها: الينابيع، والغابات، والسّهول، من أجل أن نرفع رؤوسنا بكل فخرٍ وكبرياء كالمنتصرين، لا أنْ ننكّس رؤوسَنا كالمهزومين.

كان الأب جوزيف يطلّ علينا كل يوم، بأحلى ملابسه وأزهاها، حول رقبته، الصّليب النحاسيّ اللمّاعُ، المتألقُ بنقوشهِ الآشوريّةِ القديمةِ، كرمزٍ للبراءة والصّفاء، يجسّد حلم الآباء الآشوريين في إحلال نعيم السلام بعدما اختنقوا بجحيم تفجيرات الكنائس في أرض آشور، بتواضع جمّ، وطيبةٍ مفرطةٍ، مع الرُّهبان والرَّاهبات وزملائه الآباء، مع المحافَظة عَلى ما يتمتع به من قوةٍ وسلطانٍ، يخشاهما الجميع.

لم أكن أتوقع أن يختفي الأب جوزيف بتلك الطّريقة، التي تأثر بها الرُّهبان والرَّاهبات والشمّامسة والقسيسون والآباء والمطارنة، الذين راحوا ينسجون عن اختفائه المفاجئ مئات الحكايات والأساطير، أقلّها أنّ الفاتيكان طارده في بيروت، بل وأطلق رجاله في البحث عنه، بسبب خرقه لأصول الكنيسة الأرثوذكسية، خصوصًا في موعظته الأخيرة التي حاول أن يشرح فيها: لماذا يتحمّل المسيحيون الشرقيون جرائم محاكم التفتيش باسم الدين؟

قبل مغادرته الدّير، أفضى إليّ بأسرارٍ صغيرةٍ، لم أنسها قط، فقد ألزمتُ نفسي تنفيذها ليس وفاءً له، بل وفاء لنفسي، إنّها موعظة اختزلها بكلمةٍ أو كلمتين:

ـ يا إسحق، انتبه جيدًا إلى ما أقوله: شعوري بتأنيب الضّمير يجعلني أسارع إلى لمّ شمل عائلتي الصّغيرة، سيسيل واسكندر.

وللمرة الأولى أسمع هذا الاعتراف الصّريح، فقلتُ له، مدهوشًا:

ـ سيسيل واسكندر؟

هزّ رأسه...

وهنا، بدأت شخصيته تتفكك أمامي، منفتحة على آفاق إنسانية، غير أفق الرَّاهب العصامي، الذي أمضى ثلاثين عامًا بين جدران الدّير، ناسكًا متعبّدًا وواعظًا، في حضرة إنسانٍ هشّ أمام جبروت العواطف التي لا يستطيع أحد مجابهتها. وعزمتُ تجميع خيوط تلك القصّة من منابعها، وهي لا تزال طازجةً في ذهني، لا يمكن نسيانها، أو اقتطاعها من حياته. طريقٌ وعرةٌ، وميضٌ بَرَقَ في حياتي، أخذ يدفعني إلى الأمام في كلّ لحظةٍ، تاركاً آثار بصماته على روحي، وامتزجت قصّتانا امتزاجًا لا فكاك فيه، وأصبحنا في عيون الآخرين، توأمين وقرينين لا ينفصلان، نرى وجهينا في مرآة واحدة، لا فرق بيننا؛ فكلانا ينطوي على روح الإيمان، المشحون بالشّك. ولم أكن ذلك الحزين الوحيد في الدّير، فقد استيقظ الرُّهبان والرَّاهبات، مذعورين على خبر مغادرته الدّير، بين نظرات الرّيبة والشّك، والفراغ الشّاسع الذي تركه، كأنّهم فقدوا أبًا حنونًا، وصديقًا مخلصًا، وعبّروا عن غضبهم، معتقدين أنّه تخلى عنهم، من دون سابق إنذارٍ، ولم يهيئهم نفسيًّا لهذا الحدث، تاركاً إياهم في مهبِ ريح.

تلقيتُ خبر سفري إلى روما من الأب جوزيف بفرحٍ غامرٍ قبل أيام من مغادرته المفاجئة، أو بالأحرى، قبل هربه من دير الأيقونات، بعدما وضع أسسه مع الآباء الآشوريين الهاربين من قرى الموصل إلى هنا، وهذا ما أفسدَ عليّ لحظات فرحي لأنّ وجوده أصبح مثل إيقاعٍ موسيقيّ هادئ تتوازن عليه ليس يوميات حياتي فحسب، بل وحياة

الرُّهبان والرَّاهبات جميعهم، وتبرّر بقائي في هذا المأوى الطّوعيّ سبع سنواتٍ، بين أسواره الشّاهقة، في قلّايةٍ ضخمةٍ تشبه محارةً مرميةً في قاع البحر، تنتظر أن تغذي نواة اللؤلؤة فيها. عالم روحاني، لا يطالب عباده سوى أن يغمرهم برحمته الواسعة، كما يغمر الأرض بهطول المطر، لا لذنب ارتكبوه أو خطيئة اقترفوها، بل خضوعًا لفكرة تأنيب الضّمير التي عشّشت في رؤوسهم مثل مرضٍ مزمنٍ لا دواء له. ترياق تخدّروا عليه، كحالة إدمانٍ لا علاج لها.

في لحظة استقبالي خبر سفري، اجتاحتني رعشة اضطراب، ودوّت صرخةٌ في أعماقي، كأن مجنونًا استولى عليّ، وأخذ يقود أفعالي، خاطبت نفسي:

ـ يا إلهي! هل تحقق حلمي أخيرًا؟ هل ابتسمت لي الدنيا بعدما كشّرت عن أنيابها في وجهي سنوات طويلة؟ ألستُ ذلك اليائس من الحياة، الذي دفن نفسه في الرّكن النّائي من العالم، بعيدًا عن كلّ مباهجه؟ أَوَلَمْ أكن ذلك الرّث، المنسيّ، ذلك السّجين المُهان، ذلك المتسوّل القذر، ذلك المهاجر الحائر، ذلك الشّريد المطارد، الذي يتلفت يمنةً ويسرةً وكأن غولًا يتتبع خطاه ويريد ابتلاعه؟

لقد شربت عطر العواصم، واكتفيت بنكهاتها التي لا تفارقني، كأنهن عشيقاتٌ لا يبادلنني الحبّ. أسئلة كثيرة قضّت مضجعي، وضربت بمطارقها رأسي المثقل بأوجاع الأرق الليليّ، لكن هذا الخبر غيّر مجرى حياتي، قالبًا إياها رأسًا على عقب، وبدوت ضعيفًا مثل طائرٍ هزيلٍ، نبت له جناحان بمشيئة ربّانية، لكي يحلّق في أعالي السماء. حملت على كاهلي، شبح السّنوات الطويلة كأنني أذهب للتبشير في

أرضٍ أخرى عن دين جديد، دين الفرح والبهجة والانتشاء، غيرُ مُنزّل، لا كتاب له، ولا نبيّ، ولا مبشّر، ولا حروب، ولا عبودية، ولا صلوات، ولا تفاسير، لا عقد تأنيب الضّمير ولا أي شيء آخر سوى النداء الباطني الذي يحرّضني على معانقة شجرة الحياة، وامتصاص رحيقها، كما يمتصّ النّحل رحيقَ الأزهار. ألقي بنفسي تحت شلّال الماء المنهمر من أعالي الجبال، مرسلًا نظراتي إلى الأعالي، حالمًا متضرعًا بالخروج من هذا المكان:

ـ ربّ أنقذني من عذاب الذّاكرة، ومطارقها الثّقيلة، وهي ترسم لي سيرة حياة رجلٍ يدفع ثمن تمرّده، ويتجرع سُمّ أيامه الماضية بين تواريخ ومواقف لا أُحسد عليها.

كنت أبغي أن يكون عقلي صفحةً بيضاءَ، ناصعةً، لكنه متاهةٌ مكتظةٌ بخطوط أخطبوطيّة، في تلافيف دماغي، مثل شبكات طرق لا تلتقي. ولكم تمنيت في تلك اللحظة، أن أضغط على زرّ وأمسح كل ما رُسم في ذهني، من علامات وندوب، وسنوات وشهور وأيام وثوانٍ ولحظاتٍ من الانتظار، وكأنّني أكشف الزّمن، وأحوّله حباتٍ رملٍ، أتلمّسها بأصابعي، لكي أتأكد من وجودها. يا إلهي! أرى اندحاري الوحيد في دولاب الزّمن الدّائر؛ لأنّني عاجزٌ عن الوقوف في وجهه، ولا أملك سوى الدوران في فلكه، والانصياع إلى مشيئته الرّبانية؛ السّيد المطلق، القابض على نبضات زمننا، وزمن الأكوان، فكيف لي أن أستعيد عمرًا تناثر بين شتات زمنٍ هاربٍ؟

هكذا أجدني... لو لملمت سنوات عمري الخمسين؛ لما انتقيت واستعدت منها سوى بضع دقائق حبلى بالفرح والابتهاج، وما تبقى

منه، يقيم في بؤرة حريقٍ هائلةٍ، في نفقٍ أسود، أو يتحرك في اتجاه بصيص ضوء، فأردد مع نفسي:

ـ هل انفرجت الحياة أمامي أخيرًا؟

اجتمع حولي الرُّهبان والرَّاهبات، غير مصدّقين أنني سأغادرهم إلى غير رجعة بعدما فُجعوا بمغادرة الأب جوزيف المفاجئ، كأب يترك أولاده على قاعة الطريق، فكانوا يودعونني بتلمس جبّتي السوداء بأصابعهم المرتجفة، ويتحدثون عن مصيري، بحب مفرط، ويتذكرون أيام السّراء والضّراء التي أمضيناها معًا طوال سبع سنين، وهم يتوسلون إلي أن أتسلم قيادة الدّير بعد الأب جوزيف، لكن ذلك لم يكن ممكنًا، فالأب سامر أجدر مني، لكنه هو أيضًا، كان يخطط لمغادرة الدّير، لذا انتشر الخوف والفزع، خشية أن تتفتت مملكتهم هذه كما انهارت أمبراطوريتهم في الزمن الغابر بعدما أطبقت شهرتها الآفاق.

لم أتوقع أن يقيموا على شرفي حفلة توديع. عشاءً كبيرًا، ووليمةً باذخةً، موائدُ مفروشةً بشراشفَ مزركشةٍ، وشموعٌ مشتعلةٌ، وأطايب أطباق شهيّة، تحت شجرة السدر في باحة الدّير، التي طالما وقفنا تحت ظلالها، ننسج أحلامنا في الدنيا والآخرة. الأخت سيسيل حضرت بعض الأكلات التي أحبها، والأب الياس الذي أغرق الدّير بحكمه، كان حاضرًا، والأب شربل جاءني بكتابٍ هدية، والأب سامر، تلميذ الأب جوزيف ووارثه، جلب قناني النبيذ المعتّق التي تليق بكبار الأساقفة والقساوسة والمطارنة الكبار ورجال السياسة، وفتحها على شرفي.

قبل مغادرته، كان الأب جوزيف يترأس مثل تلك الحفلات، أما الآن فقد حلّ الأب سامر مكانه، وكعادته كان يصبّ قليلًا من النبيذ

في قاع كأس رقيقة، يحتفظ بها في مكان آمن، ويرفعها إلى السماء، ويعرّضها لأشعة الشمس في النهار؛ فتنعكس فيها ملامح وجوهنا المتعبة، ولكنّه في هذا المساء، رفع كأسه الشّفافة البيضاويّة الشّكل، وراح يتمعّن فيها في ظلّ انعكاس ضوء القمر، كأنّه يقرأ في فنجان القهوة سحر التنبؤات وأمواج الطالع، ثمّ التفت إليّ قائلًا بمزاحٍ:

ـ هاأنذا أفحص النبيذ على ضوء القمر لأننا في المساء؟

ابتسمت له وقلت:

ـ هل يغيّر القمر طعم النبيذ؟

فعلّق ضاحكًا:

ـ روحك هي التي تغيّر طعم النبيذ، لا القمر ولا الشّمس. عندما تكون الشّمس فوق رؤوسنا، تغوص في الكأس المليئة بعصير العنب المعتّق، لأنّه المشروب الإلهي الوحيد الذي لا يفسد، ويأخذ نكهة الجنّة والنّار، كما نتخيلها.

واستغرق الأب سامر يمحص في مكونات النبيذ في قاع الكأس، ثمّ سأل بصوتٍ عالٍ:

ـ هل تعلمون كم عمر هذه القنينة؟

بدأ الرُّهبان والرَّاهبات يدورون برؤوسهم، وتعالت قهقهاتهم.

ثم نهض الأب الياس، الشيخ المخضرم الذي شهد أولى لبنات تشييد هذا الدّير، قائلًا بصوتٍ مرتجفٍ:

ـ حين احتل الفرنسيون لبنان.

صرخ سامر:

ـ عظيم أيّها الأب الياس، إجابة صائبة، اسم القنينة «غورو»، هنري جوزيف أوجين غورو.

ثم تساءل أحدُ الرُّهبان:

ـ ومن يكون هذا الغورو؟

ضحك الأب الياس، وانكشف فمه الأدرد كهوّةٍ فارغةٍ وأجاب:

ـ أوّل مفوّض سامٍ حكم لبنان في زمن الانتداب، أيّها العاقل.

تعالى ضحك الرُّهبان والرَّاهبات.

وتساءل آخر:

ـ ومتى كان زمن الانتداب؟

فأجابه:

ـ إبّان سقوط الأمبراطورية العثمانية وانتهاء الحرب الأولى.

وأضاف:

ـ لنفتح الآن هذه القنّينة على شرف الأب إسحق.

ثم رفع قنينةً أخرى، وسأل:

ـ وهل تعرفون ما اسم هذه القنّينة؟

راح أحدهم يوشوش في أذن الآخر، متردّدين في الإجابة:

فعلق الأب سامر:

ـ سأريحكم من الإجابة هذه المرة؛ لأنّ أصعب ما يواجهه المرء هو الامتحان، وبدا مرحًا وهازئًا: حسنًا أصحاب القداسة اسمها إيتيان، بول إيميت بينيت إيتيان.

ثمّ أضاف، ومن يعرف من هو إيتيان، سأمنحه هديّة ثمينة.

فصاح أحدهم:

ـ وما هي الهديّة، يا أبانا؟

ـ قنينةُ نبيذٍ كاملةٌ.

قهقه الرُّهبان والرَّاهبات، وهم يتبادلون نظرات الحيرة مثل تلاميذ كسالى، ولم يطق الأب سامر الانتظار، فصرخ:

ـ آخر مفوض فرنسي عام على لبنان، احتفى بجلاء آخر جندي بعد الحرب. ولكن هل تعرفون ماذا فعل الفلاحون آنذاك؟... اندفع الفلاحون نحو الدّير، وأنزلوا مئات القناني من النبيذ إلى القبو؛ لتخليد الذّكرى، نامت هذه القناني على الرفوف الخشبية هناك حتى الآن، ولا يوجد أفضل من مناسبة الاحتفاء بتوديع الأب إسحق؛ لفتح أقدم القناني على شرفه.

تعالت صيحاتُ الرُّهبان والرَّاهبات، رافعين كؤوسهم للأنخاب، وأطلَّ طيفُ الأب جوزيف من بعيدٍ؛ لو كان موجودًا بيننا، لأطلق العنان لعبقريته في الضّحك والهزل والحكمة. لوّحت له بيديّ، التفت الرُّهبان والرَّاهبات إليّ، رافعين كؤوسهم نخب توديعي ثانية. وقف الأب سامر ليخاطبني:

ـ أبانا إسحق، إذا التقيت صاحب القداسة، أخبره أننا لم نخترق

تعاليم يسوع، ونحن نشرب نبيذه كالماء المقدس، كالمطرِ الذي ينهمرُ من السّماء، ونخلّد معجزته الخارقة كما نخلّد معجزة الآباء الآشوريين.

ألقى الأب سامر مسؤوليةً كبيرةً على عاتقي، مقترحًا تغيير موضوع أطروحتي من «الرَّهبنة والتصوّف» إلى «معجزة الآباء الآشوريين في دير الأيقونات»، مضحّيًا بأبحاثي السّابقة؛ لكنّني احتفظت ببحثي ووعدتُ الأب سامر بعدم تقديمه لكي أرفع قضية الدّير وأعطيها الأهمية القصوى، واقتنعتُ بأنّ معالجة قضية الرُّهبان والرَّاهبات الأحياء في دير الأيقونات خيرٌ من بحث حياة رهبان ومتصوّفة ماتوا منذ قرون، وذابت عظامهم في التّراب، فما جدوى الكتابة عن فردوس الماضي، وإهمال جحيم الحاضر؟

وعندها استدار الأب سامر نحوي، رافعًا كأسه:

ـ نخبك أيّها الأب إسحق، قل ما تشاء، فهذا يومك.

فرفعتُ كأسي:

ـ ليبارك الرّب الآباء الآشوريين ويحفظ ديرنا من الأعداء.

ثم استدار نحوي وسارع بنزع قلادة الصّليب، وقلّدني إيّاها كقائدٍ يكرّم أحد جنوده الشّجعان بشارة النّصر، قائلًا:

ـ أقلدّك هذا الصّليب الذي قلدني إيّاه الأب جوزيف.

قدّمت إليه عظيم امتناني، وقلتُ في نفسي:

ـ أتراني أستحق تعليق هذا الصّليب الذّهبي على صدري؟

لم أكن أتخيّل أنني سأحمل هذا الصّليب، بكل ما يزخر به من

رموز آشورية خالدة في وقت رنّ في أذني صوته من بعيد: تستحق أكثر، يا إسحق، لأنّ الدّير مدينٌ لك، ولولا أفكارك لأصبح الرُّهبان والرَّاهبات شحاذين يستجدون قوتهم اليومي من المزارعين، بكلّ ذلّ وهوانٍ، يكفي أنّك طردت من حياتهم الفقر وآفة الكسل.

رفع الرُّهبان والرَّاهبات كؤوسهم، وانطلقت الأغاني والتراتيل تصدح من حناجرهم، على إيقاعات رقصاتهم.

ـ يا إلهي! كم كافح الأب جوزيف ليقنعهم بأن العمل والعبادة لا ينفصلان، وتمكن ببراعة أن يخرجهم من كهوفهم ومغاراتهم وقلّاياتهم، وأنار لهم طريق الزّواج والإنجاب والزّراعة، مما أغضب الأساقفة، والشمّامسة، والقسيسين الكبار، وأهل السلطة في الفاتيكان.

كان المشهد يستحق أن يخلّدَ في لوحةٍ فنيةٍ، ملحمة أبطالُها بشرٌ يريدون العيش في طمأنينةٍ وسلام وكرامةٍ، من دون تهديد لمصائرهم من خارج أسوار الدّير، ولو قُدّرَ لصاحب القداسة أن يرى ينابيع البهجة التي تفيض من عيونهم، لكان غيّر رأيه في الحال؛ واعتذر عن محاكمة الأب جوزيف. وقلت في نفسي: لا تقلق يا صاحب القداسة، فأبناؤك لم يضلّوا طريق يسوع كما تظن، ولو كنت تراهم عند توديعي لهم، لفاض قلبك بالفرح والبهجة، ولا أعتقد أن خطيئتهم الكبرى تكمن في تخلّيهم عن العزلة والفقر والبتولية، بل في تعلقهم بالأوهام والخرافات.

بعد اختتام الحفلة، رافقني الأب سامر إلى غرفتي وقال لي:

ـ سنخرج عند الفجر لتوديعك في المطار.

ـ يا أبانا العزيز، لا تكلّف نفسك، يكفي ما قدمته إلي في حفلة التوديع.

وفكّرت في الليل، أثناء جمعي حاجياتي الصّغيرة في حقيبة السفر:

ـ هل يُعقل أنّ روما بكل عظمتها، تنتظر رجلًا منسيًّا مثلي؟ من أكون بربكم، حتى يتشّرف صاحب القداسة باستقبالي في أروقة الفاتيكان؟

حاولت أن أعبر البرزخ الهائل بين نفسي وحلمي، وأستعدّ لهذه الرّحلة التي لولا جهود الأب جوزيف المضنية، لما كنت أفكر في ركوب حمار وليس طائرة. وحتى قبولي في الدّير كان معجزة بفضله بين أصوات مناوئة من الأصوليين المتعصبين لمسلم يلجأ إلى الدّير ويصبح راهبًا. قبّلت يده على جرأته في اتخاذ قراره الحاسم. كنت فرحًا وحزينًا في الوقت عينه، على مغادرة هذا المكان الذي تآلفت روحي معه، مع الآباء الآشوريين: الأب جوزيف، وتلميذه سامر، واليهودي المقدسيّ، من أصل عراقيّ، الأب الياس، الذي غادر القدس، قائلًا لسلطانه: لقد حوّلتم كلمات يسوع طلقات رصاص. ثمّ الأخت سيسيل، الأسطورة الآشورية، سليلة الكهنة القدامى، والتي أصبحت راهبة من دون أن تدري.

في الصّباح الباكر، أخذتْ روحي تحلّق قبل جسدي، في ركوب الطّائرة، أنا الذي كنت مقصوصَ الجناحين، لا أموالَ لديه ولا جوازَ سفرٍ، ولا أمتلك سوى فرشاة الرّسام وجبّة الرّاهب وحقيبة جلدية أجرجرها على أرض المطار. ورغم فرحتي العارمة، كنت أحلم بالسّفر على متون السّفن، وأنظر إلى مياه البحر، والنوارس، والدلافين، ووقت

الغروب وملاقاة النّساء اللاتي هجرهن أزواجهن على أرصفة الموانئ، لأنّ فضاء السّفن كان على الدوام يغريني، أكثر من الممرات الضّيقة بين مقاعد الطّائرة، ومغازلة النّساء في السّفن تختلف كثيرًا، لأنها تحتوي على غرفٍ، بنوافذَ كبيرةٍ، وساحات عريضة، وممراتٍ سّريةٍ معتمةٍ، أكثر إثارة. وسرعان ما تساءلت: هل يحق لراهب مثلي أن يفكّر هكذا؟ ثم قلت لنفسي: هل يمكن أن يتأرجح الرّاهب بين الشّك واليقين، بين الجحيم والفردوس؟ هل كنت انتهازيًّا يا ترى في لجوئي إلى دير مسيحي؟

مسّت جبّتي السّوداء الجديدة أرض المطار، فكنت ألملم حواشيها كعروسٍ خجلى، تجرّ أذيالَ بذلتها الزّاحفة على الأرض يوم زفافها، مما أثار ضحك البعض، وضحكات نفسي، المدوّية في أعماقي أيضًا، وظهرتُ كرجلٍ يتنكّر في جبّةِ راهبٍ مزيّفٍ. لم أكن راهبًا مزيّفًا، ولا راهبًا حقيقيًا، لكنني أحثُّ الخطى لأجمع بين متناقضين في بوصلتي الرّوحيّة، وأبحث عن الطمأنينة والهدوء في أعماقٍ صاخبةٍ، كأنّني رجلٌ ظامئٌ، متيبّسُ الشفتين، يبحث عن واحةِ ماءٍ في صحراء جدباء. وقلت في نفسي: لطالما تراكمت في هذه الصّحراء عقائدُ وأفكارٌ وأوهامٌ على مرّ السنين، ولم تترك لنا الخيار، فأصبحنا ننهل من أديانها الثلاثة التي بزغت أنوارُها في هذه الأرض، وأصبحت مقدّسةً لبعض الناس ولعينةً لبعضهم الآخر، وما جاء به الأنبياء، خرّبه البشر اللاحقون، وأصبح مصيرنا كالرّمال المتحركةِ، التي تبتلعنا في أيّة لحظةٍ. هل أتت هذه اللحظة؟ هكذا كنت أخشى الصّحراء، وما تحمله في أعماقها، من نبوءات، ما كان لي أن أصدّقها لولا حياتي في الدّير.

رافقني الأب سامر، الذي حرص على توديعي، ولوّحت بيدي

للرُّهبان والرَّاهبات الذين خرجوا ذلك الصّباح لتوديعي، واغرورقت عيونهم بالدّموع.

ضحكتُ في سرّي لآخر معجزةٍ في الدّير، وقلت: يا لعظمة الإيمان؛ فالمسيحيون قادرون على الاعتقاد أن الدموع يمكن أن تخرج من عيون التماثيل الحجرية، معللين ذلك بقولهم: ما دامت مياه الينابيع تخرج من بين الأحجار، فلماذا لا تخرج دموع الإيمان منها أيضًا. لم يكن أحدٌ في الدّير قادرًا على إيقاف سيل الغيبيات التي يبتدعها الزّوار عن الدّير الذي عشنا فيه، من دون أن نقدر على تبديد أوهامهم وخيالاتهم. ثم لماذا نُبدّدها، ما داموا سعداء بها، ويعيشون توازن حياتهم على إيقاعاتها؟

كان عليّ أن أعيش هذا الخيال، ولا أظهر رفضي له.

لم أرغب في أن يتحمّل الأب سامر عبء مرافقتي إلى المطار، وألححت عليه أن يبقى في دفء الدّير ولا يعذب نفسه في زمهرير البرد، لكنّه رفض بإصرار عجيب، وأراد التأكّد من ركوبي الطّائرة. كنتُ قد شذّبت لحيتي، وارتديتُ جبّة الرَّاهب السّوداء، وقميصًا أبيض مكويًّا بعناية، ووضعت الصّليب، هدية الأب جوزيف، على صدري، وعقدة عنق الرُّهبان المعروفة، أيقونة السيدة مريم، تلك التي رسمها أحد الرُّهبان على صدفة محارة، قالوا إنّها استخرجت من بطن حوت عظيم يوم اصطياده، فجاءت مثل اللمسة الأخيرة في أناقة مظهري.

ابتسم الرُّهبان والرَّاهبات أثناء توديعي، وقالوا:

ـ نفتخر بأناقتك.

وقال الأب سامر:

ـ هكذا نريدك، أجمل من يمثل ديرنا.

ثم أضاف بنبرةٍ مازحةٍ:

ـ لا بدّ أن تكون أنيقًا في مقابلة صاحب القداسة.

أما رجال الشرطة وموظفو المطار والعاملون، فبُهروا بمظهري؛ وتعاملوا معي بأدب جمّ، ومنهم من اقترب منّي، وشمّ رائحة العود التي تعطّرتُ بها، ولم تكن تفارقني، مما جعلهم يقرّبون أنوفهم مني لمعرفة سرّها.

رافقني الأب سامر إلى حواجز مراقبة الجوازات للتأكد من سلامة إجراءات السّفر، ثم عانقني بحرارةٍ، وقال لي:

ـ أرواحُنا أمانةٌ نسلّمها بين يديك.

تألّقتْ الدموع في عيني الأب سامر.

احتضنتُ الأوراقَ، وضممتُها إلى صدري بجوار قلادة الصّليب:

ثم أضاف:

ـ أتمنى أن تواصل دفاعك عن دير الأيقونات.

ابتسمتُ وقلتُ له:

ـ دير الأيقونات... قضيتي، وجوهر إنسانيتي التي حرص الأب جوزيف على رفعها إلى أعلى المراتب، والرُّهبان فيها أبطالٌ منسيون

يعيشون حولنا، وليسوا أساطير نتوهمهم، إنّهم رسل يسوع الذين نبذوا الأضاليل.

فاضت عينا الأب سامر بعذوبة الأب، وطيبة الراعي، وهو يردد:

ـ سيكون اللّه في عونك.

في تلك اللحظة، فكّرت في أنها معركتي الأخيرة في الفاتيكان، من دون أن يساورني أي شكّ في أن مغادرة الأب جوزيف الدّير كانت مؤامرةً فاضحةً، حاكها له البعضُ في الظّلام.

كنتُ أنظر إلى عيون الجميع، وأرى لمعان دموع الفرح وبريقها، تنحصر في محاجرها؛ لتقول كل شيء، وكلمة «أبونا» سامر كافية للتعبير عن مشاعر بقيّة الرُّهبان والرَّاهبات.

خجلتُ من الحفاوة المفرطة التي أحاطني بها في المطار، هؤلاء البشر، الذين يكنّون إعجابًا دفينًا للرُّهبان، حتى لو كانوا من الفاسقين واللصوص والمجرمين والقتلة، ويتخيلون أنّ الرَّاهب منزّلٌ من السّماء، وهذه لم تكن حالتي.

كنتُ قلقًا جدًّا: هل أصل إلى الفاتيكان، أم أن ظروفًا ستحول دون ذلك؟

حملت في حقيبتي بعض الملابس: قميصٌ حريريٌّ، ربطةُ عنقٍ، وبذلةٌ صوفيةٌ زرقاء اللون، وحذاء جلدي أسود أنيق ولمّاع، تحسبًا لأي تغيير طارئ قد يحدث، وكان لا بدّ من الملابس الدنيويّة التي قد تعوّض الرّداء الكهنوتي الذي كنتُ أتخيّله لُصِق بجلدي وإلى الأبد. من يدري ماذا يحدث في عقل الرَّاهب ووجدانه.

لم أقف في الطّابور، جاءني أحد الضّباط، وحمل حقيبتي الوحيدة، وشقّ الصّف لكي يُعجّل في صعودي إلى الطّائرة، ويتمّم إجراءات السّفر. وبعدما دقّق الضّابط في جواز سفري، التفت إليّ ضاحكا كمن يمازحني:

ـ أتمنى أن تطلب من البابا أن يزورَ بيروت.

هززت رأسي، مبتسمًا، ثم سألني بجدية:

ـ هل ستلتقي البابا؟

هززت رأسي.

أعاد إلي جواز السفر، بيد مرتعشة، مبهورًا، وقال:

ـ سفرة سعيدة، يا «أبانا»، نطلب دعاءك، بيروت تطفو على قشةٍ في بحرٍ هائجٍ.

ـ آمين. فليباركك الرّب، وليهدأ البحرُ الهائج.

ورسم شارة الصّليب في الهواء، وهي حركة تفرّق بين الضّابط المسيحي والضّابط المسلم، وبيروت فرنٌ كبيرٌ تنصهرُ فيه الأديانُ والأعراقُ والأجناسُ، لذلك لم أفهم لماذا يتقاتلون ويصلّون، باسم الرّب نفسه.

تعثّرت خطواتي المرتعشة على السّلم المعدنيّ، كأنّ أحدًا يسحبني من أذيال جبّتي إلى الوراء، ويحول دون ركوبي الطّائرة، بقايا كابوسٍ قديم، ربّما لأنّني أرى شبح طائرةٍ حتى في أحلامي، وتصوّرتها إلهًا جاثمًا على أرض المطار، يتفرّس في وجهي، ويغريني بالصّعود إلى خلاصي المرسوم في السّماء. لطالما انتظرتُ هذه اللحظة على أحرّ

من الجمر مثل السندباد البحريّ وهو يبحث عن العجائب في قلب فردوسٍ ضائعٍ. ثم قلت في نفسي: هل يمكن أن تعثر أيّة طائرة مهما كانت عملاقةً، ومزوّدةً خرائط عباقرة الجغرافيين، على الفردوس الذي أنشده، لكن حواراتي مع نفسي أوحت بمظهري الأحمق، فقلت: الذين يتحدثون مع أنفسهم إما عباقرة وإما حمقى.

استقبلتني مضيفة الطّائرة بكل تهذيبٍ، وانحنت لي، وأعلنت عن اسمها.

ـ تفضل يا أبانا: هذا هو مقعدك بجوار النّافذة.

ـ شكرًا. يا ناتاشا.

هذه الفاتنة الممشوقة القوام، بشعرها الأشقر ولكنتها الشرقية، الممزوجة بكلماتٍ إنكليزيةٍ ركيكةٍ، لا تكون سوى روسية أو أوكرانية، وقبيل إقلاع الطّائرة بقليل، بدأت تشرح للركاب خطوات إجراءات السلامة: استخدام أقنعة الأوكسجين، باب الطوارئ، أزرار طلب النجدة، وغيرها من الإجراءات التي نسيتها تمامًا.

ثلاث ساعات من الطيران، من بيروت إلى روما، وربما يزيد الوقت قليلًا، إذا ساءت الأحوال الجوية، واختتمت تعليقها بعبارة: مع تمنيات مضيفتكم ناتاشا برحلةٍ سعيدةٍ.

قلت في نفسي إنّها فرصتي الوحيدة لأتّخذ القرار الحاسم في مواصلة حياتي السّابقة أم تغييرها بعدما أصبحت حرًّا بجواز سفري الجديد، الأحمر اللون، مثل صقرٍ حرٍّ يجوب السّموات. ثم فكرت: هل اهتمام المضيفة الرّوسية بي يأتي من شغف الرّوس بالمسيحية بعد سنوات الإلحاد والشّيوعية؟

مرّت باريس وبغداد ودمشق وبيروت أمامي مثل غيوم عابرة، بكل ما تحمله من أسرار وخفايا: نجوم تتهاوى، الواحدة بعد الأخرى، وتتساقط المدن في مخيلتي، لا أدري، هذا الشريط السينمائي، الذي يمضي في ظلام القاعة، ولا يهدأ، بعدما أخذت كل منها نصيبًا من حياتي، ولم أكن أرى أعماق هذه المدن إلّا عندما تتعرّى وتكشف عن مفاتنها، وأسرارها الغامضة. كنت أرسل نظراتي عبر نافذة الطّائرة، في حين تبعث ابتسامتي البهجة والسرور في نفوس الرّكاب، وتسألني ناتاشا:

ـ هل ستلتقي صاحب القداسة، يا أبانا؟

كنت أهّز رأسي، وأكتفي بالقول: إن شاء اللّه.

لكنني كنت أتحاشى نقاشات الرّكاب وثرثرتهم؛ إذ كنت غارقًا في بحر ذاكرتي، غير مصدّق أنني أحلق بعيدًا عن الدّير. عندما أخذت المضيفة بيدي إلى مقعدي، أثار ملمس يدها النّاعم وخاتمها الذّهبي أحاسيس رجولة دفينة، كنت أخالها قد ولّت بلا رجعةٍ، لكنها لم تكن كذلك. ربتت على كتفي، وأيقظتني من اللحظات اللذيذة في شرودي، تهَمس في أذني، برقتّها الأنثوية، وشفتاها تكادان تلامسان شحمة أذني، ونكهة علكة النعناع التي تمضغها تتسلّل مع أنفاسها:

ـ أبانا العزيز اربط الحزام.

تحسست الحزام، الذي ربطت به خاصرتي، فبدا بطني بارزًا قليلًا، وهو ما تكرهه النساء، حاولت أن أقلّص عضلات بطني لكي أخفي الجزء الظّاهر منه، في حين شتت انتباهي صخب محركات الطّائرة الذي ملأ أذنيّ، لكنني غير مصدّق أنني أرتدي جُبّة الرّاهب الكالحة فيما

الهوّة التي تُفزع أشد القلوب وتُجبرها على تمني الخلاص أخذت تتسع في أعماقي، بقوةٍ ساحرةٍ، وتزعزع قلبي الحائر بين الإيمان والشّك، وأذلّل خشونة طريقي الوعرة، باحثًا عن بذور الإيمان في أعماق الشّك. قلتُ في نفسي: انتبه، يا إسحق، كنت على الدوام، ذلك المشاكس الذي لا يهتم لصعاب الأمور، والآن حان الأوان لكي تفكر في نفسك قليلًا: ماذا تريد أن تكون حياتك المقبلة؟ كنت أريد شيئًا واحدًا فقط، هو الوفاء لتعهدي للأب جوزيف الدفاع عن دير الأيقونات، القضية التي تخصّ حياة ثلاثمئة راهب وراهبة، تركتهم وحيدين، شاعرًا بتأنيب الضّمير، بعدما أخذ الآباء الآشوريون ينسلّون الواحد بعد الآخر من الدّير كأنّهم يهربون من سفينةٍ غارقةٍ، كأننا كنّا على سفينة التايتنيك بعد اصطدامها بالجبل الثلجيّ الهائل.

* * *

كان على الطّائرة حوالى اثنين وسبعين راكبًا. لم يحصهم هو، إلا أن قائد الطّائرة قال: يسعدنا أن عدد المسافرين ازدادوا عن بداية العام، فعلى طائرتنا اثنان وسبعون راكبًا. فكّر إسحق مليًّا في هذا الرقم الذي كان الأب إيلي المعتوه يكرّره دائمًا على مسامع الرُّهبان والرَّاهبات في دير الأيقونات، كان مار ماري الرّسول، تلميذ يسوع من بين اثنين وسبعين تلميذًا من تلاميذ المسيح، أكمل رسالة الإنجيل في بلاد الرّافدين، في ساليق فيطيسفون، قرب بغداد قبالة سلمان باك (أي سلمان الطاهر) من الجهة الثانية لنهر دجلة حاليًّا، إلى جانب مار إدّي، من تلاميذ كنيسة المشرق، وهما وضعا النّافورة الرئيسة في القدّاس الكلداني، ولهذا وضعت رعية دير الأيقونات تحت حماية مار أدّي الرسول.

وراح الأب إيلي راكضًا إلى المكتبة، يسأل الأب شربل عن تفاصيل إرسال التلميذين الرسولين إلى بلاد ما بين النّهرين، فأفصح عن الكثير منها، قائلًا له: يا إيلي، صحيح قول المثل: خذ الحكمة من أفواه المجانين، وأنت لست مجنونًا بل حكيم، وأبله عاقل، وتصلح أن تكون في مرتبة التلميذ الحائر بأسئلته.

ـ هل تريد حقًّا أن تعرف كيف حلّ يسوع بيننا قبل أكثر من عشرين قرنًا؟

وقف إيلي، وقفة وجلة، خائفة، تحت ظلال الكتب التي اكتظت بها المكتبة، وهو يقول للأب شربل: هل قرأت جميع هذه الكتب؟

ـ ألم أقل إنك الأبله العاقل؟ كيف يمكنني أن أقرأ كل هذه الكتب؟ لو عشت ضعفي عمري لما أدركت قراءتها جميعًا.

نظر إيلي في عيني الأب شربل، يريد فكّ ذلك البريق الذي يشتعل فيهما، وقال له:

ـ لكن كل هذه الكتب تقول كلمة واحدة: كن عادلًا. فهل تشعر أنك عادل في حياتك؟

لكنني أريد أن أعرف، هذا كل ما في الأمر، كيف أصبحنا، نحن الآشوريين، من أتباع يسوع؟

ـ تعالَ معي إلى داخل المكتبة، فلا يصّح أن نقف على البوابة هكذا، سأقرأ عليك من مخطوطة قديمة ما ذكرته عن التفاصيل، ولكي تدخل المعلومات إلى رأسك العنيد، يجب أن نشرب كوبين من الشاي

الساخن، ونذهب بخيالنا مع البخار الذي يتصاعد منهما، لكي تفهم أكثر، هو أحد الاثنين والسبعين تلميذًا.

ـ من؟

ـ مار ماري الرسول؟

ـ طبعًا، لا تقاطعني حين تسأل. بدأ تبشيره بعد العنصرة في مدينة الرها، أورفا التركية حاليًّا، بحسب تعليم مار أدّي. إن ملك الرها أبجر الخامس، أوكاما، ابن معنو كان مصابًا بمرض داء الملوك.

ـ هل تعرف ما هو داء الملوك؟ النقرس أو داء المفاصل. هل تعلم لماذا يُصاب به الملوك؟ لأنهم كسالى، لا يتحركون. دعنا من ذلك. هذا الملك أرسل إلى الرّب يسوع وفدًا طالبًا منه أن يشفيه من مرضه وقد وعده الرب: بعد قيامتي وصعودي إلى السماء، سأرسل لك أحد تلاميذي ليشفيك من مرضك ويمنح الحياة لك ولكل أهل بيتك وتكون مدينتك مباركة ولا يتسلط عليها العدو.

في مدينة الرها حلّ مار أدّي في بيت رجل اسمه «طوانا» أي الطوباوي، شرع يحدثهم عن الإنجيل وعن العناية الإلهية وتعريف الناس بالمخلّص الذي هو المسيح الرّب. يعرفهم بحياة المسيح والعجائب التي صنعها وموته وقيامته، وكان تعليمه مقرونًا بالعجائب وشفاء المرضى، فسرعان ما انتشر خبره في كل المعمورة.

عندما سمع الملك أخبار أدّي استدعى طوانا وقال له: «لقد بلغني أن في بيتك رجلًا مقتدرًا»، فإئتني به في الحال. أُتي بالرجل وعند دخوله إلى القصر رأى الملك على وجه القديس نورًا وبهاءً، فتعجب

الملك وخرّ ساجدًا له، فدهش الحاضرون كيف أثر في الملك رجل يلبس ملابس رثة. ولم يعلم الملك أن المسيح أظهر مجده بالرسول، وطلب الشفاء من يد مار أدّي، فقال له الرسول: إنْ تؤمنْ تنلْ مرامك لأن بالإيمان كل شيء مستطاع. فقال الملك: آمنت إن الرب يسوع هو خلاصي. وأردف قائلًا «عندما سمعت بموته على الصّليب، تألمت كثيرًا لولا خوفي من جيش الرومان لأرسلت جيشًا لإهلاك الذين صلبوه، فوضع الرسول يديه على رأس الملك وطلب الشفاء له وشفي بقوة الرّب يسوع من دائه، وشفى عددًا من عبيد الملك وعددًا كبيرًا من أهل المدينة، وأراد الملك أن يعطيه ذهبًا وفضة، فقال الرسول: كيف نستطيع أن نأخذ ما ليس لنا؟ وشيد مار أدّي كنيسة في الرها ورسم كهنة وشمامسة لها ونال إكليل الشهادة في ١٤ أيار/مايو ودفن في الكنيسة التي بناها. هل يكفي ذلك؟».

طأطأ إيلي رأسه، وتمتم: الآن فهمت يا أبانا شربل. وقال له:

ـ لماذا حُكم على الأنبياء بالسفر على الدوام؟

وخرج هاربًا من المكتبة، لكي يخبر من يصادفه بمجيء الرسولين، ونشرهما تعاليم المسيحية بين الآشوريين.

كان الأب جوزيف مولعًا بتزيين دير الأيقونات، ليجعل منه شاهدًا على أهمية الفن، فكان يكلّف الفنانين من أصقاع الأرض ويدعوهم إلى الإقامة في الدّير من أجل أن يرسموا ويتركوا لوحاتهم هدية إلى إليه، فيقوم الأب جوزيف بتعليقها على أروقته، مما جعله يظهر كأنه غاليري فنية تعّج باللوحات. وكلف فنانًا مسيحيًّا محترفًا ومختصًّا برسم الأيقونات الكنسية، اسمه مايكل بيرفان، رسم لوحة مار أدّي مُستَلهمًا

روحية القديس من خلال الكتابات والأعمال التي قام بها. وقد شَرح الفنان بعد القدّاس معاني الصورة التي قال عنها: «إن الأيقونة هي كتابة تُصَوّر هذا القديس حيث يظهر رجلٌ فارع القامة شديد الهمّة، في وسط الأيقونة، مهرولًا في الطريق والرياح تعصف بردائه ذي اللونين الأزرق والأحمر دلالة على قداسته، والغبار يلحقه قادمًا من أورشليم التي يُرمز إليها بأسوارها العالية الضخمة على يسار الأيقونة، عابرًا الصّحراء بين أورشليم وبلاد ما بين النّهرين، وهنا رمز إليها بالجبل الصخري لوعورة أرضها وكثرة المشقّات التي واجهها أثناء سفره، والكتاب في يده، أي حاملًا معه البشرى السارة «الإنجيل المُقدّس» لينقلها إلى أهالي بلاد ما بين النّهرين، ويظهر الإنجيل إشارة الصّليب والنجمة الكلدانية في وسطه. أما على الأرض التي داسها، فنبت عشبٌ أخضر دليل عمله المثمر في القلوب. والنبات من خلفه أصبح شجرة صغيرة أي إنه تأصّل بالإيمان. وهناك نباتات كثيرة تشق الأرض بلونها الأخضر معلنة عن فعالية رسالة مار أدّي الرسول في قلوب أهالي المنطقة. ونشاهد موقع المنطقة بين نهرين مياههما جارية زرقاء اللون، ويرمزان إلى دجلة والفرات حيث بهما تعمّد الكثيرون باسم يسوع المسيح.

لقد جاء مار أدّي الرسول مُبشرًا، ونرى على الجهة اليمنى من الأيقونة نتيجة الثمر الوافر لهذا العمل، رامزًا إليه بكثرة الكنائس وتعددها، وإحداها هي الكنيسة الكلدانية، إذ نرى علامتها على أبواب الكنيسة الأمامية. وإذا تمعنّا في الأيقونة، فسنلاحظ أن الخطوط المستخدمة في رسم الكنائس لا تتبع منظور الرسم الهندسي للدلالة على أن الإيحاء الإلهي ليس هو بالمفهوم الإنساني. في أعلى الأيقونة وخلف مار أدّي لُوّنت بماء الذهب للدلالة على أن مصدر هذا العمل

الذي قام به الرسول هو إلهي، كما كتب اسم «مار أدَّي» على أطراف الأيقونة باللغة الكلدانية.

حين رسم الفنان هذه الأيقونة لم يكن يعرف مار أدَّي الرسول، لكنه حين حضر القدّاس، وإن لم يفهم مضمونه، شعر بانتماء الجالية إلى التعاليم التي وضع أُسسها مار أدّي الرسول قبل ما يُقارب من ألفي عام. زيَّنت مذبح خورنة مار أدَّي الرسول الكلدانية في جنوب أوكلند، لوحةٌ فنيةٌ تمثِّل أيقونة مار أدَّي الرسول، شفيعها، وانطبعت في أنظار الرعية منذ ٢٠٠٣. وقد رسمت الفنانة أحلام القس، وهي مولَعة بالرسم منذ نعومة أظفارها، أول لوحة للقديسة مريم العذراء والطفل يسوع، ثم استدعاها الأب جوزيف من بغداد، وطلب منها رسم هذه الأيقونة، التي عُلقت على بوابة الدّير، وهي لوحة تمثّل تبشير الرسول في بلدان المشرق، ومنها وطن الرّافدين، بجباله ووديانه وسهوله ورافديه دجلة والفرات، ومنابع حضاراته المتعاقبة. عند إنجاز اللوحة علقت على واجهة المذبح.

* * *

هكذا دَهَمني مصيري في هذه الرحلة، في الزمن الذي تستغرقه الطّائرة من بيروت إلى روما: ثلاث ساعات.

ثم عادت المضيفة الروسية، كما تبينت هويتها أخيرًا، تسأل عما أريده، فأجبتها:

ـ ليبارك الرّب جمالك.

وقلت مع نفسي: انتبه، أيّها الرّاهب العتيد، ماذا لو اكتشف الرّكاب أنك تغازل تلك المضيفة الفاتنة، ولكن لا أحد أخذني على محمل الحب.

وقفت المضيفة الشقراء عند رأسي، غير مصدّقة أن يخرج هذا الكلام من فم راهب وقور في مثل عمري، وهذا جعلها لا تفارقني، ربما لتبحث عن سري، ثم كررت العبارة نفسها:

ـ ليبارك الرّب جمالك.

وهنا تفتحت أساريرها، وابتسمت تاركة جميع الرّكاب، وانصّب اهتمامها عليّ أكثر فأكثر، وسألتني:

ـ وأي مكان تقصد من روما؟

ـ الفاتيكان.

كادت تقفز من مكانها كغزالة تائهة:

ـ هل أستطيع مرافقتك لأقبّل يدي صاحب القداسة، وأتبرّك به؟

كانت مستعدة لأن تطير معي إلى أي مكان، من أجل ذلك. يا لها من مضيفة، يسحُّ الإيمان المسيحي من عينيها الواسعتين، وينزل في امتزاج كحلها مع عرق خجلها على الخدّين اليانعين، ويتعرج بين خيوط تعابير وجهها. وسرعان ما غابت، ثم عادت حاملة كأسًا من النبيذ الدافئ، فهززت رأسي امتنانًا لالتفاتتها السخيّة. في تلك اللحظة، تمنيت لو تحلّق الطّائرة فوق دير الأيقونات، لكي ألقي عليه آخر نظرة من هذا الارتفاع الشاهق، وأحيّي الرُّهبان والرّاهبات الذين اندمجت حياتهم مع أحجاره، بل كنت أتمنى أن تخترق يداي زجاج نافذة الطّائرة

لكي ألمس الغيوم البيض التي تتسابق مع الرياح، وأخرج وجهي لكي يلوّحه رذاذ الثلج الطّائر.

* * *

دوّت صرخة سيسيل في رأسي، بينما أراها تكاد تختنق بوشاحها الأحمر، الذي لفّته على عنقها من البرد عندما رأت الأب جوزيف، وهو لم يصدّق سماع صوتها، نبرة موسيقية تشبّعت بها أذنه زمنًا، أو درسًا من دروس تعلّم البيانو في أديرة الموصل التي تنّقل فيها متخفيًا عن الأنظار. لم يفهم توتره إلا بعض أصدقائه من الآباء المقربين: الأب الياس، والأب سامر، والأب شربل، بينما أطبق الصمت على الرُّهبان والرَّاهبات الموجودين في المكان، فخفضوا رؤوسهم وذهبوا إلى محاجرهم من دون أن يريدوا معرفة أي شيء عن زعيمهم.

نادته بأعلى صوتها كأنه مُصابٌ بالطرش:

ـ جوزيف، جوزيف....

رنّ الصوت في أذنه كلحنٍ قديم، اعتصر تجاعيد وجهه، وتساءل للحظة: هل يمكن أن يصدأ الصوت؟ أبدًا، لم يطرأ أي تغيير على نغمة تلفظ اسمه على شفتيها.

واستدار إلى منبع الصوت، فرأى امرأة عجوزًا، ضئيلة الجسد، تلف رأسها بوشاح، قاتم اللون، كئيب، كأنها قادمة من عصر مضى، لم يصدق ما يراه أمامه، هل يُعقل ذلك؟

وصرخ بأعلى صوته، ناسيًا موقعه كأسقف دير الأيقونات:

ـ سيسيل، سيسيل.

ارتبك الأب جوزيف عندما رمت نفسها عليه، احتضنته، وظلت تقبله من لحيته، وهو يلتفت يمنة ويسرة، خشية أن يراهما أحدٌ سوانا، لكن الرُّهبان والرَّاهبات اختفوا في تلك اللحظة. وقفنا في الساحة، مذهولين، نستمع إلى ما يدور بينهما من كلام.

ـ لا تقل لي إن يسوع منعك عن السؤال عنا؟

سألها بصوت مرتجف:

ـ كيف حال المطران مار يوسف، واسكندر والبنات؟

انفجرت الدموع من عينيها، وهي تتلعثم: المطران مار يوسف، شاخ وبلغ من العمر عتيًّا، وبناتي تزوجن وأنجبن، واسكندر... وأجهشت بالبكاء: شاب يدرس في جامعة بغداد.

طأطأ الأب جوزيف رأسه، ومسك جسد المذبح، ودار حوله ليسيطر على غضبه وألمه، ضاغطًا على أسنانه، وهو يلفظ اسم ابنه بالضغط على حروف اسمه: اسكندر؟

صمتت قليلًا، وأزاحت الوشاح عن وجهها.

ولشدة صدمته، صرخ:

ـ أهذا أنت يا سيسيل؟

ـ نعم يا جوزيف، مرّ الزمن على وجوهنا وأجسادنا وأرواحنا.

ـ قولي لي: كيف تركت مركا؟

ـ آه. احترقت مروجها الخضر، يا جوزيف، ولم يعد فيها سوى

بقايا ذكرى من ذلك الراعي الذي وقف ضد الطغيان واللصوص.

كان كل واحد منا ينصت ولا يفهم شيئًا عما يدور بين راهب وامرأةٍ لاجئةٍ إلى الدّير، بل نسَج كلٌّ منّا قصّة متخيّلة في ذهنه عنهما، وبالعودة إلى الزمن، أدركت الآن، لماذا كان الأب جوزيف، مثقلًا بالهموم والقلق والحيرة.

يا إسحق، صحّ النوم، لست وحدك صاحب القصص الغريبة، لو غصت في أعماق كل راهب هنا لاكتشفت آلاف القصص، تعجز كل أوراق البردي عن تدوين سيرهم، المليئة بالألغاز والأسرار والأحاجي، يحتاج المرء إلى أن يتحوَّل ساحرًا ليفكّ عجائب هذا الدّير الذي يتنفس برئة الآلهة الآشورية المقدسة، ويريد إعادة أمجاده الغابرة.

سيسيل، تقف بين يدي الأب جوزيف تدلي بأقوالها في قفص الاعتراف، وهي تردد:

ـ لا أدري مَن منا يجب أن يكون في قفص الاعتراف، أنا أم أنت؟

قاطعها أحد الرُّهبان، وهو يرتعش، ويتصّبب عرقًا، انسلّ إلى قفص الاعتراف الثاني، طالبًا من الأب جوزيف أن يستمع إلى اعترافاته على الفور، لكونها عاجلة، قائلًا: إن يسوع لا يحب الانتظار. وهنا ترك الأب جوزيف سيسيل للحظات، ودخل للاستماع إلى قفص اعتراف الرَّاهب، قائلًا له:

ـ العظمة للرّب، قل لي ما في صدرك، يا بني؟

ـ يا أبانا، لقد تركت عائلتي إلى الفقر والجوع والهوان، بلا مأوى ولا مورد، وجئت إلى الدّير متعبّدًا، وعلمت أن أولادي انتقلوا إلى عالم

الجريمة والقتل، وأن زوجتي انحرفت عن الطريق، فهل يَرضى الرّب عن إيماني؟

صمت الأب جوزيف قليلًا كأنه أصيب بالخرس، وشعر بالاستفزاز، فصرخ في سقف الكنيسة الشاهق، واختنق في باطن حلقه الكلام، واستعصت كلماته على أن تخرج، بينما ظل الرَّاهب الواقف في قفص الاعتراف لا يعرف بماذا يجيبه، فقال له: اعترف إلى ربك مباشرة؟ ليغفر لك الرّب، يا بني، فقد اقترفت ذنبًا لا يُغتفر، كيف يترك الإنسان عائلته من أجل الرّب؟ ألا يوصي الرّب بالعائلة؟ أنصح لك بأن تقلع جبّة الرَّاهب من جسدك، على الفور، وتذهب للبحث عن عائلتك، حتى لو كلفك ذلك الدهر كله.

شعر الأب جوزيف أن هذا الرَّاهب الذي جاء على شكل طائر، ورسول، يتحدث باسمه، ويتلو ذنوبه، حتى أطلق صرخة: يسوع ارحمنا. واحتقن وجهه، وتشنّج، ولا يعرف ماذا يقول لسيسيل التي تنتظره في القفص الآخر، استبدت به رغبة في أن يتحوّل هو وراء قفص الاعتراف، ولا يخرج منه إلا بعد إفراغ كل ما في صدره، قبل أن يقفز قلبه من بين أضلاعه، سال عرقه من جبهته غزيرًا، وارتعش جسده، ثم أسرع إلى النظر في المرآة، من دون أن يقوى على رؤية ملامح وجهه، واستمر في الوقوف طويلًا؛ فتهاوى على وجهه، مغشيًّا عليه، يئن كحيوان أصابته طلقة صيّاد، حتى ملأ أنينه الكنيسة والدّير.

احتضنته سيسيل، كان خائر القوى، مهزوز العزيمة، دامع العينين، نصف مشلول، مرتخي الوجه، يتكئ برأسه على دكة المذبح، رشّت رذاذ الماء على وجهه، فاستفاق، وهو يردد: لا أريد قفص الاعتراف

بعد اليوم، اعترفوا لربكم وحدكم، لا أريد أن أكون وسيطًا لذنوبكم عند اللّه. ثم رفع رأسه إلى الأعلى، طالبًا المغفرة منها.

لم يكن يفهم أحد ما كان يدور في تلك اللحظة على مذبح الاعتراف بين الأب جوزيف وسيسيل، ثم طلب مني الانفراد به في غرفته الصغيرة التي كنا نجتمع فيها في الأيام الخوالي، وهنا ذهب ذهنه إلى أول يوم حَط الرحال في هذا الدّير قبل ثلاثين سنة، يمسح الأرض وينظف الحمامات ويصّب الماء في الدلو الكبير ويرتب كراسي الكنيسة، قبل أن يعتلي أعلى مراتب الرَّهبنة في هذا الهرم الروحي اللامتناهي.

ضرب بقوة مفاتيح البيانو، وفي غمرة تساؤلاته وحيرته، نزع جبّته الثقيلة، متحررًا منها، كأنه يتعرّى أمام المرآة، غادرته على الفور، عائدًا إلى غرفتي، أفكر في محنته، إذ لم أكن أتوقع منه أن يعود إلى مذبح الكنيسة، ويعظ الرُّهبان والرَّاهبات الثلاثمئة من جديد.

وتساءلت: هل هي عاره الأبدي؟

جاءت سيسيل إلى الدّير لتعلن نهاية الأب جوزيف، الذي هرب من الطغيان ليواجه طغيانًا آخر حتى لو كان بين جدران الدّير، فوقف على خشبة المسرح عاريًا تحت حزمة من الضوء الشديد الذي سلطّته عليه سيسيل القادمة من بلاد الرّافدين، لتكشف عما اعترى روحه من عطّب. وبمرور الأيام، لم يعد يخرج من غرفته، تمّدد على سريره، مُنهك القوى، مصفّر الوجه، مرتخي الأعصاب، مخدّر الساقين، يبحث عن شيء ما في السديم الذي يغطي كل شيء. ولم تكن سيسيل تتصور أن يكون الأب جوزيف يعيش في غرفة صغيرة بائسة، يكسوها الغبار،

لا شيء فيها سوى رفوف كتب قديمة وآلة بيانو مغبّرة. لكن من شدّة إيمانها، أدركت إن الرّب هو الذي ساقه إلى هذا المصير مثل الآباء الآشوريين الآخرين ومئات الرُّهبان والرَّاهبات في هذا الدّير.

تفحصّت سيسيل ملامح وجهه، فأدرك عما تبحث عنه، فقال لها:

ـ هل أنت خائفة من الشيخوخة؟

هزّت رأسها:

ـ لم يعد في قلبي مكانٌ للخوف بعد كل ما حصل لي.

أجابها:

ـ الشيخوخة اندحاري الوحيد.

ثم سألها:

ـ أين أصبحت مركا؟

ـ لم يبق في مركا سوى حفنة من الآشوريين.

جاء جوابها مثل طعنة غُرست في قلبه.

ـ واسكندر؟

مدّت يدها إلى جيبها وأخرجت صورته:

ـ أنظر جيدًا، إنه نسخة منك: العينان والأنف والفم والشعر.

انفجرت الدموع في عينيه:

ـ أهالي مركا هُجّروا ولم يعد لنا مأوى، اضطررنا إلى بيع بيتنا وشراء بيت في بغداد ليكمل اسكندر دراسته.

ثم عاتبته:

ـ ألم يكن باستطاعتك أن تستدعينا ضيوفًا إلى ديرك على الأقل؟

لاذ الأب جوزيف في صمته، مكتئبًا وحزينًا بعدما خارت قواه ولم يعد قادرًا على الخروج من غرفته، لذلك كانت سيسيل تقطع عنبر النساء إلى عنبر الرجال لكي تصل إلى غرفته، لتناوله العشاء، فاعتقد الرُّهبان والرَّاهبات أن الرّب بعثها من السماء لتخدم زعيمهم في آخر أيامه، من دون أن يعرفوا شيئًا عن علاقتهما.

اختبأ الأب جوزيف في غرفته، وعاد إلى العزف على البيانو، بعدما امتص الرُّهبان والرَّاهبات كل وقته وطاقته، وبدأ الأب سامر يقوم ببعض مهامه، فيما استقرت سيسيل إلى جواره، ولم تعد إلى غرفتها في عنبر الرَّاهبات، من دون أن تعبأ بالكلام والثرثرة والشائعات.

* * *

بدأ هدير محركات الطّائرة بالاختفاء التدريجي بعد تحليق الطّائرة إلى أعالي السماء، بين الغيوم المزركشة بالأزرق والأبيض، فيما يردد شريط آلة التسجيل الدعاء المألوف: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل.

انطلق الصوت ناعمًا، أغلق فيه الرّكاب أهداب عيونهم ليتأملوا الأكوان التي نقطعها بهذه العجلة الإلهية، التي تدور في الفضاء غير

مبالية بالرياح أو الأمطار، ويمتزج هديرها بصوت المضيفة ناتاشا: اربطوا الأحزمة.

في الواقع، نسيت طقوس ركوب الطّائرة منذ زمن طويل. وأثناء ربط الحزام، تحسست بطني البارز قليلًا، رغم رياضة المشي التي فرضها علينا الأب جوزيف في صعود الجبال المجاورة والنزول منها، مع الأب جوزيف والأب الياس، رغم سنه المتقدم، والأب سامر والأب شربل. لا أدري من قال لي إن النساء يكرهن بطون الرجال البارزة.

مرّت سنوات حياتي الأربع عشرة الأخيرة التي أمضيتها بين ميناء بيروت وسجن القلعة ودير الأيقونات، كشريط خاطف، لم أتذوّق فيها نكهة الفصول، واصفرار الأوراق وتفتح الزهور وسقوط الأمطار وشروق الشمس، تعاقبت معها فصول حياتي، وامتزجت بحياة الرُّهبان والرَّاهبات، الباحثين عن المجهول. ارتسم مسار الطّائرة وشاشة بياناتها في السرعة والارتفاع والوقت والأماكن وأسماء البلدان التي نمّر عليها حتى وصولها إلى هدفها النهائي روما، فرددت مع نفسي: روما... فيلا أبيرتا، روما... مدينة مفتوحة، فيلم فيلليني الذي لا أنساه عن روما، ورغبت أن أشاهده ثانية في قاعة سينما حقيقية، وباللغة الإيطالية التي لا أفهم منها سوى بضع كلمات تتطابق مع اللغة الفرنسية في اللفظ، فهل ستفتح لي ذراعيها وتحتضن أحلامي كما احتضنتني باريس ذات مرة؟ استبشرت خيرًا بهذه المدينة التي تفتح ذراعيها للفنون غير أني لا أمتلك شيئًا من متاع الدنيا سوى لوحات زيتية ومائية وتخطيطات غير مكتملة، بعضها مؤطر وبعضها الآخر ملفوف في أسطوانات كرتونية طويلة، تركتها كما هي في شقة دليلة التي كنا نعيش فيها معًا في ضاحية

بورت مايو الباريسية. ولعلي أعيد رسمها ثانية، غادرت إلى بغداد، وتركت ورائي بقايا ذكريات، وحبًّا ضائعًا، وصعبًا، وغريبًا، وهاربًا من بين أصابعي مع امرأة أحبها وأخاف منها. مزيجٌ من مشاعر ملتبسة، زادتني تعاسة. لا أدري أي جنون قاد خطواتي المفاجئة هذه؟! قوة ساحرة اقتلعتني من باريس، وأخرى دفعتني إلى العودة إليها، أنا الذي لم أكن أؤمن بالغيبيات، شعرت برياح عاتية تدفعني نحو الصّحراء لأنطلق في الرحيل إليها من جديد. حذرتني صديقتي دليلة، وهي تغذّي في رأسي فكرة الزواج من دون أن تفلح، وتأمل أن أغيّر رأيي، وهي تقنعني بالعدول عن فكرتي، رافقتني إلى مطار شارل ديغول، تنظر بحزن إلى حقائبي التي مرّت على الأشرطة الدوّارة إلى جوف الطّائرة. انتظرتْ أن التفت إليها، لكنني لم أعد أتحمّل التقاء نظراتنا لآخر مرة، خشية أن تخور قواي في اللحظة الأخيرة.

فكرت في كلماتها في ممرات المطار: أي جنون أن تعود إلى جحيم بغداد؟

كان الصدى يُضاعف من وقع كلماتها على أذنيّ، تتراءى باريس جزيرة نائية، سرابًا، وهمًا، جمالًا في مهبّ الريح. فكّرت في تلك الليلة المظلمة التي غادرت فيها بغداد، اعتبرني الكثيرون أحمق، مجنونًا، مغامرًا، ومن بينهم الحداد الذي طلبت منه أن يصنع لي مخالب حديدية، قفازات أرتديها في أصابعي، أغرسها في وجوه الذئاب التي تحاول افتراسي.

قلت له: أريد منك أن تصنّع لي مخالب حديدية.

التفت إليّ مذهولًا، وضحك من أعماقه من دون أن يفهم، حتى

الآباء الآشوريون انفجروا بضحكات وقهقهات هستيرية، مختلطة بالألم والحزن عندما رويت لهم ذلك. رسمت الطريق في رأسي جيدًا في العبور إلى دمشق ثم إلى بيروت، البؤرة التي يتجمّع فيها المهاجرون من أجل الرحيل إلى أوروبا في قوارب الموت، اللامرئية في عرض البحر.

نظر إليّ الحداد البغدادي بغرابة ودهشة، وعاملني كأحمق في بادئ الأمر، قائلًا:

ـ يا للعجب! مخالب حديدية على شكل قفازات، يا رجل ماذا تقول؟ هل جُننت؟ عملت حدادًا طوال حياتي فلم أعرف طلبًا كهذا؟ هل أنت متأكد من المخالب الحديدية؟ وبماذا تفيدك هذه المخالب، قل لي بربك؟

أخذته من يده إلى زاوية من محله، وقلت له:

ـ هل تحفظ سرّ الآخرين؟

ـ كيف يا ولدي، أنا بئر من الأسرار.

ـ أريد الهرب عبر الصّحراء، وهي مليئة بالذئاب والحيوانات المفترسة؟

ضحك مني ساخرًا:

ـ كل الأماكن مليئة بالذئاب.

وعندما دفعت له، توقف عن الحديث، دسست في جيبه عشرة آلاف دينار، وقال على الفور:

ـ تريد الدفاع عن نفسك إذًا، هذا من حقك المشروع.

ثم أضاف في عجالة، مبهوتًا، متشككًا:

ـ أرني أصابعك.

أمسك أصابعي، ثم أخذ قياسها، وسجل أرقامًا غامضة على ورقة. لم تمض ساعات حتى كانت مخالبي جاهزة، هكذا حصلت على سلاحي الجديد، وأضفته إلى أسلحتي السّرية اللامرئية الأخرى. عندما حصلت على المخالب، لبستها مثل القفازات، وبدأت أتمرّن على ارتدائها وأبرزها في المرآة صارخًا:

ـ لا شيء يدافع عنك، يا إسحق، سوى مخالبك الحديدية في الصّحراء، لا يفيدك مسدس أو بندقية إذا هبّ حيوان متوحش وأراد افتراسك أو اقتطاع جزء من وجهك، لا تفيد رصاصة عمياء تذهب أدراج الرياح، بل أريد أن أكون مسلحًا بمخالب الذئاب في معركة متكافئة، لا أن أصبح فريسة سائغة لها. هكذا منحتني المخالب الحديدية قوة سحرية وطمأنينة هادئة، وجعلتني أتحدى الذئاب، أنثر في الليالي المظلمة أشلاءها، وتمتمت مع نفسي: أليست استعارة أسلحة الحيوان ضربًا من الجنون؟ يكفي أن يتحول البشر ذئابًا بمجرد أن يطيلوا النظر في وجه القمر، قريننا الأليف، يرافقنا في هذه الرحلة، من دون أن تجرؤ على أن نطيل النظر في وجهه، فيما تتردد في آذاننا أصداء صرخات بشر في طريق تحوّلهم ذئابًا، على الطريق نفسه الذي سلكناه.

كان عليّ أن أقطع قرونًا من الزمن البشري لكي أتكيّف مع تلك المخالب الحديدية، وربما أعود بنفسي إلى غرائزي الأولى التي أتوّحد بها مع الحيوان، في ظل حضارة تتداعى وتنهار... وفي ذلك، قلّدني ابن

أختي الشاب الذي أصر على السفر معي، هربًا من الخدمة العسكرية، من دون أن يأخذ مخالبي على مِحمَل الجدّ، ساخرًا مني طوال الوقت، وهو يردد على مسامعي: هل أصبحت ذئبًا يا خالي العزيز؟ يا من كنت تلبس القفازات الحريرية؟

بدأنا نقطع الصّحراء ليلًا وننام في النهار خشية أن نصطدم برجال الأمن ومفارز التفتيش وفرق الإعدام الذين ينتشرون بين رمال الصّحراء. هكذا، قررت الهرب من دون جواز سفر أو أية أوراق ثبوتية مع ابن أختي، وأردد في نفسي: إنني أتحداك، أيتها الذئاب التي تملأ الوديان والسهول، احذري مني، لا تقتربي، أنا متوحش مثلك إذا اقتضى الحال، فإذا أردتِ صداقتي، فأنا هنا وإذا أردتِ عداوتي، فإنني هنا أيضًا.

يا إلهي! هل كُتب عليّ أن أبدأ عهد البشرية الأول في النزاع مع قوى الشّر؟

وعندما حلّ الليل، أخرجت مخالبي الحديدية، وأَنْعَمْتُ النظر فيها، ووضعتها بجوار رأسي، مرسلًا نظراتي إلى الصّحراء الممتدة أمامي كالمرايا، المتفجرة بشلالات ضوئية مثل مصابيح ساطعة متدلّية من السماء، تنير ملمس الكثبان الرملية الساكنة. أي خطر غريزي، وابن أختي يردد كطفل: لا فرق بين الموت هنا أو هناك، لأننا نموت كل يوم في الصّحراء أو في جبهات القتال أو في الشوارع الهادئة؟

كرّرت على مسامعه:

ـ قد يعدمونك لو ألقوا القبض عليك.

لم يعر بالًا للقوانين العسكرية، ولم تكن في رأسه سوى فكرة

الهرب من الخدمة العسكرية، إلى أي مكان، مهما كان نائيًا أو خطيرًا، حتى إلى الجحيم، يحدونا أمل كبير بالخلاص، ملتحفين بظلام الليل، ومستنيرين بهالة القمر، ونحن نسير على الأقدام ببطء شديد، خشية من حرس الحدود الذين يبحثون عن الهاربين والمتسللين والغوغاء والجواسيس حيث اختلطت كتل الظلام بألواح ضياء متناثرة، ومن بينها ظهر ذلك الشبح الأبيض، قامة طويلة، نحيل البنية، يرتدي ثوبًا أبيض وعباءة رمادية صوفية فضفاضة، متوجهًا إلينا، وهو يبث الذعر في نفوسنا كما لو أنه جاء من قرون غابرة. وقلت في نفسي: هذه هي الصّحراء كما عهدناها منذ طفولتنا، لا تتوقف عن إنجاب الأنبياء والفرسان والأولياء وكذلك الخونة واللصوص والجواسيس والمهربين والقتلة.

وكمن قرأ أفكارنا، انتابنا ذعر أبيض مخيف، فسارعتُ إلى القول:

ـ من أنت يا شيخنا؟

ومن دون أن يردّ على سؤالي، قال:

ـ هل أنتما هاربان من الحرب؟

خامرني شعور بالارتياب في أن يكون هذا الرجل دليلًا لرجال الأمن ومفارز التفتيش وفرق الإعدام المتنكر أعضاؤها بثياب الصّحراء. ساد بيننا جو من التوتر للحظات، لكنه سرعان ما اختفى عندما ابتعد قاصدًا خيمته، وعاد حاملًا طبقًا من الخبز واللبن والماء، وقلت في نفسي: كيف عرف هذا الشيخ أننا نتضوّر جوعًا وعطشًا، بعدما قطعنا مسافة طويلة في الصّحراء؟

ثم قال، مشيرًا بسبابته إلى الهالة الضوئية الساطعة:

ـ احذرا بحيرة الملح في طريقكما؛ لأن عبورها ليس سهلًا، أنصح لكما بالسير على المعابر الرخوة، لا اليابسة الخداعة التي تُضمر تحتها آبارًا ملحية مُهلكة؛ وتبتلع الأجساد البشرية كالحشرات الضعيفة!

ـ هل هي مستنقعات متحركة؟

ـ كلا مستنقعات ملح، تشع بياضًا، وتغري الضحايا.

وقبل أن نودّعه ونواصل سيرنا، قال:

ـ احذرا الوديان والمنخفضات وشقوق الأرض، إذا شعرتما بالخطر، توقفا عن السير وتأملا النجوم حتى طلوع الفجر.

بعد ذلك، توارى في الظلام، باعثًا ذعر الاحتراس في نفوسنا، ومزحزحًا ما كان راسخًا من أفكارنا السطحية عن رمال الصّحراء.

قلت لابن أختي:

ـ هل هذا الرجل من الأولياء الصالحين؟

فأجابني بدهشة:

ـ هل ما زلت تؤمن بالأولياء الصالحين؟

تناولنا أرغفة الخبز واللبن، وأضاف:

ـ أما زلت تؤمن بالخرافات؟

قهقهنا معًا.

كانت الرياح تقتلع ذرات الملح مثل غبار وتقذفها بين محاجر عيوننا وشفاهنا، وتصيبها بالجفاف والتيبّس، كأنها منافذ الضوء،

وحجب رؤية المنخفضات والوديان، متسلحين بغرائزنا وأوهامنا في مصارعة قوى الطبيعة. وفي هذا الغياب، هزتني صرخة ابن أختي وهو يقبض على يدي: توقفنا مذهولين على حافة الهاوية، ثم افترشنا الأرض وبدأنا نتأمل نجوم السماء كما نصح لنا الشيخ ذو الهالة البيضاء، ولم نستيقظ إلا عند طلوع الفجر، فوجدنا أنفسنا على حافة واد سحيق، أصابنا الهلع عندما رأينا تلك الهوة الهائلة، إذ لو تقدمنا خطوة واحدة، لأصبحنا جثتين هامدتين، تُضافان إلى الهياكل العظمية المتفسخة، ربما لجنود سقطوا في الهاوية المريعة.

لاح لنا قطيع أغنام يقوده راع، يرافقه كلب، وكلاهما يشمّ الأرض، بحثًا عن آثار بشرية. رعاة لا يتوانون لحظة واحدة عن تسليمنا للحراس لاغتنام المكافأة الحكومية. اختبأنا بين أكوام الأشواك البرّية، وانتظرنا مجيء الليل، لنعبر بحيرة الملح إلى الحدود، وتذكرت قول الحداد البغدادي.

حراس الحدود اكتشفوا وجودنا إثر انعكاسات كشافات الضوء الزرق النائية، ونحن نتأرجح على نصائح الشيخ الأبيض، أطلق ابن أختي صرخة مدويّة، ومستنجدة، ملوّحًا بيده، كأنه غريق في بحر، نزل في المستنقع الملحي، سارعت لإشعال مصباحيّ اليدوي باحثًا عنه. ترّنح جسده الضئيل بين بقع الضوء والظلام، كأنه بريق رعد يتقطع شعاعه في السماء، اختنق صوته، التهم الملح قامته، رميت مخالبي جانبًا لأطلق يديّ، ومدَدتُ له الحبل، وبدأت أسحبه إلى الأعلى، لانتشاله من تلك الأعماق البلورية البيض، إلا أن ألواح الملح سرعان ما غيرّت معالم وجهه إلى تمثال شمعي، شبح أبيض، متصلّب. وبيديّ

المجنونتين، حاولت إزالة طبقات الملح المتكلسة بين محاجر عينيه وثقوب أذنيه وفتحة فمه من دون جدوى. أطلقت صرخات مدوّية، مستنجدًا بقوى الظلام والرياح والنور، مقلبًا جثته يمنة ويسرة، أرجّه، وأهزّه، وأقلبه على رأسه، علّ الأملاح تخرج من ثقوب جسده بعدما أغلقتها حبيبات الملح. ضغطت على قلبه بحركات جنونية، لبعث الدماء في شرايينه من جديد، لكنه تحوّل جثّة هامدة بين يديّ، فتهت في البراري الموحشة، لا أسمع سوى الصدى المرعب، لا صوت سوى عواء الذئاب المتقطع. خارت قواي أمام التمثال الملحي، وانقطعت أنفاس من كان يملأ وحدتي بالأحاديث والأناشيد والغناء. ذهبت روحه في دقائق سريعة، وفارق الحياة. استولى عليّ شعور بالذنب لا يعادله شعور آخر، ماذا سأقول لأختي التي تركته يرافقني؟ حملته على ظهري، لأقطع ما تبقى من مسافة الصّحراء لعبور الحدود، غير مصدّق أنه لفظ أنفاسه الأخيرة على يدي بلمح البصر.

من بعيد، تناهت أصوات حراس الحدود، وهم يسلّطون الكشافات الضوئية علينا كأننا في ديكورات مسرحية قريبة من التراجيديات اليونانية، كانوا ثلاثة حراس يرتدون بزات رمادية، يمتطون ظهور الخيول، صرخ أحدهم:

ـ لا تتحرك، أيّها المعتوه وإلّا خرقت صدرك بالرصاص.

وبعد لحظات، صرخ آخر:

ـ مهربون أم جواسيس أم جنود هاربون؟

أجبته بارتباك:

ـ إننا تهنا في الصّحراء.

وصاح ثالث، بعدما ترجل عن حصانه:

ـ من الذي تحمله على كتفك؟

ـ ابن أختي... مات في بحيرة الملح.

صرخ أحدهم:

ـ تستحقون الموت.

وقام أحدهم بتوثيق يديّ، قائلًا:

ـ هاربان من الحرب يا أبناء الكلب؟

وبصق آخر في الهواء قائلًا:

ـ أين جوازات السفر؟

ثم أضاف بنشوة:

ـ أين أخفيتما الدولارات؟

ثم أمروني بالسير وراءهم، فقلت لهم:

ـ ألا ينبغي أن ندفن الميت قبل الذهاب معكم؟

قال أحدهم، بسخرية:

ـ وتريدنا أن نقيم عليه الصلاة؟

وانفجروا في الضحك، تاركين جثة ابن أختي مرميّة في العراء.

وفي غضون نصف ساعة، وصلنا إلى مبنى قديم، متهالك، ترتفع عليه لوحة وعلم، فيما خارت قواي من التعب وانتفخت قدماي من أثر الملح.

قام ضابط بتدوين المعلومات، وسألني:

ـ هل أنت عسكري؟

ـ كلا... رسام.

ضحك الضابط، قائلًا:

ـ وماذا يفعل رسام بهذه المخالب الحديدية؟

وانطلق في ضحكة مدوّية.

ـ إنها للدفاع عن النفس لا أكثر ولا أقل.

أمسك بها الضابط وكأنها وثيقة إدانة لي، ثم قذفوني في جوف سيارة «الرانج روفر» القديمة وبدأوا يتحدثون عن قطع مسافة ثلاثمئة كيلومتر من النقطة الحدودية الصحراوية، ثم أخرجوا طعامهم وراحوا يأكلون، وقال لي أحدهم:

ـ طعامك جاهز في السجن.

لاحت لي من نافذة السيارة أشباح مبان متفرقة، مقذوفة في الفراغ الصحراوي: فندق إسمنتي شاهق، ومشروع زراعي، وخرائب حجرية قديمة. لم تغب عن ذهني صورة ابن أختي قط، تخيّلت كيف ستفترسه النسور الجائعة عند انبلاج الصباح، وأغمضت عينيّ لكي لا أتقزز.

ثم قال لي الضابط في السيارة:

ـ فيمَ تفكر؟ إنْسَ الأموات يا غبي، وفكر في نفسك.

بعد مرور ثلاث ساعات، اخترقت السيارة بوابة قلعة ضخمة، وهي حصن يعود بناؤه إلى القرون الوسطى، بأحجاره الضخمة، ودُوّن على

بوابته: سجن القلعة في دمشق. حرس مدجج بالسلاح، وأفراد من سلاح الدرك يدخلون ويخرجون وسيارات سود مغلقة تروح وتغدو وعلامات استفهام كبرى، مقرونة بالرَّهبة والخوف يرسمها المارة أمام المكان.

أنزلوني، مقيّد اليدين عبر سلالم حجرية إلى سرداب عميق، غرفة رطبة، مكتظة بالسجناء، تنير وجوههم مصابيح حمر صغيرة خافتة تكشف بالكاد عن أبعاد الزنزانة التي لا تتجاوز بضعة أمتار. أفواه وأنوف تبتلع الهواء، وجوه يعلوها لون أصفر ممتقع، مثل جذام، بثور حمر قرمزية متقيحة.

افترسوني بنظرات ثاقبة، وانفجروا بقهقهات باردة وساخرة.

أشار أحدهم بسبابته إلى سجين بدين يؤدي صلاته:

ـ أتدري لم جاءوا بهذا الدّب إلى السجن؟

أجاب آخر:

ـ لأنه كان يضاجع الأغنام.

نهض البدين من صلاته وتشابكا بالأيدي:

ـ وأنت، يا تاجر المخدرات؟

كانا عاجزين عن تبادل اللكمات والضربات من شدة الازدحام، صرخ بهما أحد الحراس:

ـ كفًّا عن العراك وإلا وضعتكما في الفرّوج.

التفت أحدهم، واستفهم عن معنى الفرّوج، حتى شرح له آخر أنه طريقة تعذيب تعني إطار عجلة سيارة فارغة، يضعون فيها السجين

ويكورونه، عاريًا، وهكذا مرات عديدة في اليوم، مثل الفرّوج، المنزوع الجلد، ثم يدحرجونه في ساحة السجن حتى ترتطم بالجدار.

وأضاف:

ـ وينتظر السجناء أيضًا عذاب الكهرباء، والصليب، وطاولة الفقرات، والقناني، والعبد الأسود.

ثمة ضابط يأخذ كل يوم أحد السجناء إلى ساحة العرض، ويضع بسطاله الموحل على رأسه، وينظر إلى القمر، مكشرًا عن أسنانه. فهل هو القمر نفسه الذي نراه جميعًا ويتغزل به الشعراء؟

في تلك الليلة المقمرة، أخرجنا الضابط إلى باحة السجن، وطلب منا أن نتعرّى من جميع ملابسنا وأسمالنا، وبعدما اكتمل البدر، توحّشت ملامحه وبرزت أنيابه، واستذأب، وراح يطلق صيحات ذئبيّة، وهو يهجم على السجناء الواحد تلو الآخر، ناهشًا أجسادنا، فيما ينهال حراسه علينا ضربًا بالسياط والعصيّ. لم نكن نصدّق ما نراه؛ وهو يقهقه ويطلق الصرخات، ثم يمسح أسنانه من قطرات دمائنا، وكنا نتساءل: متى تنتهي حالة استذآبه؟ قلت في نفسي: الحداد البغدادي على حق، فالذئاب موجودة في كل مكان وليس في العراء فقط، وقادرة على الاختفاء بين أهداب عيون البشر، ثم قلت في نفسي: كان البشر يتحوّلون ذئابًا منذ بزوغ القمر في الكون.

لم أعد أفرّق بين الليل والنهار في هذا القاع المظلم الرطب. فئران جائعة تبحث عن فتات الخبز في فراغ السقف، نطعمها حتى تتركنا ننام بهدوء. ويتسلى حراس السجن بترداد أسمائنا الواحد تلو الآخر

لدعوتنا إلى غرف التعذيب، مطلقين أصواتًا لبّث الرعب في نفوسنا.

والقضاة يرددون في جميع جلساتهم:

ـ لماذا دخلت حدودنا بطريقة غير شرعية؟

أحدهم سألني:

ـ أين كنت قبل أن تأتي إلى هنا؟

فأجبته:

ـ في فرنسا.

التفت إلى كاتب الطابعة، وقال له:

ـ سجل، جاسوس فرنسي.

وهكذا، كلما جاء قاضٍ آخر وقرأ ملفي، ناداني بالجاسوس الفرنسي.

ولعل ما يرعب هو درج الموت، ننزل درجًا، نرى في زاوية منه منظرًا رهيبًا، هو منظر المشنقة القديمة التي كانت تستعمل في تنفيذ أحكام الإعدام، ولكن الجهة ذات العلاقة أهملتها وصنعت واحدة أخرى جديدة. ونصعد درجًا آخر مظلمًا، هادئًا هدوءًا يقشعر له البدن، وتزداد القشعريرة حين تعلم أن أجدر لقب يمكن أن يطلق على هذا الدرج هو درج الموت، إذ إن ارتفاعه يبلغ حوالى خمسين درجة ذات زوايا محددة. كان المستعمرون الفرنسيون يستخدمون هذا الدرج لقتل المسجونين غير المرغوب فيهم، إذ يستدعي الحارس السجين المطلوب قتله إلى أعلى الدرج وهناك يتجاذب معه أطراف الحديث بشكل يثير

الانفعال، فجأة ومن دون سابق إنذار يدفع الحارس السجين بقدمه ليهوي من ذلك الارتفاع على الأرض مهشم الرأس، محطم الجسم، وتكون النتيجة الأولى هي الموت حتمًا. أما النتيجة الثانية، فتتمثل في تقرير مؤلف من بضعة أسطر يقال فيه إن السجين سقط قضاء وقدرًا من أعلى الدرج إلى أسفل، ويسدل الستار على الموضوع.

لم أكن أتصور أن أمضي أيام السجن مع اللوطيين واللصوص وبائعي المخدرات وتجار الأسلحة. نمت طويلًا وسهرت طويلًا، وتأملت النوم والسهر، أعد النجوم في لحظات قصيرة نخرج فيها من الزنازين. هل كان رفاق السجن يعّدون النجوم مثلي؟ لم أكن أتخيّل الخروج من هذا القاع إلا بحدوث معجزة في عالم آخر. وبعد مرور سبعة أعوام، لاحت لي المعجزة مع بريق النجوم، كأنها تلوّح لي بأن الإيمان بالمعجزة ليس خرافة في تلك اللحظة، بل نعمة ربّانية نزلت عليّ، وخطفتني من قبضة هؤلاء الوحوش، إلى أن وجدت نفسي طليقًا، قادني شرطيان إلى الحدود، قال لي أحدهما:

ـ أفرجوا عنك لأن لا مكان لك فيه.

وقال آخر:

ـ بيروت أمامك.

بينما أضاف الأول:

ـ ساعتك جميلة.

نزعتها من معصمي وأهديتها إليه.

لم يكن في جيبي أي قرش، لأنهم عندما قبضوا عليّ قالوا لي:

ممنوع إدخال العملة الصعبة، فصادروا أموالي بل حوّلوها إلى العملة الوطنية بحسب السعر الرسمي، وعندما أفرجوا عني قالوا لي: ممنوع إخراج العملة الوطنية، فاستولوا على أموالي، ومن حسن الحظ، كنت قد احتفظت ببعض مئات الدولارات في ملابسي الداخلية، علها تفيدني في طريق الذهاب إلى بيروت.

تذكرت ابن أختي، ولم أسيطر على دموعي المنهمرة، وكم كنت أتمنى أن يرافقني الآن، تاركاً السجناء اليائسين يعدّون الأيام بانتظار إخلاء سبيلهم، وآخرين يفكرون في الانتحار، وآخرين ينتظرون مثلي حدوث معجزة ما.

ثم أضاف أحد الحراس، وهو يودعني:

ـ هناك عناصر الهجّانة الذين يسهلون عمليات تهريب الأشخاص في بلدة نحلة، المحاذية للأراضي اللبنانية، وهناك معابر طليا ـ النبي شيت، ومحلة الشمرة الواقعة في خراج بلدة جنتا، ومعربون، وادي الصاعقة، جرف في الجبل يقصّر الطريق، ثم قرية سلطان يعقوب. وهنا يروج التهريب على البغال.

قال لي الشرطي الآخر:

ـ سعر البغل هناك أغلى من سيارة «رولس رويس»؟

ثم أضاف الآخر:

ـ ينتظرونه في الضفة الأخرى بوجبة دسمة من التبن والعلف عند الوصول.

كنت أحلم بالسفر إلى ميناء بيروت لأنطلق من هناك إلى أوروبا

على ظهر باخرة، ربما أعمل على متنها، ويكون عملي مقابل أجور السفر. وما إن وصلت، حتى رميت حقيبتي الصغيرة وملابسي جانبًا، وقذفت نفسي في البحر عاريًا، رغم البرد القارس، إلى أن أوقفتني طوافات مطاطية كتب عليها «خطر»، وسط انتشار بقايا حطام المراكب والسفن الراكدة، المربوطة بحبال غليظة بأعمدة الرصيف، وصرخت:

ـ أين المراكب والبواخر والسفن، والبحارة وصخب المسافرين، والدخان المتصاعد من الأبراج، وصفارات الإنذار، ونساء البحارة اللواتي يودعن أزواجهن؟

أردت الهرب عبر أمواج البحر إلى مدن لا مرئية، بيوتها مبنية من جذوع الأشجار وضياؤها الشمس والقمر، خالية من رجال الشرطة والسجون والقلاع والمحاكم، بلا جوازات سفر أو عملات نقدية، لكنني سرعان ما أفقت من هذه الهلوسة. الطرقات خالية، محطّمة، ومكسوة بالسخام الأسود، حتى ليتخيّل المرء أن قنبلة انفجرت هنا، وضربت كل شيء، وصبغته باللون الأسود. كل شيء عاطل في الميناء: الأرصفة، والبواخر والمراكب، والمرصد كأنه مهجور، ولا أحد يتسكع على أرصفته. ومن بعيد، لاحت لي لوحة معدنية، متقطعة الإضاءة، كُتب عليها «عروس البحر»، وتبيّن لي أنها الحانة الوحيدة المضاءة في الميناء، مثل فنار أو مرصد مهجور، تتقاذفه الرياح يمنة ويسرة، يلهث، وغير قادرة على إرشاد السفن الضائعة إلى الشاطئ، حيث لا سفن ولا مراكب، والظلام يهيمن على المنطقة بكاملها، فيما عدا هذه القطعة المضيئة، وهي عبارة عن إحدى السفن التي تحوّلت حانة صاخبة، يتوزع فيها زبائن يحتسون النبيذ، وهناك آخرون يقظون يطمرون رؤوسهم في دخان السجائر، وآخرون يغازلون النادلة الشابة التي تقف وراء البار.

تحوّلت بقايا حطام المراكب والسفن والبواخر إلى بيوت المتسكعين، حيث اختفى ضجيج البحارة، وصراخ السكارى، والباحثين عن ثمالات متبقية في قيعان كؤوسهم بعدما فقدوا حاسة التذوّق، وهلوسات آخر الليل تخاطب البحر، الذي يفيض بالحكايات والقصص.

الندل الثلاثة، ومن بينهم امرأة، يتولون خدمة الزبائن، يقذفون بالكؤوس على البار الخشبي الصقيل، كأنهم يحركون دمية. يبدو أن مالك هذه الحانة أزال الغرف الصغيرة والممرات والمقاعد من السفينة، وجعلها سطحًا مستويًا، مثل جوف الحوت، كراسٍ متناثرة هنا وهناك، مصنوعة من خشب الجندل الإفريقي، فيما تنتشر على الجدران لوحات، تعلوها بقع سود كالحة، خطّها رسامون مستشرقون أوائل جاءوا إلى هنا وباعوها عندما أفلسوا، فاشتراها صاحب الحانة لقاء كؤوس النبيذ. وعلى الجانب الآخر من الجدران، ظهرت لافتة كبيرة، تحتوي على قائمة بأفضل أسماك البحر المتوسط، مع صور هياكلها الكاملة، انتزع منها اللحم، ولافتة أخرى عليها: أنواع المقبلات «التاباس» الإسباني، التي تزخر بها الحانة، المكان الوحيد الذي يبعث الدفء من البرد القارس في الخارج. انزويت في أحد الأركان، لا أجرؤ على طلب كأس، أرقب حركة الزبائن والندل ونظراتهم الغريبة. تقدم مني أحد الأشخاص، وقدم لي نفسه قائلًا:

ـ عامر المصري، وأنت.

ـ إسحق.

ثم دعاني إلى تناول كأس نبيذ، فيما انحنت الوجوه على البار، وأخرى هامت في دخان السجائر. ثمة رجل ضخم، يرتدي معطفًا

كاكيًّا ثقيلًا، يطلقون عليه «البوس غارسيا»، يراقب الندل العاملين في الحانة. سارعت إلى سؤاله:

ـ أين البحارة، وماذا حلّ بالميناء؟

أطلق تنهيدة حزينة:

ـ الميناء موجود في رؤوس البحارة فقط.

ـ أين ذهبوا؟

هزَّ رأسه من دون أن يجيبني.

امرأة تطوف بين كراسي الحانة، نصف عارية، صدرها منتفخ، الكل يعرفها، تجالس مَن على هذه الطاولة أو تلك. وشوش عامر المصري في أذني: تعهّرت مع قباطنة وبحّارة وجنود وفلاحين وبائعين جوالين وكهنة وصيادين ودرك ومعلمي مدارس ووعاظ، يعني أنها أصبحت ملكية عامة بعدما كانت ملكية خاصة، وهو يقهقه بصخب.

ثم أضاف:

ـ إنها أقدم مهنة للمرأة في العالم، ليست هذه معجزة.

ـ لكن خروجي من سجن القلعة معجزة.

هزَّ رأسه قائلًا:

ـ إشرب النبيذ اللذيذ الآن، وتذوّق أطباق «التاباس»، يا سيد إسحق.

انتشرت صحون صغيرة من الزيتون، والسمك الصغير المقلي، وقطع البطاطا الحارة، والفلفل المبخّر، وغيرها على البار وعلى الطاولات.

أرسلت نظري إلى رفوف خشبية على شكل مكعبات، وُضعت كالسلالم، قناني صغيرة، أنواع التوابل التي يروّج لها التجار في موانئ العالم، لا تزال باقية، وإن تغيّرت ألوانها، كأن أحدًا لم يمسها منذ قرن، ثم قال لي:

ـ السيد غارسيا، هو مالك المكان، صنع من السفينة الراسية على البحر حانة وفندقًا.

وبعدما توقف لحظة، قال:

ـ سأعرفك إليه، فهو يمتلك فراسة عجيبة، تعلّمها من العرب، من كثرة معاشرته لهم، واحتفظ بحذاقة الإسبان، فهو لا يتكلم، ولا ينبس بكلمة إلا عند الضرورة، وأحيانًا يكتفي بالإشارة والإيماءة.

ثم خاطبه قائلًا:

ـ إسحق في حاجة إلى غرفة ولكن....

ساد صمت ثقيل، وانقطعنا عن التنفس للحظات، ثم انطلق عامر المصري في الحديث:

ـ إسحق يأمل أن يحصل على عمل هنا، هرب من بغداد، وخرج لتوه من سجن القلعة، ويطمح إلى السفر إلى أوروبا.

وهنا انتبه لي السيد غارسيا، وراح يتفرس بي جيدًا بعدما أهمل النظر إليّ.

ـ ميسوبوتاميا؟!

وأضاف:

ـ إنه رسام، يا سيد غارسيا.

وهنا نهض من كرسيه، وأخذ بيدي، طالبًا مني التجوّل معه في الحانة، وهو يؤشر إلى اللوحات المعلقة على الجدران، قائلًا:

ـ هل يمكنك أن تستنسخ لي هذه اللوحات بفرشاتك.

ثم أضاف بحسرة قبل أن أجيبه:

ـ لا يوجد من هذه اللوحات سوى نسخة واحدة في العالم.

ثم التفت إلى أحد النُدل، وأمره بتقديم قناني ويسكي جاك دانيال ونبيذ سوفنيون ومزيد من أطباق التاباس اللذيذة، ثم قال عامر المصري، بصوت خافت:

ـ سأتحدث معه ليعطيك غرفة في الفندق.

وقبل أن تكتمل الجلسة، جلب لي النادل مفاتيح غرفتي المرقمة ٣٥، التي تطل نافذتها على مشهد متسكعين ينبشون صناديق الأمتعة المهجورة على الأرصفة، بحثًا عن شيء يصلح للبيع، وعصابات تقبض على المراكب والسفن والبواخر التي لجأت إلى الميناء، وتتم مصادرتها، وتفكيكها وبيعها كقطع غيار، بحجة أنها غير شرعية أو لا تمتلك أوراقًا قانونية.

أبو هلال، قبطان قديم، مسلح برجال الميليشيا، يقوم بذلك، ويمنح التصاريح للسفن والبواخر والمراكب، ويغتصبها كما يشاء، ويتقاسم أموالها مع رجال الأمن بحجة أنها غير قانونية، أو تنقصها أوراق التأمين أو ما شابه. ولم يكن صديقي الذي تعرفت إليه للتو، سوى حارس، ويدخن الحشيش، ويبيع النحاس، يقطعّه من المراكب والسفن والبواخر

الراسية في الميناء، ويحلم بالسفر إلى إيطاليا ذات يوم:

ـ إما أن أصل إلى إيطاليا وإما أن يرميني القبطان في البحر!

ثم أضاف:

ـ هذه عقوبة المتسللين إلى المراكب والسفن والبواخر.

ثم تحسّر قائلًا:

ـ كم من رفاقنا أصبحوا طعامًا لأسماك القرش في البحر، هل تصدق أني ذهبت إلى إيطاليا ذات مرة، وعندما اكتشفنا القبطان، أمر برمينا في البحر لكن بناته الثلاث الصغيرات بدأن بالبكاء، فأشفق علينا، وأطلق سراحنا؟

ـ ولماذا لم تبقَ هناك؟

ـ عدت إلى الميناء لأنني لم أعثر على عمل، لكنني أفكر في العودة.

بعدما صمت قليلًا، أضاف:

ـ الرجال يجدون كل شيء في هذه الحانة، ولا يعودون إلى بيوتهم. أنظر إلى الخير الذي يخرج من البحر: أسماك صغيرة مقلية، منقوعة في الخل والصعتر والثوم والفلفل الأحمر المطحون والزعفران، بطاطا حارة، حمص مغلي، ذنب الثور المطبوخ مع البصل والطماطم والفلفل الأحمر المطحون، الجمبري الصغير مع الثوم المقلي بزيت الزيتون والفلفل الحار، الجمبري بالطحين والبيض المقلي بزيت الزيتون، السمك المطبوخ بالبصل والطماطم والفلفل الأحمر المطحون، الخبز

المبروش والخل والثوم وزيت الزيتون واللوز المطحون، والباذنجان والكوسى والطماطم المقلية والمطبوخة، كلها خيرات تأتي إلينا إلى هنا. ومن يشعر بالتعب، يأخذ قيلولته في الطابق الأعلى، لكي يريح جسده قليلًا، ثم يعود إلى الشرب، ومن لا يحمل نقودًا يمكنه أن يؤجل الدفع إلى نهاية الشهر. هل توجد حانة مثل حانتنا في باريس أو روما، قل لي، بربك، يا إسحق الأحمق، وأنت المفلس، وتقول إنك كنت في باريس، ومن يسقيك النبيذ الفاخر وأنت خالي الجيوب؟ فلو كنت في حانة أوروبية لقذفوك إلى رصيف الشارع فورًا، وهل تجد رجلًا مثل عامر المصري في قارتك العجوز التي تحلم بالذهاب إليها؟

قهقه وربت على كتفي:

ـ رغم ذلك، لا تهتم، سأجد لك طريقة للسفر.

الميناء رغم أنه مهجور لكن صراعًا خفيًا يدور على التحكم بالبشر الذين لجأوا إليه، يمكنك أن تحصل على نقود جيدة من السيد غارسيا في استنساخ اللوحات، فهو رجل كريم.

كنت سعيدًا بغرفتي، وحانتي، وصديقي الجديد، ورئيس عملي السيد غارسيا، لذلك رحت أمضي النهار بكامله في استنساخ اللوحات المتهرئة، وأمضي الليل في الحانة، وإذا ضجرت قبل ذهابي إلى النوم، أمشي على الأرصفة المهجورة، واستمع إلى غناء أبو هيثم، صياد الطيور، الذي لا تفارقه آلة العود، الذي قال عنه عامر المصري، إنه يستوحي أغانيه من هدير البحر وإيقاعاته الصوتية.

ـ هذا رجل فنان.

ـ أجل مثلك فنان.

ظلت عبارته ترنّ في أذني، كيف سيجد طريقة لسفري؟

وفي تلك الليلة التي أفرطنا فيها في الشراب، قال لي، وهو يؤشر من النافذة إلى الجبل الشاهق، الذي تُطل من قمته بعض الأضواء الباهتة، قائلًا:

ـ لا ينقذك من هذا الجحيم إلاّ رهبان دير الأيقونات.

ـ دير الأيقونات؟

ـ أجل. إنهم الآباء الآشوريون مثلك يا رجل.

ـ لست آشوريًّا.

ـ تخيّلتك هكذا.

وأشار إليه بيده، من بين الصواري المحطمّة، قائلًا:

ـ ستجد الأب جوزيف هناك في الأعالي.

* * *

لم أتخيّل يومًا أن يصبح الآباء الآشوريون في ذلك الجبل الشاهق مركز حياتي.

لا أنسى وجه الأب الياس المشرق بالأمل، ومراقبة الغيوم والنجوم من قلّايته، كأنه توّحد بالسماء، ولم تعد له علاقة بالأرض، متأملًا الوجوه التي تمرّ به، ويفكر في مصائرها، ولا يسقط عن لسانه قول يسوع: «إذا أردت أن تتبع خطواتي، تخلَّ عن كل ما تمتلك على الأرض». لذا عندما حصل على ميراثه، أهداه كاملًا إلى الأب جوزيف لشراء مبنى

الدّير والأراضي المحيطة به أثناء لقائهما في حيّ الآشوريين في زحلة لأنهم مُنعوا من تشييد دير أو كنيسة لهم، فاضطروا إلى ممارسة شعائرهم داخل بيوتهم. ونجح الأب جوزيف في تشييد دير الأيقونات الذي تحوّل رئة يتنفس بها الآشوريون بعدما اختنقوا في حيّهم الذي يشبه معسكرات العزل. أطلق الناس عليه دير الأيقونات من كثرة ما يجلب له الزوار من هدايا ولوحات وتماثيل وتحف وصلبان، حتى غطت كل جدرانه، بل تحوّلت أيقونات تطوف حولها الملائكة، وتمنحها من أرواحها، الضوء والدفء من بحر ضياء يسوع المباركة، كما يرّدد رهبان الدّير وراهباته.

كان الأب الياس كعادته، يلبس رداءً طويلًا متوشحًا بزنار صليب مثل الإسكيم وعلى رأسه قلنسوة، جالسًا يضفر الخوص، لأنه يبعث على التأمل ويُبعد الملل. عندما كنت أمرّ بقلّايته، يخاطبني: أيّها التوحيدي، ما هي أخبار بلاد الرّافدين التي لا تسر صديقًا ولا عدوًا؟ وهو يرسل نظراته إلى شجرة السدر الوارفة في وسط ساحة الدّير، قائلًا:

ـ هل تعلم، يا بني، أن إكليل المسيح ضُفر من شوك السدر؟

ثم صمت قليلًا:

ـ لكن أكليل الشوك لا يحوّل البشر أنبياء.

قلت له:

ـ كرمها اللّه بأن جعل سدرة المنتهى في أعلى مراتب الجنة عند عرش الرحمن، وذكرها القرآن أربع مرات، ونحن نغسل بأوراقها الموتى، وتتبخّر النساء بعطرها بأكياس صغيرة معطّرة بين ثيابهن.

وبعد تأمل قصير، أضاف:

ـ شراب أوراق السدر المغلية يقتل الديدان في الأمعاء، وينقي الدم والجلد، ويمنع الإسهال ويطرد البلغم، ويجبّر كسور العظام، وينظف فروة الرأس.

كان الرُّهبان والرَّاهبات يتناولون الفطور عند الفجر بعد الصلاة تحت أغصانها الوارفة، باحثين عن النور السماوي.

ويتهامسون:

ـ إن إكليل المسيح ضُفر من شوك هذه السدرة، فليس هناك بقعة أطهر من هذه الأرض.

فيما ينزوي الأب الياس في قلّايته، ينسج الخوص، ثم ينطلق نحو البراري خفية، فيما تعود الآباء الآشوريون أن يجتمعوا معه بعد عودته من البرّية، يتبركون بأسمال ثوبه الرّث، بعدما طهّرته الشمس، وسكر بآلام يسوع.

انتبه الأب سامر:

ـ لماذا لا يشفق على جسده قبل أن يتحّطم؟

أجابه الأب شربل:

ـ مصيره يشبه مصير الأنبياء والقديسين.

فيما قال الأب جوزيف:

ـ أتركوه، لا يمكن تغيير الأب الياس أبدًا.

لا يتوقف عن رواية قصص شهداء المشرق، عابرًا آلام الأنبياء،

وجلجلة المتّقين، المؤمنين، راهبًا، ناسكًا، متعففًا، مطيعًا، يمسك عصاه بيد والإنجيل بيد أخرى، كأنه خارج من العصور القديمة، بأثوابه الرّثّة، وأتباعه يرددون اسمه: صموئيل الياس صموئيل، الذي اختزله رهبان دير الأيقونات وراهباته إلى الأب الياس، وفرحوا بظهور اسمه بين أفضل أحد عشر مرشحًا إلى البطريركية، قبل تصفيتهم إلى خمسة مرشحين، لكنه لم يتقبّل المنصب لأنه يؤمن بأن المناصب الدنيوية زائلة، لأنها تخرّب أرواح البشر، ومن شدة حرصه على الأب جوزيف، همس في أذنه ذات يوم، وحذّره من تجسس بعض الرُّهبان، قائلًا: لا تدهش إنهم تجسسوا على يسوع.

لا يزال الأب الياس يُبهر الرُّهبان والرَّاهبات بكراماته في الوجود في مكانين في آن واحد، في البرية والقلّاية، ناسك خجول ومتواضع ومنعزل، يعيش بين الأرض والسماء، حاملًا صليبه، وغبطته العظمى أن يذهب إلى البراري، متعبدًا بين الأدغال والأحراج، لا يخشى الرياح العاتية، التي يمكن أن تقذفه في بطن الوادي السحيق، ولا هطول الأمطار الغزيرة التي تُغرقه، ولا الشمس التي تحرق جسده، ولا البرد الذي يجمّد العظام، بل يتراءى من بعيد كطيف، بهامته المقوّسة، وعصاه التي تنقر الأرض، باحثًا عن طريق يسوع. وشفتاه المرتجفتان، تمسكان بطرف الكلمة، باذلًا كل جهوده من أجل ضبط مخارجها، وكعادته، غادر الدّير ذات يوم إلى البراري واعتزل في مغارة، أقام فيها أيامًا طوالًا، ثم عاد ليتفقد أبناءه الرُّهبان والرَّاهبات الذين أعجبوا بقوته وصبره وتحمّله، رغم شيخوخته، يُقال إنه ذهب إلى القدس، مشيًا، ومكث هناك أيامًا، ثم عاد إلى الدّير على ظهر غيمة.

كان مفرطًا برهبنته إلى حد أخاف الأديرة الأخرى، واشتهر إلى حدّ

أنه كان يثير غيرة عدد كبير من القساوسة والأساقفة والمطارنة، وكان يردد: أيتها الكنيسة الآشورية، تعصف بكِ آلاف الرياح، وتحاربك آلاف القوات المظلمة، تريد اقتلاعك من العالم وتكافح لانتزاعك من قلوب الناس. أرادوا أن يجعلوا منك أملًا مفقودًا، متحفًا وماضيًا مأسويًا وتاريخًا مرّ عليه الزمن وانتهى. إلا أن اللّه القدير، الثالوث القدوس المحسن الكُليّ الوداعة والحكمة، هو الذي يسيطر على هذه الفوضى، ويرميك في زاوية أبعد ما يمكن عن التوقع ويغطّيك كوردة تحت صخرة. إنه يحافظ عليك في نفوس أبسط الناس، الذين ليس لهم أية سلطة أو معرفة دنيوية. وها أنتِ باقية حتى اليوم. ها أنت لا تزالين حيّة موجودة تغذّين الأجيال الناشئة، وتفلحين كل بقعة جيدة من الأرض، وتوزعين قوة وحياة وسماءً ونورًا وتفتحين للناس أبواب الأبدية.

وقال الأب جوزيف حينذاك:

ـ أليست كلمات الأب الياس تستحق أن تُكتب بماء الذهب؟ هل نسيتم أننا كنا أمبراطورية لم تكن الشمس تغرب عنها؟ والكنيسة الآشورية كانت محراب الجميع، وقبلة الشرق، لم تسعَ يومًا إلى تزيين الصّليب أو بذر الزهور، بل تسعى من أجل إنقاذ أرواح تعيش في هذا الدّير المتواضع، ماذا يريدوننا أن نفعل؟

حزنت ذلك اليوم، وأنا أستمع إلى الأب جوزيف يردد:

ـ آشوريون، كلدان وسريان وروم، ألسنا مسيحيين مثلهم؟

ثم قال الأب الياس بحسرة:

ـ لولا احتلالهم بلدنا لما تشتت المسيحيون في أرجاء الأرض، ولما صار اختطاف الآباء وطلب الفدية مهنة مربحة في بلاد الرّافدين؟

وراح الرُّهبان والرَّاهبات يناقشون أفكار الأب الياس، ويستفسرون عنها. وتساءلوا: ألم يتبرع بماله لشراء أرض الدّير، هذا الرجل الذي تكلم إلى أشواك الصّحراء وحوّلها أزهارًا في البرّية بعدما امتلأ بمحبّة الرّب، في مناجاة الخالق الأعظم، في تراتيل الأناشيد، وتطويع الكلمات، وجَذَبَ المؤمنين والملحدين، كاثوليكًا وبروتستانتيين، آشوريين وكلدانًا، ورومييين، مللًا ونحلًا، زحفت إلى هنا، فكانت عزلته اختلاطًا مع البشر، وبتوليته متعة الجسد في الشمس، وقال: من دونها نصبح بهائم، ويسوع لا يريدنا أن نتحوّل بهائم لأنه يريد أن يخاطب بشرًا.

لكن المشكلة التي أثارها الأب جوزيف كانت أكبر من تهويمات الأب الياس، الذي قال: إننا لسنا مسؤولين عن جرائم محاكم التفتيش!

وهنا ثارت ثائرة الفاتيكان على الأب جوزيف ووصفوه بالمهرطق الأكبر.

لكن الأب الياس وكذلك الآباء الآشوريين في داخل الدّير وخارجه وبخاصة المطران مار يوسف، دعموا موقف الأب جوزيف، وأيدوه في كلامه، بينما اعتبره الفاتيكان اتهامًا صريحًا للكنيسة الأرثوذوكسية. وقال كأنه يودع العالم، ذارفًا الدموع يوم طغت أصوات الرصاص على الصلوات والتراتيل ودخان البخور:

ـ تحمّل يسوع الهوان والذل من أجلكم، انظروا إلى صليبه، واعلموا أنكم مدينون له، تأملوا أنبياء المشرق الذين قُتلوا، والرسل الذين رُجموا، لتعلموا أن اللّه ليس بضعيف، وأن يسوع ليس بعاجز

مغلوب، إنما يريد أن يظهر قوته في الضعفاء، ويعلن حياته في موتهم، لا تحزنوا لهدم كنيستنا على الأرض، لأننا سنبينها في أورشليم السماوية.

بكى الرُّهبان والرَّاهبات بمرارة لكلامه، وحثّ الأب شربل على جمع سير حياة الرُّهبان والرَّاهبات في هذا الدّير ليكون وثيقة دامغة في وجه الذين يتهمون دير الأيقونات بالهرطقة، لتكون سجلًا لتفاصيل حياتهم، وحياة الآباء الآشوريين قبل مجيئهم إلى الدّير، وانغماسهم بفكرة يسوع والانشغال بها طيلة حياتهم. وفي الواقع، كانت مهمة صعبة أنيطت بالأب شربل، وكان عليه أن يبحث في حيوات الآباء الآشوريين أولًا ويسجل تفاصيل حياتهم السابقة، هل كانوا مؤمنين أم مزيفين؟

ومنذ ذلك الحين، اتخذ الأب الياس الزّي الذي رأى الملاك متّشحًا به، قطعة قماش أبيض، وصار يصلّي، ويعمل بيديه، فاستراح، وصلّى، لتأمين حاجيات نفسه بعرق جبينه، وطالبهم بالتحرر من الخطيئة الأولى لبدء حياتهم النسكية، وطهارة قلوبهم، وبكى أمام العرش، قائلًا:

ـ ارقصوا، ارقصوا... الرقص دواء للروح والجسد.

لا يتذكر الأب الياس إلّا نتفًا من حياة الدّير، عاجزًا عن ربط خيوط الأحداث بعضها ببعض، مازجًا إياها بذاكرته وأحلامه، يذرع الأرض شبرًا شبرًا، بحثًا عن معنى، يمسح أرضًا، يكنس وينظّف، ويصبّ الماء في الدلو، ويرفع الكراسي، ويتفقد الرُّهبان والرَّاهبات. ويصرّ زوّار الدّير من الأساقفة والمطارنة والقساوسة على ملاقاته، والاستماع إلى حكمه. وفي غمرة تساؤلاته، شعر بالابتهاج، في ذلك اليوم الخريفي الذي كنا مجتمعين فيه، طرح أسئلته على الرُّهبان والرَّاهبات: لا تصرخوا

أمام المذبح كالحمقى، وأنتم تبحثون عن نور الجنّة، وأفواهكم ترتعش بالشهوة والفجور، وتسعون إلى الكشف عن مفتاح أسراركم الغامضة. لا تخلطوا بين ما هو إلهي وما هو أرضي. يا إخوتي، هل ترون كيف تفترس الذئاب الأبرشيات والأديرة والكنائس هنا وهناك. أنتم تستحقون ميراث القديسين ونور الأشراف، في شعاب هذه الجبال، لا تنتظروا أن يُقدم إليكم آنية القداس على أطباق جاهزة، احملوها أنتم على راحة أيديكم، فتنزل عليها البركة من ملكوت السماء، قولوا: آمين. لستم مجبرين على البقاء بين هذه الأسوار، فالعالم يحيا بنور الشمس، والعميان يحيون بنور أرواحهم، لماذا تركتم الأب شربل وحيدًا في المكتبة، حارسًا للكتب القديمة، مثل كاهن لا يرى سوى صفحات كتبه تتطاير في مهبّ الريح، غير قادر على لملمة أوراقها، أو حفظ رائحتها، عزفتم عن كل شيء، عن القراءة، ولم تروا سوى التضرع إلى الرّب، من دون معرفة. فالرّب يكره الجهلة، ولا يقبّل وجناتهم برحمته، ولا يمسح رؤوسهم بضيائه، لا تحفظوا وصاياه، مسطّرة بين دفتي كتاب، بل تذوقوا ما يقوله، أدخلوه مختبر رؤوسكم، ثم احكموا عليها. لا تنظروا إلى جسد المرأة، بل انظروا إلى جمال روحها، فكثيرًا ما يُفسد الجمال روحها، مثلما يفسد القبح روحها أيضًا. تقوّوا بالرّب، يا إخوتي ولا تخافوا، أنتم تعيشون حياتكم في الدّير، تحت إشراف الأب جوزيف، الذي أصاب في اختياره، حيث يسعى إلى أن يجعل منكم أزواجًا ومزارعين ومؤمنين بعدما كنتم كسالى في الوادي الخصيب. تتصورون أن الوثنية ولّت إلى غير رجعة، لكنها تهددنا في عقر بيوتنا، افتحوا أنوفكم لشمّ عطر يسوع بأريجه الفواح في كل مكان، وهو يدحر

الملوك والأمراء والسلاطين الذين حبسوا أنفسهم بين جدران قصورهم، وتركوا لنا الأرض كلها، ونحن أحرار الأرض، فلماذا لا نعيش الحياة بطولها وعرضها؟

بعدما شعر بالإجهاد والتعب توقف قليلًا، وأستأنف حديثه:

ـ تذكروا الرسل الطوباويين الذين جاعوا، وظمئوا، وتعرّوا، وكدحوا، وصبروا، قمعتم أجسادكم زمنًا طويلًا، وآن الأوان أن تحرروها من قيودها، وتطلقوا لها العنان، لا تصبحوا أشقى البشر، فلم يطلب منكم يسوع أن تصبحوا أشقياء، أو تقارعوا طواحين الهواء، وأنتم لستم محاربين أو جنودًا أو قتلة. لماذا تحملون كنز الإيمان الذي عثرتم عليه في آنية من الخوف؟ لماذا تبكون آلام موت يسوع، وهو لم يطلب منكم ذلك؟ أنظروا إليه نبراسًا، وعبقًا، ووردًا. تذكروا يا إخوتي، إن يسوع تحمّل الشدائد وأنواع العذابات الشتى، من قتلة نيرون، ملك روما.

أفاق الأب الياس في البرّية، متذكرًا أقواله لكنه لم يتذكر طريق الدّير، انتابه النسيان، وفيما هو في طريقه، لاحظ من بعد مئتي متر أن شكل الدّير قد تغيّر، فالمبنى الكبير الموجود ناحية الوادي لم يكن موجودًا منذ ساعتين عندما خرج للخلوة. ما هذا السور الجديد الذي لم يكتمل بناؤه بعد؟! وسرعان ما وجد نفسه في مواجهة باب الدّير. طرق الباب:

ومن الداخل أسرع الرَّاهب البواب قائلًا: من في الباب؟

ـ أنا الياس... افتح يا أبانا إيليا.

ولما فتح الباب لم يجد أبانا إيليا بل وجد راهبًا لا يعرفه، ولاحظ الرَّاهب البواب حيرة وذهولًا في عين الزائر.

قال له الأب الياس:

ـ أين مبنى الضيوف، أين صف القلّايات القديم؟

صرخ أبونا الياس من هول المفاجأة، وتجمع حوله الآباء يرحبون به ويشكرون له زيارته لديرهم المتواضع:

ـ أنا الأب الياس، خرجت منذ ساعتين فقط، لكنني لا أجد الدّير ولا إخوتي الذين تركتهم هنا.

وأجهش بالبكاء. حاول الآباء أن يهدئوا من روعه من دون جدوى، وهم في حيرة من أمرهم، ينظرون إليه في دهشة، وهو يقابل نظراتهم بالتعجب والتساؤل. ولكن هذا لم يدم طويلًا، إذ ألهم اللَّه راهبًا قديسًا أخذ أبانا من يده، وصعد به إلى مكتبة الدّير الأثرية، وهناك قال له بهدوء شديد:

ـ هل من الممكن أن تبحث معي عن اسمك في هذا السجل الكبير؟

فراحوا يمرون على صفحاته واحدة تلو الأخرى، ولكن من دون أن يجدوا اسمه إلى مئة وخمسين سنة خلت، واحتاج الأمر إلى قليل من الصبر، وراح الرَّاهب يقلّب أكثر إلى أن قفز أبونا الياس من موضعه، وكادت إصبعه تثقب السجل مشيرًا إلى اسمه في أحد السطور:

ـ هذا أنا.

الاسم: صموئيل الياس صموئيل، جورج الياس عبد المسيح

تاريخ الرَّهبنة: ١٩٤٩ للشهداء

اسم الرَّهبنة: الياس

البلد: أيقونة.

أما في خانة تاريخ النياحة فقد كتب فيها «خرج ولم يعد». ووسط كل الأسماء لا توجد مثل هذه العبارة سوى أمام اسمه. ثمّ نظر إلى التقويم المعلق على حائط المكتبة، فإذا به العام ١٦٤٩ للشهداء.

أين كان وماذا صنع، وكيف عاش إلى ذلك الوقت؟

وقال في نفسه:

ـ هناك نُساك مجهولون لم يرجعوا إلى العالم، ولا يعني ذلك أن جهادهم ذهب هباء، وبعد بلوغهم مرتبة القداسة أصبحوا شفعاء لآلاف الناس، بل وجد الرُّهبان والرَّاهبات خلاصهم فيهم.

رأى الأب الياس حلمًا في تلك الليلة، هالة بيضاء تتحرك وسط باحة الدّير، يسوع يزور الدّير، وهو يرتدي جلبابًا أبيض فضفاضًا، ويهمّ بالدخول إلى دير الأيقونات مع تلاميذه، وكان أعظم الزائرين وأول من وطأت قدماه هذا المكان، رسم دير الأيقونات وسط الغيوم، يصلون ويرتلون في صوامعهم. حجاج أثيوبيون يأتون لزيارة دير الأيقونات، المحط الأول لزيارتهم نحو بيت المقدس، حتى إنهم كانوا ينقلون أكياسًا صغيرة مملوءة بترابه إلى بلدهم، يمزجونها بمواد البناء لإقامة كنائسهم؛ تيمنًا وتبرّكاً، من أجل الفوز بذرة من القدسية التي لا ينالونها إلا بعبور الجبال والمحيطات.

هكذا خرج من قلّايته، ولم يعد إلى الدّير، تجمّعت على بوابة

قلّايته الفراشات الملونة، تحوم وتطوف، وتعبق برائحة الخريف، إيذانًا بعالم يتوارى وآخر يولد.

*

تراءى لي من العلو الشاهق الدّير الكائن على كتف الجبل الذي بدا كالمارد الأشيب كما كان الآباء الآشوريون يطلقون عليه باللغة السريانية، لأن قدميه تكادان تلامسان مستوى البحر، ورأسه مُكلل بالثلج أو هكذا تخيلوا القرية الشاهقة، إذ لا يمكن الوصول إليها إلّا عبر «وادي الجماجم» الرهيب، حتى لا يتمكن القاطنون في البقاع أو الداخل، من الوصول إليه عبر القمم المكللة بالثلوج الناصعة البياض، فأخذتني شهقة الجبال وعمق الوديان، وأنا أرى بيوتها الجميلة، المنحوتة في الحجر حيث تركت جزءًا من حياتي. كان ذلك كناية عن قوس طبيعي يرتفع على مجرى مياه نبع اللبن حيث تسير، منحدرة كشلال في الوادي السحيق، وحوّل الأهالي بلدتهم حدائق غناء وبساتين، مليئة بأنواع التفاح: الستاركن والغولدن واسكارليت والدراقن والكرز والعنب والخوخ، ولم يغفلوا غابة الأرز التي تقع على كتف البلدة.

من هذا العلو الشاهق، تراءت لي تلك السلالم الحجرية التي صعدتها، أول مرة، قبل سبعة أعوام حين استقبلني رجل نحيف، يجلس في غرفة الاستقبال، عطف على حالتي المزرية، وبادرني بالسؤال:

ـ هل أنت من التلاميذ أم الحجّاج أم الزائرين؟

ثم سارع بأخذي إلى غرفة مجاورة، وقدم إليّ صحن حساء ساخن من العدس، وبعدما تلذّذت معدتي الخاوية بالأكل؛ سألته:

ـ وكيف عرفت أني جائع يا أبانا؟

أجابني بهدوء:

ـ من يرتقي كل هذه السلالم؛ لا بدّ أن يجوع.

وأضاف:

ـ قل كيف يمكنني أن أساعدك؟

تلعثمت، ولم أقوَ على شرح حالتي، لكنه فهم إنني بحاجة إلى مأوى، فنصح لي بترك اسمي وعنواني، أو المجيء بعد أيام، لترتيب وضعي. أصبت بخيبة أمل، لأنني كنت بحاجة إلى الإيواء العاجل؛ فنزلت إلى القرية أبحث عن مأوى، علّي أعود ثانية إلى الدّير، فشاهدت قطعة معلقة على حائط أحد البيوت «غرفة للإيجار». شكرت إله الرسم الذي وفّر لي الأموال التي حصلت عليها من استنساخ اللوحات الاستشراقية من صاحب الحانة السيد غارسيا.

سألتني صاحبة البيت العجوز:

ـ ما الذي جاء بك إلى كفرذبيان، هذه القرية الملعونة، أهو حظك العاثر؟

ـ جئت إلى الدّير، يا أمي. دير الآشوريين.

ـ أجل. وهل أنت آشوري؟

ـ كلا. مسلم.

ـ مسلم وتأتي إلى الدّير، والمساجد تنتشر في بيروت.

ـ المساجد لا تؤوي مثل الأديرة، وأنا بحاجة إلى المأوى.

قالت لي:

ـ أنظر جيدًا. القرية ليست بحاجة إلى رهبان جدد، إنك في قرية ملعونة، جنّة وأهلها يعيشون في الجحيم، لا يتنفسون هواءها الطلق، ولا يتذوقون ثمارها الطيبة، ولا يستمتعون بمناظرها الخلابة.

وكرّرت ملحّة:

ـ من نصح لك بالمجيء إلى هذا الجبل، يا تاعس الحظ؟

ـ سمعت بالأب جوزيف الذي يؤوي المحتاجين والمعوزين، ولا يحسب حسابًا لدين الإنسان.

ـ لكنه ارتكب معصيّة الرّب وسمح للراهبات بأن يختلطن بالرُّهبان في هذا الدّير الكافر، وهناك أديرة نظيفة، ومؤمنة، تمنع حتى إناث الحيوانات الأليفة في الدّير باستثناء بعض القطط وكذلك الدجاج، فكيف بهذا الشيوعي الملحد، الأب جوزيف.

ثم قلت لها:

ـ لست هنا لأحكم على أحد، يا أمي، ألا ترين حالتي المزرية؟ أتيت، يا سيدتي العزيزة، لأستنجد بالآلهة بعدما خاب أملي بالبشر.

بدت لي المرأة العجوز كعرّافة تقدم إلي النبوءات مجانًا في قرية غريبة الأطوار، رجالها كالرُّهبان لا يتزوجون ولا يتعبدون. وخامرتني وساوس: يا إلهي! ماذا أفعل لو رفضني الدّير، وقد شارفت الإفلاس؛

هل أعود إلى تعاسة الحياة في الميناء ثانية، لكنني عدت إلى الدّير بعد يومين، رأيت تلامذة رهبانًا يرتدون أثوابًا كالحة، وقمصانًا بيضًا، يتقاطرون من كل مكان كأنهم يصعدون إلى جبل آثوس، ومن بينهم ابراهيم الذي يقدم قرابينه إلى الإله، وأنا أستعيد بعض ما قرأت عن تلك الأساطير، لكنها تتجسد أمامي الآن، عبر هؤلاء الرُّهبان والرَّاهبات، بقايا الكنيسة الآشورية، ربما نقلت أحجارها إلى هنا، أملًا بحياة كريمة. وما شجعني على المجيء، شهرة الأب جوزيف التي طافت بين الآشوريين، بأنه متحرر من قوانين الكنيسة الأرثوذكسية الصارمة. تخيّلت نفسي أسير في درب المحرقة، في جبل الشهادة والنور والصلاة، لكنني لم أكن مشبعًا بهذه الروح إلا من خلال قراءة هذه الأساطير في الكتب.

عندما لاحظ الأب المسؤول عن الاستقبال شرودي وحيرتي، قال لي:

ـ لا تقلق. سيقابلك رئيس الدّير، الأسقف جوزيف.

قفزت من مكاني متسائلًا:

ـ متى؟

ـ اليوم.

ومن ثم سألني:

ـ هل أنت سرياني؟

ثم أضاف:

ـ عندنا كثير من السريان، ربما تجد بعض معارفك بينهم.

فقلت له:

ـ سأخبر الأب جوزيف كل قصتي.

ثم أخذني إلى غرفة صغيرة، ينتشر فيها ضوء شمعدان، يرسل نورًا شاحبًا، وفيها زخارف كأنها معبد صغير، تظهر على جدرانها رسومات صنعتها أيدٍ مرتعشة.

ثم قال لي:

ـ يمكنك أن تستريح في هذه الغرفة حتى يتفرّغ الأب جوزيف...

وبعد قليل، قُرعت الأجراس. ثم جاءني شاب، أنيق، ومهندم، رسم إشارة الصّليب، وعرّف بنفسه:

ـ اسمي سامر، تلميذ الأب جوزيف.

ـ وأنا إسحق.

ـ هلّا تفضّلت بمرافقتي؟

مررنا بمكتبة الدّير، فقال لي معلقًا:

ـ هنا أمين المكتبة، الأب شربل، لكنّ الناس عزفوا عن القراءة في أيامنا رغم ما يبذله الأب شربل في ترتيب الكتب والمجلدات والمخطوطات، وتقديمها إلى القراء في أفضل صورة. أنظر إلى أكداس الكتب التي وصلت إلينا من أرجاء العالم، وباللغات الشتى، وهي بانتظار أنامل الأب شربل لتصنيفها وترقيمها...

ثم واصلنا التجوال عبر ممرات رخامية حتى وصلنا إلى الكنيسة، فظهر الأب جوزيف بقامته ولم يتطلب مني وقتًا طويلًا لتشخيصه. إنها

الهيبة التي أنارت وجهه، وجعلت نظراته ثاقبة، وفاحصة، ومتأملة. وبعد انتهاء القداس، عرَّفني الأب سامر به، فاستقبلني في غرفته الصغيرة التي لم يكن فيها سوى طاولة خشبية، وكرسي، وبيانو قديم، يتكدس عليه الغبار، فبادرتُ بكسر الجمود بين شخصين يتعارفان للمرة الأولى:

ـ كانت خطبتك عظيمة يا أبانا.

هزّ رأسه، ثم حدجني بنظرة متأملة طويلة، وكأنه يسبر أغواري:

ـ ما الذي دفعك إلى قطع كل هذه المسافة لتأتي إلينا؟

ـ أسباب كثيرة، يا أبانا، منها أنكم عراقيون مثلي.

وبعد فترة صمت، نهض من مكانه، وراح يذرع أرض غرفته ذهابًا وإيابًا، وسألني:

ـ ما الذي يدفع مسلمًا مثلك إلى المجيء إلى ديرنا، وقبل أن أجيب، قال:

ـ وما هي مهنتك؟

ـ رسّام.

تغيّرت ملامح وجهه، وردّد مبتسمًا:

ـ شيء عظيم أن يكون رسامٌ بين رهباننا وراهباتنا.

ـ أجل؛ كنت رسامًا في باريس لسنوات طويلة... اسمح لي أن أقول:

ـ وأنت تبدو عازف بيانو، أليس كذلك؟

ـ تقول ذلك لأنك ترى البيانو في غرفتي؟

ثم نهض، وراح يمسح بأصابعه الغبار المتراكم على البيانو، ويتلمّس مفاتيحه الصدئة، ثم سألني:

ـ هل تؤمن بيسوع، يا بني؟

ـ الإسلام يؤمن بيسوع.

ـ كيف ستتأقلم على العيش في ديرنا؟

هززت رأسي وقلت:

ـ مثلما تعوّدت على سماع آذان المساجد، سأتعوّد على سماع أجراس الكنيسة.

وبعدها اختتم الأب جوزيف مقابلتنا، وفي اليوم عينه، خصّصوا لي غرفة، في الطابق الأول، تحتوي على سرير منفرد، وشراشف صفر، وطاولة للكتابة، ومصباح كهربائي ودولاب خشبي ذي بابين، ونافذة تطل على وادٍ سحيق، يشبه سجادة خضراء خلّابة من الأشجار والأحراج والحشائش والأعشاب، بحيث لمْ أتمالك نفسي؛ فأخذت بعض أوراق ورسمت تخطيطات من ذلك العلو الشاهق، متأمّلًا الشمس التي سلطت أشعتها على السفح المنحدر، ألوان جديدة لم أرها من قبل، مزيج من الأخضر والأصفر والبنفسجي. يا للمصادفات العجيبة، أينما حللت أجد قدري في الرسم. قبل أيام، استنسختُ اللوحات القديمة لغارسيا، صاحب حانة الميناء، والآن أرى عظمة الألوان والأصباغ التي تنبع من الطبيعة. كنت أتخيّل أن سنوات السجن امتصت كل الألوان من رؤيتي وأناملي، ولم تترك لي سوى اللون الأسود في حياتي. كنت مخطئًا، لأن هذه المناظر الخلابة على قمة الجبل بعثت في نفسي الألوان من

جديد، وأضافت إليها مزيجًا من التأمل والسموّ والجمال. هل يمكن، يا تُرى، أن تعيد إليّ فرشاة الرسم الإيمان الضائع في هذه العزلة التي أشاركها مع ثلاثمئة راهب وراهبة في هذا الدّير؟

جاءني الأب سامر في الصباح، وجلب لي قهوة بالحليب وقطعة خبز وجبنة وعلبة صغيرة من العسل، قائلًا:

ـ ما رأيك أن نفطر معًا؟

ـ بكل سرور.

ثم أضاف:

ـ كما ترى، إن اختلاط الرُّهبان بالرَّاهبات ليس واردًا هنا، فالدّير مقسّم إلى نصفين، بينهما سور شاهق، لا يتبادلون سوى أناشيدهم.

هززت رأسي.

فسألني في الحال:

ـ لا يمكن أن تفهم آلام يسوع، إلّا إذا لبست جبّة الرُّهبان، فهل لديك مانع؟

وراح يشرح لي المراحل التي يجب المرور بها؛ إذ كان عليّ في البدء أن أتسلق سبع درجات، ليس بقدميّ، بل بروحي، لأكون راهبًا سائحًا في آخر مرحلة يبلغها المتعبّد. وسرعان ما وجدت جبّة الرَّاهب وقلنسوة الرأس، والنعل الجلدي في غرفتي، فلم يكن أمامي أيّ خيار سوى ارتداء هذه الملابس الكهنوتية التي كنت أمقتها، فلم يتقبلها جسمي في بادئ الأمر، لكنني بمرور الأيام تعودت عليها. لم أكن

أعرف شيئًا عن المسيحية إلا بشكل غامض، فلم أزر ديرًا من قبل، ولم أتعرف إلى وجوه الرُّهبان والرَّاهبات عن كثب، وها هم يظهرون أمامي، في معسكرين محصّنين، عنبر الرُّهبان وعنبر الرَّاهبات. هائمون جميعهم في كأس يسوع، يكرعون من شرابه السرمدي، ذلك الترياق الذي يبقيهم على قيد الحياة، والواحد منهم، مستلب الإرادة، مغترب عن ذاته، كما لو كان يعذّب نفسه، ويكافح من أجل تبديد الظلمات في روحه، فيجهد نفسه بالصلاة، والإنشاد والتسبيح. ذوات تبدو على شكل صور غائمة، كأنها أيقونات تحتاج إلى إضاءة شديدة، لتبصرها العين، بل أكثر من ذلك، أجساد غابت عنها الأرواح، يا إلهي! ماذا أفعل هنا؟ وكيف لي أن أتصرف مع هؤلاء البشر؟

ارتعش جسدي تحت الرداء الكهنوتي، هذه الجبّة الخشنة، الصوفية، لكنها تقيني من برد الجبل الأزرق. كنت راغبًا في الخروج من ذاتي لكي أدخل إلى ذواتهم، وأطّلع على ما هو مرسوم على جلودهم من وشم محفور عميقًا في أرواحهم.

وقال لي الأب سامر: للروح درجات؟

وقلت في نفسي: إذا كان للألوان درجات، كما عهدت ذلك في فن الرسم، فإن للأرواح درجات أيضًا، ولكن هل للروح تدرّجات الألوان نفسها؟ أظن ذلك، وما بين الأبيض والأسود، بحور شاسعة، وأمواج صاخبة، تلك هي أرواح الرُّهبان والرَّاهبات، كما تخيلها ذهني المتعب، الذي يدقق في التفاصيل المملة، ويريد معرفة المزيد، لذلك يحفر ذهني يومًا بعد آخر، ويذهب إلى الأغوار العميقة، المستقرة هناك في قيعان بحار أرواحهم. لكنني لا يمكن أن أردم تلك القيعان إلا

عندما أغوص فيها عميقًا، مثل غواص اللؤلؤ، الذي يحبس أنفاسه من أجل أن يلتقط اللؤلؤة المستقرة في جوف المحارة، الساكنة في القيعان السحيقة، ومن ثم أقطع أشواطًا في ظلماتها وأنوارها، وكأنني أمرّ في برزخ يوم القيامة، التي تشبعت بها أفئدتنا منذ الطفولة، من دون أن أفهم لماذا صُلب يسوع؟ وهل هو ابن اللّه حقًا؟ تردد ألسن الرُّهبان والرَّاهبات هذه الكلمة آلاف المرات كل يوم، حتى لتعجز الأذن عن سماعها، لكنها تدوخ على أنغامها في نهاية المطاف، ولم تعد تفهم ما معنى المسيح، لأنه تحوّل نغمة موسيقية غامضة، لا يُعرف من ألّفها، أو من ابتدعها في هذا الكون الشاسع. وذهبت ذاكرتي إلى صورة صديقي الصغير، أيام المدرسة، عندما فُجعنا بغرقه في النّهر، وشيّعه أهله إلى مثواه الأخير في مقبرة النصارى في بلدتنا، في نعش مصنوع من خشب الساج المصقول، بأزهى ملابسه، ذُهلنا حينذاك: كيف يُدفن الميت بأزهى ملابسه وكأنه يُزف إلى عروس في الجنة، بينما ندفن نحن موتانا عراة، ولا نكفنهم إلّا بقطعة قماش أبيض، هل نحن نرغب في ملاقاة اللّه عراة، كما خلقنا في أرحام أمهاتنا، وهم يلقون اللّه بأزهى ملابسهم، لا بد أن ميتنا سيضع يده على عورته، بعد أن يتمزق الكفن إلى أوصال مهترئة. ولفتت نظري طقوس صلاتهم التي لا تتعدى تحريك أيديهم في الهواء، راسمين إشارة صلب المسيح في الهواء. ولعل القصة الآشورية التي انتهت بتراجيديا هرب فتاة آشورية مع عشيقها المسلم لا تزال طريّة في ذاكرة أبناء مدينتنا، مما جعلنا نحن الصغار نحلم بقصة ذلك الهرب الأسطوري، وافتخر الأهالي بأن العشيق المسلم هو الرجل الذي ينكح المرأة المسيحية، لكن العكس، وهو ما كان يحدث نادرًا، لم يكن دافعًا إلى رفع رؤوس رجالنا بل كان مصدر لعنة وغضب وثأر.

رهبان وراهبات كأنهم أشباح، يقفون أمام المذبح، مرتعشين، قلقين، يتوجهون بنظراتهم نحو السماء، ثمة ما يشتعل وينطفئ في أرواحهم، في أعماقهم، بشر لا بد من معاشرتهم، وعشق طباعهم، فكان عليّ أن أمتثل لإله السماء، أونو، لأنني أبصر زرقة السماء، وإله الأرض أنليل، لأنني أسير على اليابسة، وإله الماء لأنني أغتسل به، وإله العالم السفلي زجال لأنني أفكر في الآخرة، وإله القمر رسن لأنني أرى ضوء القمر، وآلهة عشتار، لأنني أعشق الألوان، وأبي الآلهة آشور، لأنني لم أتذوق بعد طعم الأبوة. هكذا كان يجب عليّ أن أفكر، كما شرح لي الأب سامر في أفق الدّير، ونبهني إلى أن أساله عن كل شاردة أو واردة لا أفهمها في ديني الجديد. وفي نهاية المطاف، كان عليّ أن أتجرّع رحلة تسلّق سلالم الرَّهبنة خطوة خطوة، إلى أن أصل إلى قمة الجبل، كرر لي الأب سامر: أقصد بذلك جبل الإيمان؟ هل تفهم ماذا أقصد؟ يعني جبل روحك، التي يجب أن تروّضها، وتنزلها إلى أسفل السافلين لكي تصعد بها إلى أعلى الأعالي، هناك حيث يسبح البشر في السديم الإلهي الذي تنعدم فيه الحدود والخطوط والخرائط.

فقلت في نفسي: لا طريق أمامك، يا إسحق، سوى هذا الطريق، فابتسم له، ولا تتجهم، لأنك في نهاية المطاف اخترت الدّير أو اختاره لك القدر، لكي تصل إلى تخوم روما، في سفينة الأمان، هناك ستحتفل حين وصولك، وتنسى كل هذه العذابات الصغيرة، سجل يُضاف إلى ما عانيته في سجن القلعة وميناء بيروت.

هكذا بدأت مع البشر الذين جاءوا إلى الدّير، وممّن توجّب عليهم أن يقطعوا كل تلك البرازخ حتى تصل أرواحهم إلى الدرجة السابعة، وهم يتسلقون أدراج السماوات السبع، فكنت ذلك المبتدئ الذي يسعى

إلى الوصول. ولكن إلى أين، لا أدري. وكان عليّ أن أدوّن تعهدي الآتي: «أنا الضعيف المتقدم بنعمة اللّه للدخول في سلك الرَّهبنة في دير الأيقونات، أتعهد أمام اللّه ربّ الأرباب، وملائكته وقديسيه، وأمام المذبح المقدس وقديسي هذا الدّير وأمام الأب جوزيف وآبائي الكهنة والرُّهبان الآشوريين الآخرين أن أثبت على الإيمان حتى النفس الأخير، وأن أحترم قوانين الكنيسة الرسولية التي وضعها الآباء الرسل الأطهار، كما أتعهد أن أسلك بحسب قوانين الرَّهبنة، معترفًا ومسلّمًا بأن أحيا حياة البتولية والعفّة، وأعيش حياة الشراكة، وأبتعد عن محبّة المال أو المقتنيات، وألا أتلقى عطايا شخصية أو أدخل في معاملات مادية أيًّا يكن نوعها إلا من خلال إدارة الدّير، وأتعهد الطاعة الكاملة والخضوع لأبي رئيس الدّير أو من ينوب عنه، منفذًا كل أمر وتعليم وإرشاد، محترمًا ناموس الدّير وأنظمته احترامًا كاملًا، من دون النزول إلى المدن والأرياف بغير ضرورة أو مهمة يكلفني إياها الدّير، وأن ألتزم أن يكون هذا المكان محل إقامتي». ذهبنا، نحن رهط الرُّهبان المبتدئين، إلى نبع ماء بالقرب من الدّير، وغسلنا وجوهنا، وأقمنا الصلوات، ورسمنا في فضاء الجبال إشارة الصّليب، واحتفل بنا الدّير في ذلك اليوم، حيث عدنا من نبع الماء وكأننا حجاج مقدسون، عادوا إلى ديارهم، ووسط الابتهالات، أثنى علينا الرُّهبان والرَّاهبات الأقدمون على حسن اجتيازنا المرحلة الأولى من سلم الرَّهبنة الآشورية.

وقفنا مثل جند في حضرة القائد، في ساحة الدّير كأننا نقف في ساحة معسكر.

قال لنا الأب سامر بحزم وصرامة:

ـ كلما أجهدتم أنفسكم في العبادة، قصرت المسافة بينكم وبين السماء.

وهكذا بدأت، خادمًا بسيطًا في الدّير، في أولى درجات الرَّهبنة، المؤمن: أول درجة يتقلدها الآتي إلى الدّير، شأن كثيرين جاءوا إلى هنا رغبة في الرَّهبنة، يطلقون علينا اسم طالب رهبنة، ويعطونه قلّاية، أي زاوية أو مغارة صغيرة في المكان المخصص، ويسلمونه إلى أبي اعتراف، شيخ مختبر، لكي يتعلم على يديه الفضائل الرُّهبانية، من خلال كنس الدّير ورشّه وتنظيف دورات المياه وغيرها من المهمّات الروتينية الثابتة وكل أشكال التحمّل. ومن ثم تأتي الدرجة الثانية: الطاعة والانصياع. والدرجة الثالثة: حفظ المزامير. اجتزت الاختبارات في ثلاث سنوات بحسب قوانين الرَّهبنة، في معرفة الذات، ودرجة الصدق، والاستعداد للتحمّل والطاعة والخدمة والعبادة ودرجة المواظبة. هكذا يقول لنا الرَّاهب الذي يدرّبنا على اجتياز المرحلة الأولى، والانتقال إلى درجة راهب مجمع أو راهب مبتدئ. بدأنا بالمرحلة، والحصول على مرتبة الدرجة الثانية: راهب مجمع تحت إرشاد معلم وصل إلى الفضيلة، وتختلف مدة إكمال كل خطوة والانتقال إلى الثانية طبقًا لعوامل عديدة منها استعداد الرَّاهب وتحمّسه، ومدى طاعته، وقدرته على تنفيذ تعليمات مرشده، بجدّ واجتهاد، وطلبوا مني أن أمضي معظم وقتي في خدمة الضيوف واحتياجات الدّير، وأحضر مجمع صلاة نصف الليل والتسبيح وصلاة الغروب، وحضور القداس والتعرف إلى الأسرار المقدسة، والنجاح في معاملتي مع الرُّهبان الآخرين، فأتعلم أصول التحمّل والمرونة والتسامح والاعتذار. وهنا القلّاية والمجمع مثل جناحين إذا حرّكهما الرَّاهب بتوافق واستخدمهما بطريقة صحيحة

وتحت إرشاد حكيم، رفعاه سريعًا إلى قمم القداسة. وإذا ما حاول الشيطان أن يغوي المتعبّد، يجب عليه أن يعود الرَّاهب إلى قلّايته ويسترجع الموقف في هدوء، ويعرف ما هو خطأُه وحجمه، وما نتيجة هذا الانفعال وكيفية علاجه، وعندما تكون علاقته بالجميع طيبة، لا تستطيع الشياطين اختراق روحه.

عندما تزداد ممارسته للنشاط الروحي من عبادات وقراءات وتأملات لا يخرج من القلّاية إلا للضرورة القصوى، يكون الواحد منا دخل في الدرجة الثالثة أي راهب قلّاية. وهنا يجب ألا يسقط فريسة للفراغ أو الضجر أو الملل، فيخرج منها لأسباب واهية، وعليه أن ينمو في النعمة والمعرفة وهدوء النفس والقلب والجسد، ليكون هادئًا في مشيته وكلامه ومعاملاته.

ثم تأتي الدرجة الرابعة، حيث يُعفى من العمل في المجمع نهائيًّا، ويلزم قلّايته، فينتقل إلى القس العابد أو المتوّحد أو الحبيس، ويزداد صومه ونسكه وعدد مزاميره. وتلوح لنا الدرجة الخامسة، ناسك: وهو الرَّاهب الذي بلغ درجة لباس «الإسكيم» أي الشكل المقدس باليونانية أو لباس الصّليب، فارتديت القلنسوة وهي تشبه غطاء رأس الأطفال، وتشير إلى روح البساطة التي يتحلى بها الرَّاهب. ويوجد في هذه القلنسوة اثنا عشر صليبًا، وهي ترمز إلى اثنتي عشرة فضيلة يتحلى بها الرَّاهب، وهي: الإيمان والرجاء والمحبة والطهارة والبتولية والسلام والحكمة والبّر والوداعة والصبر وطول الروح والنسك. وتنتهي القلنسوة بطرحة تتدلى على كتفي الرَّاهب لتغطي رقبته، وهي ترمز إلى أن الرَّاهب قد طرح العالم وراء ظهره واتجه بكلياته وجزئياته إلى الحياة الأبدية.

ثم دخلت في الدرجة السادسة، أي درجة الرَّاهب الذي يسكن في قلّاية، مغارة، ويعيش خمسة أيام في الأسبوع وينزل إلى الدّير يوم السبت ليحضر صلاة رفع البخور عشية قداس الأحد. بعد ذلك، تهيأنا للدخول إلى الدرجة السابعة والأخيرة، وهي الوصول المتوحّد بالمغارة إلى درجة السياحة، فلا يتقيد الرَّاهب بمغارته، بل ينتقل من مغارة إلى أخرى ومن جبل إلى آخر، ولا يتقيد بالطعام في الدّير بل يقتات على الحشائش والأعشاب البرّية مهما كانت مرّة؛ فإن اللّه القدير يعطيها مذاقًا حلوًا يتقبله السائح أو الناسك المتوحّد، خمسين عامًا، أو ستين، أو يزيد، لا يرى وجه إنسان، تائهًا في البراري والقفار لا يعرف أحد أين هو أو أين يوجد؟

وهنا بدأنا نرى الملائكة أو أشباه الملائكة تحوم حولنا في أرجاء الدّير، كائنات سحرتنا منذ سنوات الطفولة، نبصرها في الغيب، فيما يسألنا الأب سامر: ألم تشعروا أن المسافة بينكم وبين السماء قصرت؟

رفعت رأسي إلى السماء المنخفضة التي تكاد تسقط على رؤوسنا.

ثم مرّ بنا الأب إيلي، وهو بواب الدّير، الذي لا يتوقف عن سرد الطرائف والنكات، فقال لنا: يمكنكم أن تغمضوا عيونكم وترفعوا أيديكم عاليًا إلى السماء لتلمسوا الغيوم. فرفعنا أيدينا عاليًا، فشعرنا بندى الصباح يلامس رؤوس أصابعنا، فتسرب البرد إلى أرواحنا فصرخ أحد الرُّهبان: آمين. وكررنا بعده: آمين.

ثم سألنا الأب إيلي الذي همّ بمغادرتنا وقطع الساحة: هل شعرتم ببرودة السماء. أجل يا أب إيلي، السماء تلامس رؤوس أصابعنا. ابتسم

الأب سامر راضيًا عن تلقيننا دروسه، حيث كان الإيمان هو كل شيء، ومنذ تلك اللحظة، لم تعد مواعيد الأكل تهمني، ولا سرير نومي ولا توقيتات الزمن، وقيوده. دخلت حالة التقشف القصوى، وتذكرت حلقة الصوفيين المجانين الذين بثوا قوة خفية في أعماقي، هل هو الصنم الذي تحطّم في أعماقي أم شرارة الرَّهبنة التي اشتعلت في روحي، أم اللَّه الذي اكتشفته في سماء الدّير؟ وفجأة تراءت أمامي عذابات السجن والميناء ضئيلة وصغيرة ولا قيمة لها أمام ما أشعر به الآن من قدراتي الروحية المتنامية، هذا النور المتألق في داخلي، وأنا أقطع تلك البرازخ السبعة، برفقة الآلهة الآشورية التي كنت أجلّها رغم ولادتها في أرضنا أو أرضهم وهي: أونو، وأنليل، وأنكي، ونرجال، وسن، وعشتار، وآشور.

قررت أن أصبح من طراز الرُّهبان الذين يحبون العزلة التامة عن الناس حتى أطلقوا عليّ تسمية «الرَّاهب الحبيس» لأنني كنت أحبس نفسي في قلّايتي عن حب حقيقي ورغبة صادقة في الوحدة والانفراد والقراءة والتأمل والاختلاء أيامًا وأسابيع أو أكثر. هكذا تدرجت، وهكذا أصبحت: أترك الدّير من دون إذن من مرشدي إلى مغارة في الجبل، لأمارس فيها حياتي التأملية، ثم أعود إلى الدّير في فترات متباعدة، ويزداد نسكي وتقشفي واكتفائي بأقل القليل من الطعام والشراب والنوم، كما أغفو في حياة السكون والصلاة بلا انقطاع بقلب صاف ونقي. إنها مجرد تمارين كنا نمارسها مع أنفسنا، نحن والأب الياس، من دون أن نصل إلى مستواه، لأنه نبذ حياة الدّير واختار حياة البراري. باركني، رئيس الدّير، الأب جوزيف، وهنأني على قطع تلك الأشواط المهلكة في فترة قياسية، وهو يربت على كتفي قائلًا:

ـ يا بني إسحق، نقدم إليك كل التبجيل والتقديس والاحترام، فليس من السهل أن يقضي المرء على غوايات الدنيا، مسلمًا كان أم مسيحيًّا.

ـ تبقى الغواية، يا أبانا، تلك الحجرة التي تحرّك بحيرة أعماقنا حتى لو بلغنا أعلى درجات الرَّهبنة.

نظر إليّ الأب جوزيف باستغراب، وأضاف بعد تأمل قصير:

ـ نحن في قلب الغواية كل يوم بل في كلّ ساعة ودقيقة ولحظة، وما عسانا أن نفعل؟

ومنذ ذلك النقاش، انعقدت بيننا صداقة حميمة، وأصبحنا نلتقي عند مغيب الشمس، حين يعكف الرُّهبان والرَّاهبات على الصلاة، وكثيرًا ما كنا نجلس في غرفته، حتى شعر الآخرون بالغيرة من تقربي منه، وأثار حفيظتهم، لأن ليس من السهل أن تلتقي رئيس الدّير رغم تواضعه الجم، لكن قوانين الدّير لم تكن تسمح بذلك. وأصبحت بمرور الزمن مثل مستشار له في شؤون الدّير، وكنت صريحًا معه، على الدوام، بأن هناك تغييرًا يجب أن يحدث بين جدران الدّير.

التفت إليّ مذهولًا عندما قلت له:

ـ يا أبانا جوزيف، يجب أن يتوقف الجميع عن الصلاة إلى الرّب، ونسأل أنفسنا ما الذي حققناه منها، لأن المصلي كالغريق، الذي يذهب في الاتجاه المعاكس للشاطئ، ويريد النجاة، ما لم يفكر كيف ينجو بنفسه.

ثم قلت له: ماذا بعد تجربة الفقر والعزلة والبتولية؟ ماذا ننتظر،

وبماذا نحلم؟ دعنا نتحرر من فكرة هاوية الخطيئة التي تستعبد الرُّهبان والرَّاهبات.

أطرق الأب جوزيف رأسه، وأرسل نظراته إلى نافذة الغرفة، كأنه يبحث عن الأفق المختفي، قائلًا:

ـ أنت على حق، لكنني يجب أن أعالج الرُّهبان والرَّاهبات الذين يقفون في طوابير، كما ترى، من أجل الوصول إلى قفص الاعتراف، حيث لا حدود بعده، يتلون اعترافاتهم، باحثين عن شفيع لهم يوم القيامة، يتسلّحون بالصلبان المنتشرة في أركان الدّير، معتقدين أنها ستقف ضد الأعداء، وهم مقتنعون بأن جنود اللّه يحملون الصلبان بدلًا من البنادق، وهم المنتصرون لا محالة، يمجدّون يسوع، ويباركون الرّب الذي أبعد عنهم شر الحرب وأهوالها. مناسك تحولت عبر الأزمان أساطير، وها هو الأب سامر يُقسم أن الإنجيل المسجى على الدكة الخشبية وسط الكنيسة أتت به السيدة مريم ذات ليلة، حيث طارت من الناصرة إلى دير الأيقونات، وهبطت على الجبل مثل ملاك حاملة هذا الإنجيل، المكتوب على ورق البردي، الذي كتبه أحد النساك في مئة عام، هل تعتقد أن من السهولة أن نغيّر هذه العقلية؟

لم تنتهِ نقاشاتنا عند هذا الحد.

في المساء، اجتمع الأب جوزيف مع الرُّهبان والرَّاهبات، يقرأ عليهم مقاطع من الإنجيل ويحاول تفسيره، ومن خلال براعته في الشرح وربط تلك الأحداث بالواقع، جعل النصارى يتوافدون إلى الدّير من كل حدب وصوب، لأنهم يرون الأنوار تشع من صفحات ذلك الإنجيل،

مبهرة عيون المستمعين، ولا تضرّ بها، لأنها أنوار ربانية تمتزج بكلمات الإنجيل، وتلج إلى أذهان المؤمنين، فيرى الناس قامة يسوع وهالته تطوف في سماء الكنيسة عندما تُتلى كلماته من هذا الإنجيل المكتوب على ورق البردي. وفور الانتهاء من القراءة والتراتيل، يصطف المؤمنون في طابور ليلقوا نظرة على صفحاته، وكل واحد يرى فيه وجهًا مختلفًا، كائنات ملائكية تسبح بين الكلمات، مصائرهم مكتوبة، أم ثكلى ترى ابنها المخطوف عائدًا إليها، والحبيب يرى حبيبته تعود إليه، والأم ترى ابنها يعود سالمًا من جبهات القتال.

وبعد الانتهاء من القراءة، قال الأب سامر بكل ابتهاج، موجهًا حديثه إليّ:

ـ أليست أعجوبة الدنيا أن تجعل قراءة إنجيل البردي فاتحة للأفراح والمسرّات على هؤلاء الحجّاج؟

هززت رأسي، وأنا أراهم يتبركون بالأيقونات المنتشرة على جدران الدّير، ويقرأون قصة صلب المسيح كأنه مسلسل تلفزيوني.

بعد انصرافهم من الكنيسة، كان القمر يطل من بين الجبال المحيطة، وينير جوانب دير الأيقونات، ومئات الحجاج الذين قصدوه، افترشوا أرضيته، وبسطوا سجاداتهم، وأخرجوا ما في جعبتهم من أطعمة وفواكه وأرغفة خبز وجبن وزيتون وصعتر وزيت ليتناولوا عشاءهم في الهواء الطلق، وهم يرقصون على أنغام الأناشيد المتبقية في رؤوسهم. وبعد إنهاك يوم كامل، يهجعون في الساحة، تحت شجرة السدر الوارفة الظلال، بخفّة أرواحهم وأجسادهم، مسجلين ذكرياتهم عن تلك

الليلة، وكل يرويها بطريقته، فتتوزع الحكاية الواحدة على الأفواه، ويتناسخونها، لتصبح بالمئات والآلاف والملايين، باسطين أكفهم إلى السماء، وهم يرددون:

«أيّها الرب، أخز الشيطان بهلاك عبيده، وعظّم شأن كنيستك الآشورية بانتصار عبيدك».

حاول الآباء الآشوريون أن يضفوا على الدّير مسحة من الفرح والسرور والابتهاج بالعبادة من خلال السهرات الدينية ومراسم العماد والزواج المقدسة لأبناء القرى المجاورة، بل وافتتحوا مشفى صغيرًا لمداواة المرضى ومعالجتهم بالتداوي بالأعشاب، والطب الطبيعي، وقصده كثيرون من الأطباء المتبرعين الذين سئموا الحياة الرتيبة، وأرادوا أن يعيشوا هنا يداوون المرضى، من دون هدف الحصول على الأموال.

كنت أتخيّل أن ليس في الدّير الواسع الأرجاء سوى غرفتي، بنافذتها المطلة على الوادي السحيق، وأشيائها الصغيرة: طاولة كتابة، دولاب خشبي، مرآة مستطيلة، سرير ضيق، أغطية وشراشف صفر، وضوء أبيض كالحليب يتدفق من مصباح معلّق، وصمت مطبق على المكان، كأنه جزيرة معزولة، في حين كانت أصوات الرُّهبان والرَّاهبات في ذهابهم وإيابهم بين ممرات الدّير المظلمة، تعكس ضوضاء أسرارهم وهمومهم، بينما كان عليّ أن أتسلل إلى عقولهم الواحد بعد الآخر. ولم أعد أعير التساؤل المحيّر اهتمامًا: ماذا أفعل هنا؟ يسوع يخص البشرية جمعاء لأنه جزء من تاريخ الإنسان، ورحت أتساءل: ما هو يا تُرى، ذلك التماسك الروحي الذي يجعلني أقضي بقية حياتي في هذا الدّير،

بعدما كنت المشكك في جميع المعتقدات الجاهزة التي توارثناها عن الأجداد؟

أخذ سجن القلعة سبع سنوات من عمري، لا أعرف المدة التي سأمضيها بين جدران الدّير الصمّاء، أتناول حساء العدس، وأقنع نفسي بأنها وجبة الأنبياء، وأصلي بصمت، بتمتمة الشفاه الرتيبة وسط رهبان وراهبات تحولوا تماثيل وأشباحًا، لكن درجتي السابعة في الرَّهبنة تؤهلني لأن أروي أحلامي وأبتدع عوالمي من دون رقيب. يتلاعب السحر بعقول الرُّهبان والرَّاهبات والحجاج الزائرين، محاولًا أن أقول لهم إن الدين محض ابتداع ذواتنا، مهيِّئين لهذا الكلام الذي نتداوله مع الآباء الآشوريين. كان يمكنني أن أستعين بقوة يسوع من أجل إقناعهم بأية فكرة، إذا ما ترددوا في الاقتناع بها. نسبت كلامي إلى أحد القديسين من أجل أن يصدّقني الآخرون. فيما أسعى إلى إقناع الآباء الآشوريين بأن الأعمدة التي ترتكز عليها الرَّهبنة لم تعد صالحة لهذا المكان أو الزمان. الفقر في أرض غنية، والغربة وسط اكتظاظ البشر، والبتولية في غابة من الغرائز، تلك ارتسمت في عقولهم مثل نقش وشم خالد على جلود أجسادهم، ومن أجل إزالته لا بد من تقشير طبقات جلودهم، لكنني أراهن على تغيير تلك العقول، لأخرجها من مستنقع الإيمان الأعمى.

نسّاك الجبال المقدّسة والمتوحّدون في ذات اللَّه، وعشاقه، يتحدّون ما يدور حولهم من مؤامرات ومن أخطاء البشر، ولا يترددون في معانقة الشهادة، ويتألمون لهجرة المسيحيين من موطنهم، من دون أن يطمحوا إلى تحقيق مصالح شخصية لأن عشّاق اللَّه حتى جنون القلب والروح، يهيمون به، بحثًا عن همسة قلب، أو ومضة، أو خَلَجان

سحري، في لحظة تفوق هذا العالم. رهبان وراهبات يجمعهم التوق إلى اللّه، إلى السماء، إلى النجوم. سوف أعرفك يا من تعرفني، سوف أعرفك كما تعرفني، أُدخلْ إلى نفسي، يا قوّام نفسي، واسكنْ فيها واملُكْ عليها وحوّلها إليك، منزَّهة من كل عيب، ذاك هو رجائي. هكذا يردد الآباء الآشوريون كلمات القديس أغسطينوس الشهير. ويختزلون يومهم إلى حالة واحدة: الصلاة ومزيد من الصلاة، الحكاية عن نسّاك جمعتهم دروب السماء.

هنا، في كفرذبيان، يعيش الآباء الآشوريون، يصلّون، ويكتبون القصائد الروحية، ويقرأون، ويتأملون في اللّه، ويغنون حتى الامتلاء، عالمهم ليس من هذا العالم، ترتفع عيونهم إلى السماء، إلى فوق، كثيرًا ومن دون كلال أو ملل. الحديث مع اللّه لا ينتهي، يزداد شوقهم إليه كل يوم، يطلقون عليهم شعراء اللّه، ينشدون قصائده الكثيرة، ويعبرون بكلمات قصيرة عن هيامهم به، وتسبيحهم للخالق، ويحلمون بأن يكونوا معه في الأبدية العظمى. ولسان حال كل منهم يردد: «ربي وإلهي، خذ مني كلَّ ما يصدُّني عنك؛ ربي وإلهي، اعطِني كل ما يشدني إليك؛ ربي وإلهي خذني مني واعطِني كلّي لك». أليسوا هؤلاء سكارى بروح السماء؟

يمضي الآباء الآشوريون أيامهم ولياليهم، مبعدين عنهم ضوضاء العالم وصخبه، باحثين عن الهدوء والطمأنينة فيه، وهم يبحثون عن سير أبطال بلاد الرّافدين في الأجيال الغابرة. ويفكرون في حديث يسوع مع تلاميذه في عشائه الأخير معهم، ليلة آلامه وموته، لا شيء لديهم سوى أنهم تربوا على هذا الحب، ونشأوا على الأسرار المقدسة في دير الأيقونات. هكذا ظهر الطريق إلى اللّه جليًّا كالشمس، ويتساءل الآباء

الآشوريون: هل ما زال الإنسان يُغضِب اللَّه؟ كيف تريدون أن يكون اللَّه راضيًا عنا إن نحن أهملنا كل ما فعله من أجلنا؟

هذا ما يعيشه الآباء الآشوريون يوميًّا، ويجسّدونه في حياتهم النسكية، في كل لحظة منها. يرددون: لا تيأسوا من اضطرابات يسوع هو المتحدِّي الأكبر في تاريخنا البشري، وصاحب أعظم أمانة ورسالة عرفها التاريخ.

إن شرَّ الشرور كما يرى الآباء الآشوريون أن يكون المسيحيون أنفسهم متخاصمين بعضهم مع بعض، ومع جيرانهم وشركائهم في الوطن، ومع أنفسهم أيضًا، ولكن المأساة هي أنهم وجدوا الاقتتال نفسه من بلدهم الذي هربوا منه. لكنهم يرون أنفسهم في أبدية اللَّه، الثالوث القدوس، برفقة العذراء والأنبياء والرسل والشهداء والقديسين وكل الأموات المؤمنين.

هنا يستريح الآباء الآشوريون في دير الأيقونات بين جبال وتلال تغزوها الأشجار والعصافير، مشرعة على الهواء العليل والشمس. الحياة في الدّير هي أيضًا صلاة وتأمل وارتقاء إلى السماء وحديث شائق مع اللَّه. المتوحّدون، هكذا يُطلَق على الرُّهبان في أديرة آشورية، شعار حياتهم: نصلي ولن نيأس! الرَّاهب هنا يُسمى متوحدًا، لأنه كرَّس نفسه لله وحده، وهو في وحدة مستمرة مع اللَّه، في زواج سرّي مع المسيح الإله، عن طريق الصلاة خصوصًا. وهو يعيش في دير «شركة» مع إخوة في سبيل اكتشاف ضعفه ومحاربته عبر الطاعة ونبذ الذات. الحب المتَّقد لله والآخَر، أي العشق الإلهي، هو ما يُطلِقه من العالم إلى البرية. من يعشقِ الآخر يسعَ إلى أن يختلي به دائمًا. عندئذ لا يعود القرار صعبًا،

وخصوصًا عندما تؤازره النعمة الإلهية. وليس كل شيء يُفحَص عقليًا. هناك شيء من الجنون في الحب، وإلا لا يتزوج الإنسان ولا يتنسك أو يتوحَّد. لا يخفي رئيس الدّير أن التوحُّد هو موقف ضد فساد العالم، لا ضد العالم؛ أو بالأحرى هو موقف يقول إن اللَّه، المسيح الإله، يكفي لحياة الإنسان وخلاصه. ما الطريق إلى اللَّه؟ يجيبون: الطريق إلى اللَّه، كما كشفها لنا الإنجيل، هي في إنكار الذات، ويحقّقها الرَّاهب عبر الطاعة. ويشرح قائلًا: «في الرَّهبنة مرحلتان: الأولى الابتعاد عن العالم وضوضائه، ليضع المرء حدًّا للتجارب الخارجية والمغريات العالمية؛ والثانية الابتعاد عن حب الأنا. وهذه الحرب اللامنظورة يخوضها الرَّاهب داخل الدّير عن طريق الخضوع وحياة الشركة. هذه القاعدة ليست مطلقة؛ إذ نرى في أيامنا الصعبة والغريبة رهبانًا متوحّدين، نسّاكًا في قلب العالم. العالم الفاسد صار البرية. هم ليسوا من العالم، لكن أنا الذي اخترتهم من العالم، يقول الرب.

أسعفتني المكتبة أن أبحِر أكثر فأكثر في تعلّم جوهر الدين الجديد، الفنار الذي يهديني من الضياع وسط أمواج الأفكار، أنهل من ينبوع المعرفة منذ الفجر حتى آخر الليل، حتى سلّمني الأب شربل نسخة من مفاتيحها لاستكمال أبحاثي والإعداد لأطروحتي التي سأناقشها في أروقة الفاتيكان.

قال لي الأب جوزيف:

ـ إذا لم يجاهد الرَّاهب لا يدرك مدينة الأطهار، تلك المدينة التي سبقنا إليها الأنبياء، قبل يسوع: نوح وأيوب ودانيال الذين ذاقوا التجارب كلها، وتحمّلوا حالات الضيق، فوهبت لهم المعرفة الروحانية،

وصاروا سكنًا لله، وأحسّوا بالأسرار، بل اجتهدوا وتغربوا في البرّية، ولزموا الصوم والصلاة والسهر، فقاموا بما قرر عليهم من وصايا، وعفّة، ومسكنة، ونافلة، وغربة، لتكميل وصايا الرّب.

كان الأب جوزيف يسعى إلى فهم أفكاري عن الوجه الآخر للمسيح، الذي يرفضه الفاتيكان، قائلًا بحماسة:

ـ لا بد من بعث روح جديدة في المسيحية قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة.

ـ لا بد من اقتلاع الصورة القديمة التي ترسخت في العقول.

وأضاف بصوت خافت كأنه يبوح لي بسرّ:

ـ أغلقت الأرثوذكسية أبواب عقولهم.

ثم هزّ رأسه، يداعب لحيته الخفيفة بأنامله، وقال بنبرة حزينة:

ـ الدّير بالنسبة إليهم، هو الكون، لا يرون عالمًا آخر غيره، ولا يحيدون عن تعالميه، منهم من يتهمنا بأن دير الأيقونات تحوّل مأوى للأيتام واللقطاء والصعاليك والمشردين والمقامرين واللوطيين والمخذولين والمعتوهين والمعطوبين والهاربين من الحرب.

وبدا مهمومًا، وهو يردد:

ـ تُرى، هل يتركنا الفاتيكان وشأننا؟

ـ ماذا يمكن أن يفعل؟

ـ المال والسلطة يفعلان كل شيء يا بني.

ثم ابتسم لي وسأل:

ـ هل ما زلت متعلقًا بحلمك بالعودة إلى أوروبا؟

ـ طبعًا يا أبانا جوزيف، هذا هو الحلم الذي يراودني.

ـ نسعى من أجل الحصول على زمالتك الدراسيّة من الفاتيكان.

قفزت من مكاني، صارخًا: هذا ما أحلم به. ثم ذهبت إلى غرفتي طافحًا بالفرح، حالمًا بجواز السفر، وتذكرت ما قاله لي عامر المصري في الميناء: الدّير خلاصك الوحيد، فهل دق جرس الخلاص، يا تُرى؟

ورحت أفكر: من هو هذا الرَّاهب الذي سأكونه؟ هل هو أكثرهم ضبطًا للجسد والروح، واتحادًا بالرّب، أم أكثرهم عقلًا وعلمًا وصبرًا وعفة وجودًا وتريثًا ورحمة ووقارًا وكتمانًا وطاعة وصمتًا، لكنني سأصبح بذلك، ملاكاً وليس الأب إسحق ذي الحال المزري، الذي يبحث عن طريق للسفر إلى أوروبا التي فقدتها في لحظة غضب وتمرد. صفات ملائكة وليست آدمية، حتى جنيد، الشيخ الصوفيّ الذي اشتهر بصرامته ورزانته، لم يستطع حرمان نفسه تذوّق اللذة، وفي رأسه عششت عبارة: وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب. وهاأنذا أرى السحاب تحت جناحي الطّائرة التي تقلني إلى روما.

*

لم يكن جوزيف أدوارد إيشو، سوى الراعي الأشهر في قرية مركا الآشورية، وابنها البار الذي لا يتوانى عن تقديم أي عون إلى أبناء قريته وقت الحاجة، جذبت وسامته جميع فتيات القرية، فكن يتمنين الزواج منه، لكنه اختار الأرملة سيسيل لتكون زوجته، ويعيل بناتها

الثلاث اللواتي توفي والدهن، صديق طفولته، إثر رصاصة وجهها قنّاص إيراني إلى قلبه، فوقع شهيدًا، حمل أصدقاؤه الجنود الآشوريون جثته إلى القرية في مشهد جنائزي حزين اهتزت له جبال القرية وسجدت له أشجارها، إذ لم يكن بمقدور سيسيل أن تنساه أبدًا، حيث جاءوا بنعشه، محمولًا على ظهر سيارة قديمة، ملفوفًا بالعلم العراقي، تعلوه عاصفة من الغبار والرمل، فهرع أهالي القرية، يجهشون بالبكاء والعزاء.

كان صباحًا حزينًا في قرية مركا المنسية على سفح الجبل، ليس على بعد من الموصل، والتي لم يكن لها أي شأن في هذه الحرب الضروس التي أكلت أبناءها الطيبين الواحد تلو الآخر. هرع جوزيف، صديق زوج سيسيل الشهيد، إلى التعزية، فتبادل نظرات الحزن معها، واحتضن بناتها الثلاث، فانفجرت في بكاء عارم، وتخيّلت كيف كان زوجها يحتضنهم في إجازاته الشهرية. ومنذ ذلك اليوم، بدأ جوزيف يتردد على منزلها؛ ويقدم إليها يد العون، مما أثار الشائعات حول علاقتهما بين أهالي القرية، وعندما علم بالأمر المطران مار يوسف استدعاه إلى كنيسته المنحوتة في أعلى الجبل، معتقدًا أنه سينصح له كالعادة بالتخلي عن عقيدته الشيوعية، وحضور صلاة أيام الآحاد مع أهالي القرية، إلا أنه فوجئ بسؤاله:

ـ ما هي صلتك بالأرملة سيسيل، يا بني؟

وقف جوزيف مصدومًا، وقال:

ـ كان زوجها الراحل صديق طفولتي.

ـ وهل تقدم إلى عائلتها يد العون؟

ـ طبعًا، يا أبانا، منذ أن رحل زوجها، أقوم بإعالتهم.

ـ ليباركك الرّب. يا بني.

وبعدما صمت للحظة، قال المطران:

ـ ولكن، يا بني، حاول أن تقلل من زياراتك لبيتها؟

ثم أضاف المطران:

ـ أنت تعلم أن قريتنا الصغيرة لا تتحمّل الشائعات.

ثم هزّ رأسه، قائلًا:

ـ إذا كانت لديك نيّة للزواج منها، فلا بأس أن تأتي معها إلى الكنيسة وتعلن اقترانك بها، وسأكون سعيدًا بتزويجكما هنا.

ثم لوّح المطران بيده، راسمًا إشارة الصّليب، منبهًا إلى انتهاء المحادثة، فعاد جوزيف أدراجه من الكنيسة، يطأطئ رأسه، منحدرًا من سفح الجبل على حصانه، وهو يفكر في نصيحة المطران، وداعبت سيسيل خياله، بجمالها الطاغي وأنوثتها المتألقة وقوامها الرشيق، كأنها لم تنجب ثلاث بنات، بل هبطن عليها من السماء، ولا تزال تحتفظ بنضارة شبابها. ومع فكرة المطران، بدت قرية مركا في نظره أكثر جمالًا بغاباتها وجبالها ووديانها. لكن ذلك سيثير حفيظة رجال القرية. استوقفه التفكير، وقال في نفسه: الزواج بامرأة أرملة أسهل بكثير من الزواج بامرأة بكر، أليس كذلك يا جوزيف؟ لم يكن بحاجة ليطلب يدها من أحد، فهي التي تقرر مصيرها، ولن تطالبه بالمهر، الذي وصل إلى ملايين الدنانير في القرية آنذاك. لوّى رسن حصانه وعاد إلى المطران، وهو يصرخ من الباب: يا أبانا... أنت على حق، سأتزوج من سيسيل.

انطلق صوت المطران:

ـ ليباركك الرّب، يا بني، لطالما راهنت على ذكائك.

ومنذ ذلك اليوم، تغيّرت نظرته إلى المطران، وذاب الجليد بينهما، بين عقيدة يسوع، وعقيدة الشيوعية، تقرّب الرجلان، وكأن أحدهما يكمل الآخر. لكنه لم يستطع أن يبعد ما ترسخ في ذهنه منذ سنوات من تعاليم الشيوعية: إن وجود اللّه يحد من حرية الإنسان ويُلغي كرامته ووجوده. ثم تساءل: ولكن هل نجح الإلحاد في أن يهب الإنسان السعادة؟ الإنسان هو إله هذا الكون، وآمن بأن نقطة التحوّل في التاريخ ستكون لحظة سيعي الإنسان أن الإله الواحد هو الإنسان نفسه، هو إله نفسه، الإنسان الذي يؤمن باللّه لا يؤمن بنفسه، فاللّه هو الإنسانية، لا أكثر ولا أقل، والدين يجب أن يموت، ووجود اللّه ضد وجود الإنسان، يجب ألّا يكون اللّه، حتى يكون الإنسان، لأن وجوده يسلب الإنسان حريته، إن كان اللّه موجودًا فلستُ بحرّ، أنا حر فاللّه إذًا غير موجود، إذا انفجرت الحرية في روح الإنسان، لم يبقَ للآلهة أية سلطة على هذا الإنسان. ثم قال في نفسه: إنني لا أريد ملكوتًا سماويًا لأنني إنسان، إنما أنا في حاجة إلى ملكوت أرضي، وفردوسي أرضيّ وليس سماويًا. رغم كل هذه الأفكار، تمكّن جوزيف أن يتقرّب من المطران مار يوسف.

أقام جوزيف حفلة صغيرة لأصدقائه في باحة منزل سيسيل، وحضر المطران بخابية خشبية من النبيذ الأحمر، حملتها عربة كبيرة، وتصاعدت تعاويذ الخمر إلى رؤوسهم في ليلة العرس الصاخبة، وأطلق أصدقاؤه المسلمون الأعيرة النارية بدخان بارودها المتصاعد

نحو السماء، احتفالًا بزواجه، وتجمّعَ أهالي القرية مبتهجين بالعرس على غير عادة زواج الأرامل، يعزفون على آلات العود والناي والطبلة والمزمار، رقصًا وغناءً حتى طلوع الفجر.

ثم عاد جوزيف إلى حياته في الرعي، مبتهجًا بحياته الجديدة، فهو الآن يمتلك منزلًا وزوجة جميلة وثلاث بنات، اعتبرهن من صلبه. وراح كعادته، يخرج كل يوم ليرعى قطيعه في وديان مركا على بعد عشرات الكيلومترات، فتهيئ له زوجته سيسيل صرّة طعامه، إلى أن يعود في المساء، وقد أنستها لطافته، رحيل زوجها رغم تفكيرها فيه، وأزاحت صورته من الجدار لكي لا تتذكره، وتجهش بالبكاء كل يوم.

كانت حشائش المناطق القريبة قد احترقت بفعل قنابل القصف الجوي؛ فكان عليه أن يقطع سفوح الجبال البعيدة للوصول إلى المراعي الخضر، من دون أن يخشى الذئاب لدى عودته في المساء، بل يغني لها أغنيات القرية، مذكرًا إياها بأنه أكثر قوة ودهاءً منها، ولا تتجرأ على أن تلتهم أحد خرافه ما لم تهجم عليه أولًا، فما دام على قيد الحياة، لا تحلم الذئاب بخرافه. ولم يكن يستخدم بندقيته المحشوة بالطلقات، والتي لا تفارق كتفه، مستمدًا صلابته من قوة أفكاره التي لا يتوقف عن ابتكارها، وهو يختال بشبابه. ومع ذلك كان حذرًا من اللصوص وقطاع الطرق، يسير فاتحًا صدره للريح، ووراءه قطيع الماشية في المراعي الخضر، مفتخرًا بأنه لم ينقد للانخراط في الحرب، لعدم إيمانه بها، ولا يقدر أن يقوم بعمل يكرهه، من دون أن يؤمن به، ولو كان العكس لذهب إلى ساحات القتال غير مبالٍ بالرصاص، وفضّل أن يعيش مع الذئاب والخراف على أن يعيش مع الجنود في الخنادق.

لم يتردد راعي القرية أن يهدي خروفًا إلى العرسان الجدد ليقيموا احتفال أعراسهم، وأثني المطران مار يوسف على كرمه، وزاره في منزله، وتناول فنجان قهوة مع العائلة، قائلًا له: أنت نموذج للشاب المسيحي، لم يكن من الطراز الذي يعير اهتمامًا بمعتقداته المسيحية، لكنه توقف عن معاداتها، حبًّا بالمطران. ثم أضاف المطران قائلًا: هل تعلم أن كثيرين من الأهالي يطلقون اسمك على مواليدهم الجدد، تيمّنًا ومحبّة بك؟

وبالفعل شاع اسمه في القرية، واختير أن يكون قائدًا لهم. سارت الأمور على هذا المنوال، إلى أن حدث ما حدث... بينما كان الراعي الشاب جوزيف عائدًا مع قطيعه إلى قريته، هجم عليه ثلاثة لصوص خططوا لسرقة قطيعه، مصدر رزق عائلته الصغيرة، فوقف في وجوههم، وخُيّر بين اثنين، الموت أو الدفاع عن نفسه، وتبادلوا معه إطلاق النار، وتمكن من قتل أحدهم، بينما هرب الاثنان، فأخبرا عشيرتهما بما حصل لهم مع الراعي الآشوري، فاشتعلت في صدورهم فكرة الانتقام، لكنه أفلت من قبضتهم، ولجأ سرًّا إلى كنيسة المطران مار يوسف، فاحتضنه، وأنزله في السرداب، تمهيدًا لتهريبه إلى مكانٍ مجهولٍ، فأصاب الذعر آشوريي القرية، خوفًا من فكرة الانتقام الجماعي.

وعاشت سيسيل أيامًا عصيبة، وقررت صعود الجبل لرؤية المطران مار يوسف، والسؤال عن زوجها، ومعها أهالي القرية، وبحثوا معه في إنقاذ حياته لكنه طلب منهم أن يرفعوا أيديهم إلى الرّب بالدعاء والغفران.

وبمرور الأيام، ساءت حالة جوزيف: طالت لحيته، وأصفرّ وجهه،

وخارت قواه، وهو حبيس سرداب الكنيسة. أطرق رأسه مفكرًا: ماذا سيكون مصيره لو وشى به أحد؟

اقترحت سيسيل على المطران أن تبيع حليها الذهبية، وما جمعه أهالي القرية، كفدية، حتى إن الشابة الآشورية إيفيان، ذات السبعة عشر ربيعًا، قررت أن تزفّ نفسها إلى أحد أفراد عشيرة القتيل من أجل إنقاذ رقبته، من دون جدوى.

لم تفلح سيسيل في أن تفعل شيئًا، وظل مصير جوزيف مهددًا بالخطر في أية لحظة. مرّت الليالي بصعوبة، وهو يخاطب القمر من كوة سردابه، ودبّر له المطران مار يوسف طريقة للتنكر والهرب على شكل راهب إلى أحد الأديرة المجهولة وراء الجبال، فودّع سيسيل في تلك الليلة القارسة البرد، بالرداء الكهنوتي، ورفض أن يهاجر إلى أميركا، شأن الشبان الآشوريين، مرددًا اسم مركا، التي لفظها بالسريانية الآشورية.

فأجابه المطران:

ـ لا توجد مركا واحدة على وجه الأرض، يا بني، فمروج اللّه واسعة في كل مكان.

خرج جوزيف من سرداب الكنيسة، وألقى النظرة الأخيرة على قريته التي تزهو بقلعتها الأثرية الجبلية، الشبيهة بمدرج روماني، وتزدان بالأزهار والثمار في ذلك الفجر، وقد رآها تلبس ثوبًا قشيبًا من الثلوج، من دون أن تفارق مخيلته صورة رجال عشيرة الباز ينهالون بفؤوسهم على رأسه، وهو مربوط إلى كرسي خشبي وسط ساحة القرية، متذكرًا ما قاله له المطران مار يوسف:

ـ لو وجدوك هنا، لهدموا الكنيسة على رؤوسنا.

تنهّد المطران قائلًا:

ـ ارحل، يا جوزيف، أرض اللّه واسعة، وأينما ذهبت، ستجد، كالأنبياء، قطعانًا من الماشية تحتاج إلى راعٍ.

أهداه المطران كتاب الإنجيل، ورسم إشارة الصّليب، وقبّله على جبينه وودعه ثم توارى في اختلاط ظلام الليل بضياء الفجر.

ومنذ ذلك اليوم، لم تذق سيسيل النوم، والكوابيس تقضّ مضجعها كلما أوت إلى الفراش، حتى أخبرت المطران مار يوسف أنها حامل من جوزيف في شهرها الثالث، راجية منه أن يعلن ذلك من منبره على الملأ، حتى يعلم أهالي القرية أن ما تحمله في بطنها من صلب زوجها جوزيف، وأنها ستربيه إلى أن يصبح رجلًا مثل أبيه، وظهر المطران في أزهى جبّة، وقلنسوة، واختتم وعظه، قائلًا:

ـ ليبارك الرّب الجنين الذي في بطنك، أيتها الأخت سيسيل.

ـ أوصاني أبوه بأن أعمّده في كنيستنا الآشورية.

وبعد ستة أشهر، أطلق اسكندر صرخته الأولى، التي ردَّدت صداها المراعي الخضر، لتعانق ذكرى أبيه.

سألتْ المطران مار يوسف:

ـ وماذا يعني اسم اسكندر الذي أطلقته عليه؟

ـ يرمز إلى حماية البشر.

انفرجت أساريرها عن ابتسامة:

ـ أتمنى أن يحمي اسكندر أباه من شرور الدنيا.

بعد سنوات طويلة، لم يعد المطران مار يوسف قادرًا على السير إلّا متكئًا على عصاه، وطالما زارته سيسيل في الكنيسة، سائلةً عن مصير زوجها؛ وظل المصدر الوحيد عن أخباره طوال سبعة وعشرين عامًا.

ـ هل ما زلت تنتظرين جوزيف؟

أجهشت بالبكاء، متمنية لو كان بجوارها في تلك اللحظة، وهي تصغي إلى الرياح العاتية التي تقتلع الأشجار والنباتات.

ـ يا أبانا، لا أعرف إن كنت أحلم أنني على موعد زيارة.

أرهفت السمع إلى أناشيد وتراتيل من أفواه تلامذة المدرسة الذين جاءوا لتنظيف سجّادات الكنيسة من غبار الأحذية التي تدوسها، وهطلت الأمطار على جدران الكنيسة السميكة، تحدث صوتًا مخيفًا. سألها المطران:

ـ هل ترغبين في فنجان قهوة؟

هزّت رأسها.

ـ البركة في اسكندر والبنات الثلاث.

صمت المطران، وراح يفكر، وثمة موسيقا تشنّف أسماعها، وتساءلت:

ـ ما هي هذه الموسيقا؟

أجابتها الرياح:

ـ موسيقا الناي الذي يعزف عليه جوزيف.

قال لها المطران:

ـ لا خوف على جوزيف؛ فهو بارع وماهر، أراه الآن أمام عينيّ كما أراك يا سيسيل المعذّبة، حيًّا، معافى، ونابضًا بالحياة، يشيد ديرًا مع الآباء الآشوريين.

قالت له بكل حسرة وألم:

ـ هل أصابتنا نحن الآشوريين اللعنة؟

ـ أجل. منذ بلبلة الألسن التي أصابت البنائين الذين حاولوا بناء برج بابل لكي يصل إلى السماء، لذلك بلبل الرّب ألسنتهم كي لا يتفاهموا، ويتوقف بناء البرج.

ـ وهل يجعلنا هذا الاعتقاد نعيش اللعنة إلى آخر حياتنا؟

ثم صمتت للحظة، شاردة الذهن:

ـ أخبرني، هل هو مع امرأة أخرى؟

ـ لا يفكر جوزيف إلا فيك، وقد جاءني ذات يوم في أحلامي مثل شبح، وسألته عنك، فأجابني أنك المرأة الوحيدة في حياته.

ـ ولكن لماذا اختفى كل هذه السنوات؟

لم ينبس المطران بكلمة.

ـ هل ثمة خطر على جوزيف لو عاد إلى مركا؟

ـ لا أدري، يا ابنتي، التاريخ لم يتوقف عن توليد يهوذا الأسخريوطي على مرّ الزمن، ألم يقل يسوع: كان خيرًا لذلك الرجل ألّا يولد؟

ثم هز رأسه، مردّدًا:

ـ وإنكار بطرس لا يختلف عن خيانة يهوذا، وقد تنبأ يسوع بكليهما، الأول قد آمن وتاب أما الآخر فلم يتب.

تململت سيسيل في وقفتها، وشعر المطران أنه يعيد القصة نفسها، ثم قال:

ـ وهل تعتقدين أنهم كانوا قادرين على احتلال بلادنا لولا يهوذا؟

خرجت سيسيل من الكنيسة، مودّعة إياه، والشمس تشرق، وتغيّر من اخضرار جبال مركا ووديانها، ولا يزال رجال القرية ينظرون إليها بعيون نهمة، وشبقة، وجائعة، تطفح شهواتهم من أجسادهم، مؤمنين ومجدّفين، فاضطرت إلى ارتداء العباءة السوداء، لتبعد نظرات الفضوليين. تذكرت جوزيف، وهو يرافقها إلى المروج الخضر، مع أغنامه، ويفرش لها السجادة على الحشائش ويتناولان طعامهما، وهو يرقب قطيعه، ثم يأخذها على فرسه، ليتجوّل في أطراف المروج التي تطل على الوديان، وقمم الثلوج، وينفخ لها بالناي، قائلًا:

ـ مركا جنّة على الأرض.

ويقبّلها قبلة طويلة، ينسى فيها قطيع أغنامه التي تتقافز وتتشاكس.

لم تنقطع سيسيل عن زيارة المطران مار يوسف، ولكنها في هذه المرة أرادت أن تعرف مكانه للذهاب إليه.

فرك المطران يديه، ومد رقبته، قائلًا:

ـ جوزيف بخير. ربما لا تصدقين ما أقوله لك، إنني لا أهلوس كما تقولين لي دومًا، إن زوجك في دير الأيقونات في لبنان الآن.

ثم قهقهت عاليًا، وسألته:

ـ هل يُعقل أن يصير جوزيف راهبًا؟

ـ بل أسقف الدّير ورئيسه.

وقبل أن تغادره، أخرج المطران ظرفًا يحتوي على المال، ودسّه في يدها، قائلًا بصوت متهدِّج:

ـ قد يعينك هذا على السفر، فلم أعد بحاجة إلى أموال في هذا العمر، يا أخت سيسيل. إن أخطر ما في الوجود أن يمر الإنسان في هذا العالم من دون أن يترك بصماته في مكان ما.

ثم أضاف:

ـ جوزيف ترك بصمته على قرية مركا إلى الأبد بالدفاع عن نفسه.

ولم يفتها أن تسأله:

ـ هل ناديتني بـالأخت؟

ـ أجل. أنت راهبة من دون أن تلبسي ثوب الرَّاهبات، هذا قدرنا، يا سيسيل، هل تعتقدين أننا اخترنا هذا الطريق بحريتنا؟ هل تعلمين أن جوزيف يقود ديرًا يضم ثلاثمئة راهب، وصلت أخباره إلى الفاتيكان؟

وتمتمت مع نفسها: البعض يعتبرني راهبة مزيفة، أنا المخلصة لجوزيف نحو ثلاثين عامًا، لم يمسّني رجل إلى أن ذبل جسدي، حرمتهُ مباهج الدنيا، كيف تكون الرَّاهبة، إذًا؟

ثم رفعت يدها إلى السماء، قائلة:

ـ أيّها الرّب، أنقذنا من بطلان هذا العالم. لم أتوشح بالزي الرُّهباني، ولا أرغب في ذلك إلّا من أجل رؤية جوزيف، لكن لا ضير أن أصبح راهبة، شرط أن أكون معه، ألم يخطر بباله أن يرسل في طلبي قبل هذا الوقت؟ لم أستلم منه ورقة الطلاق، ولم يرسل إلي أية رسالة، ما زلت في ذمَّته، وربما وصل إليه خبر طلاقي الذي أجبروني عليه، من أجل إنقاذ ابني وبناتي.

ها أنا ذي أرى الرَّاهبات يبتهلن إلى الرّب بالحزن والدموع ويتضرعن، وهن يسمعن قراءة الكتاب المقدس، ومرارة البكاء لا يتذوّقها الرّب كما يجب. نحن النساء، من نتفجّع على الأرض وفي السماء، يموت الرجال، وينتهي أمرهم، لكننا نواصل الحياة ونحاول نسيان ما فعلوه بنا.

أمضيت ليالي طويلة، مرهقًا بقصة الأخت سيسيل، هذه الأيقونة القديمة، التي بعثتها الأزمنة السحيقة، وحطت كطائر غريب بين جدران هذا الدّير، كأنها الآلهة إنانا في الزواج المقدس، يوم استحمت بالماء، ودلكّت جسمها بالصابون، وارتدت الطيلسان، وكأنها تستعد للحرب، وحملت دموزي على الاستجابة لدعوتها، في إنشاد أغنية، كأنها راهبة بابلية، ورثت كنوزًا ضائعة، ربّة الحب شبّهت جسدها بقارب السماء وبالهلال والأرض والحقل والرابية، صفات لا تعرفها امرأة أخرى.

*

تعالى صوت المضيفة، وهي تحّذر الرّكاب من المطبات الهوائية، وتكرر عباراتها الروتينية: اربطوا أحزمتكم جيدًا.

تجهّمت وجوه الرّكاب، واتجهت الأنظار إليّ وكأني أتحكّم

في حركة الطّائرة والرياح، وكأن جبّة الرّاهب فيها بعض سحر يسوع وروحه، يمكنها أن تحافظ على توازن الطّائرة، فتكون المطبّات الهوائية بردًا وسلامًا، وتكسر العواصف والرياح، لحظات يتوّحد فيها الرّب مع الإنسان، ويصبحان واحدًا. أخلاقيات الرّهبنة تتطلب أن أبعث الطمأنينة في قلوبهم، بتلاوة مقاطع من الإنجيل، ولطالما كانت التراتيل والأناشيد تؤنس النفس، وتقضي على خوف الإنسان الأزلي، فكلما ارتعدت فرائص الكائن البشري لجأ إلى الغناء، وأطرب نفسه بأغنيات ذاكرته، لاجتياز خوفه ورعبه. وكثيرًا ما تعودت على رؤية الرُّهبان والرّاهبات، في حالات ضعف وخوف وارتجاف، ينشدون الطمأنينة مني، ويتوسلون ترياقًا أسقيهم منه.

صرخ أحد الرّكاب الجالسين بجوار النافذة وقد ارتعدت فرائصه، وضاق تنفسه، وتعرّق جبينه، كمن انتابته نوبات فزع. استنجدت بي المضيفة ناتاشا لكي أهدئ من روعه، قائلة لي: إنه الرّهاب، يا أبانا، رهاب الطّائرة. في أعماق كل منا نوع من هذا الرّهاب، ولكننا نسيطر عليه بتبصرنا. لذا اقترحت عليها أن تنقله على الفور من مقعده المطل على النافذة إلى مقعد آخر وسط الطّائرة، ثم قلت لها، وهنا تذكرت ما كان يقوم به الأب جوزيف في حالات كهذه:

ـ ناتاشا، هل لديكم تسجيلات لموسيقا فيفالدي؟

وسرعان ما أطلقت عن طريق المصادفة موسيقا الفصول الأربعة لفيفالدي التي عزفها لنا الأب جوزيف في الدّير قبل مغادرته، فشعر الراكب المصاب بالرّهاب بالهدوء والاسترخاء، وابتسمت ناتاشا، وهي تقول: برافو، يا أبانا، ولكنك لم تقرأ عليه كلمات الإنجيل، ومن

دون أن تنتظر الإجابة، سارعت إلى إحضار كأس من النبيذ لتكرّمني، ابتسمت لها قائلًا:

ـ ليبارك الرّب جمالك.

تغنّجت لكلامي، وأطربتها لازمتي، من دون أن تستغرب: فقلت لها: لأن الرّب كان على الدوام، يحب الجمال الذي انتقل سحره إلى قلب يسوع، لأن الجمال كان ولا يزال إلهيًّا، أنزله الخالق هدية للبشر، أليس كذلك؟ رأيت الرضا يلتمع في عينيها، ونشوة غريبة تكاد تقفز من جسدها، فاستغرقت في النظر إلى أعماق عينيها، حتى كادت تنام نومًا مغناطيسيًّا، أتمنى أنها لا تعتبر مغازلتي بريئة، فالحب عالم ملتبس على الدوام، فكيف إذا كان بين راهب ومضيفة؟ خجلت من نفسي على هذه المشاكسة العابثة، لكنها فتنتني بجمالها وسحرها.

عندما وقفت وحدي أمام الأب جوزيف عند المذبح المقدس، قال لي متحسرًا:

ـ مملكة الحب غائصة في أعماقنا.

فقلت له:

من قال ذلك؟

أجابني:

ـ يسوع.

ـ أي حب يقصد؟

قهقه الأب جوزيف عاليًا، وردّ عليّ:

ـ الحب غامض، أيها الأب إسحق، أنتم أجرأ منا في الحب.

ـ أتقصد المسلمين؟

لم يجبني لكنه اكتفى بابتسامة لم تكن تنم عن خبث، ولا تحمل أي تمييز في طيّاتها قط، لأنه لا يزال يعتبرني مسلمًا حتى بعدما حصلت على الدرجة السابعة في الرَّهبنة، معتقدًا أن الماضي لا يمكن أن يُمحى بجرة قلم. فأردت أن أقول له:

ـ الدين غامض، يا أبانا وليس الحب، لكنني لم أرغب في جرح مشاعره.

وفي الواقع، ظل الدين ملتبسًا في ذهني، حتى بعد السنوات السبع التي أمضيتها بين جدران الدّير، ومهما كان الدين الذي أعتنقه، فهو يدور في فلك الكلمات، وتفسيراتها. عالم هلامي، يسعى إلى إثارة غرائزنا، وليس عقولنا، وهو ما كان يعارضني الرُّهبان والرَّاهبات فيه، ويصّرون على إنزال يسوع من أعالي السماء إلى ديرهم، ليعيش معهم، ككائن خرافي، له أجنحة الديناصورات، وأجساد الكائنات المنقرضة. روح تدق أبوابنا على الدوام، وتذكّرنا بالآلام والخطيئة والندم، وهي أحاسيس حاولت القضاء عليها منذ زمن بعيد لكنني لا أعرف كيف تسللت إلى روحي من جديد بعدما أصبحت من الماضي.

جذبتني المضيفة اللعينة، هذه التفاحة التي وقعت في سلتي أو مصيدتي، ولا بد لي من قضمها عاجلًا أم آجلًا، بعدما جاءت بطواعية إلى فخاخي، من دون أن أنسى لحظة أنني رجل رغم ردائي الكهنوتي المبارك، إذ قال لي الأب جوزيف بعدما وضع يده على كتفي:

ـ أليس في الحب ذلك السحر والحكمة؟ تذكّر أن يسوع يبقى

ساحرًا، وعرافًا، وحكيمًا، يفتش عن نساء أورشليم، اللاتي يتهيأن لمنح أنفسهن لطهارته.

ـ بارك الرّب فيك قدوة لإخوانك الرُّهبان والرَّاهبات.

ثم اصطحبني إلى غرفته، وفتح لي قنينة نبيذ، وأخذ يداعب بأصابعه مفاتيح البيانو المغبّرة، فانطلقت أنغام وألحان حزينة. أطرق برأسه مفكرًا بعدما توقف عن العزف، ثم تنهد، متحسرًا:

ـ هل تعتقد أن الرُّهبان والرَّاهبات بحاجة إلى موسيقا؟

ثم انحنى على البيانو، وأخذ يتمتم كلمات مبهمة كأنه يجمع خيوط موسيقا تهدر في الجبال والوديان والسهول المجاورة، قائلًا:

ـ جداول من الدموع تجري في تجاعيد الكون، كلام لم يهدأ يهوذا عن ترداده على أسماع مريديه.

بين يهوذا ويسوع، بون شاسع من الروح، أحدهما في ضباب الأرض وآخر في سديم السماء، أنشأ مملكة لنفسه والآخر أنشأ مملكة للآخرين، وبينهما يكمن عذاب البشرية وآلامها، وهي تنبعث الآن من نوتاته الموسيقية، وتمتزج مع غبار مفاتيح البيانو، التي دوّنها على ورق أسمر مجعّد، وأخرجها من أدراج مكتبه، بحث عن نظارته، فوجدها معلقة على رأسه، محاولًا قراءة نوتات كان قد كتبها في لحظات خاصة، وهي ألحان وأنغام ودندنات يحاكي فيها فيفالدي.

قلت في نفسي:

ـ لماذا يذهب إلى موسيقا القرن الثامن عشر؟

ثم سرعان ما استدركت، إن سرّ هذه المحاكاة آتٍ من أن الموسيقي

الإيطالي فيفالدي دخل السلك الكهنوتي في أيام شبابه ولم ينجح في أن يكون راهبًا، فانتقل من عزف آلة إلى أخرى، وجرّب الألحان وإيقاعاتها، وطافت أنامله بين أنغام في غابة نائية تعصف بها الرياح والألحان إثر اصطدامها بالأشجار، فتتقلّب الفصول الأربعة، بينما نجح الأب جوزيف في أن يكون راهبًا، وأخفق في الموسيقا، لكن ذاكرته تختزن معنى موسيقا فيفالدي التي يشرح أبعادها:

ـ أنظر يا إسحق، موسيقا فيفالدي قصة تبدأ من فصل الصيف بنداء العصفور، يتبعه هديل الحمام وزقزقة العصافير، لينتقل إلى النسيم العليل الذي يحمل أصوات الحشرات التي تحوم حول الراعي لتوقظه من قيلولته، وينتقل بعدها إلى مخاوف الراعي التي تحققت بهطول البرَد الغزير من السماء المزمجرة لتفصل حبوب القمح عن سنابلها، فيما يبدأ صخب احتفال الفلاحين وسعادتهم بجني محاصيلهم الذهبية في الخريف، وتنتهي بالنوم العميق. ثم تخبو موسيقا الاحتفال والرقص تدريجيًا في الهواء العذب الذي يمنح المحتفلين السكينة والطمأنينة أثناء نومهم. ثم يبزغ الفجر لينطلق بوق الصيادين، معلنًا بدء رحلة الصيد ومطاردة فريستهم، لتستسلم أخيرًا بعدما أنهكتها آلام الجراح ومطاردة الكلاب. وهكذا يبدأ كل شيء من فصل الشتاء، برعشة برد في صقيع الجليد والرياح الباردة، ليستمر الجري مع التعثر بين الحين والآخر، مع اصطكاك الأسنان، في حين تبلل الأمطار الناس في الخارج، ويسيرون بحذر على الطرق الجليدية خوفًا من الانزلاق، وينهضون جريًا، خوفًا من تكسّر أسطح جليد البحيرات تحت أقدامهم، فيما يجلس الناس يتدفأون بجوار مواقد النار.

كل تلك المشاعر والأحاسيس كانت تتسلل إلى أرواحنا بين جدران الدّير، بمجرد أن نسمع الأب جوزيف يضع يده على مفتاح آلة البيانو القديم، المركون في غرفته، كلما يحلو له أن ينفض الغبار عن ألحانه. فقد أراد الأب جوزيف أن يجلب الموسيقي الإيطالي من جبال إيطاليا إلى جبال لبنان، مازجًا بين تقلبات الأرواح في المكانين، راسمًا خطواته الأولى في المراعي أيام شبابه، ومتذكرًا كيف تعلّم العزف على هذه الآلة في فترة غامضة في حياته، وراق لي أن أساله:

ـ وهل عزفت ألحانك خارج الدّير، يا أبانا؟

تأمل سؤالي، قائلًا:

ـ أجل؛ عزفت للتلاميذ العميان في حفلة خيرية لنساعدهم على تعلّم الموسيقا في مدارسهم.

ثم عرض عليّ مشاهدة النوتات الموسيقية التي حفرها على ألواح خشبية في بداية مجيئه إلى الدّير: كونشيرتو الآشوريين الضائعين في العالم.

ـ عزفتها أمام البابا عندما زارنا قبل عقدين، وطلب انضمامي إلى الكورال الرسولي في الفاتيكان.

ثم ضحك، مكمّلًا حديثه:

ـ وهل لحّنت أوبرا كاملة؟

وهنا احمرّت وجنتاه، وقال بخجل:

ـ أجل. أوبرا عشتار.

ثم أضاف بحزن:

ـ يجب أن نحتفظ بسمعة الرَّاهب لا بسمعة الموسيقي.

ومضى نحو البيانو، ضاحكًا في محاولة لتغيير الموضوع، وراح يعزف بعض ألحانه، ولمّا انتهى، قال:

ـ أيّها الأب إسحق، الموسيقا تهزم النفس مثل الشهوة، وتعانق أسرار الرّب، لكن البشر يغرقون في ثناياها وتعرّجاتها. وعندنا يفرطون في الورع، لا يستطيعون سماع الموسيقا، حتى زقزقة العصافير، لأن عقولهم تكون معلّقة مثل أجراسٍ قديمة صدئة في وكر صقر هرم، لا يرنّ إلا بكلمات التمجيد لا لأنفسهم بل للآلهة التي تحوم في المكان.

ـ أليست شهوة الموسيقا أخرجت آدم من الفردوس؟

ـ أجل الموسيقا موجودة في كل أعماق الكائنات الحيّة، ولكن مأساة آدم وحواء أنهما ظلا يستعيدان موسيقا الفردوس إلى ما لا نهاية.

ثم أضاف، متحسرًا:

ـ خير للراهب أن يهرب من جسده الموسيقي.

ـ إلى أين يهرب، يا أبانا؟

ارتسمت على وجهه علامات التجهّم، قائلًا لي:

ـ هل تعتقد أنني أستطيع أن أجيب عن جميع أسئلتك؟

ثم انتقلنا إلى تناول كؤوس النبيذ الأحمر العتيق، الآتي من عناقيد العنب في غابات الكروم المجاورة، وما يثير في ذلك، أن تشرب من أرض تعرفها، ومن أعناب لمستها يداك، فهل يبقى هذا اللون القاني،

سائلًا مُراقًا على جسد يسوع، أو دمه الذي ينزف حتى إشباع ظمأ الإنسان؟ وآذاننا مليئة بتراتيل الجوقة، تقابل وجوهنا السجادة التي حاكتها الملائكة، في ليلة واحدة، وعلّقت على الجدار من دون مسامير؛ فقد انصبَّت عليها اللعنة، لأنها علقّت جسد يسوع على صليبه.

وبدأت أقارن بين كؤوس النبيذ تلك وكأس النبيذ الذي جاءت به المضيفة ناتاشا. شتّان ما بين الاثنين، وبين المذاقين، كأننا نحن الذين نعطي للنبيذ مذاقه، من سوئنا وطيبتنا، ونعطي عمر القنينة من أعمارنا، نكهة مرارة تنبع من الأرواح التي تحوم حولها. رفعنا الأنخاب على شرف الأب جوزيف، وعلى شرف هؤلاء الكرّامين المجهولين الذين زرعوا الأعناب، وقطفوها، وعصروها، وصبّوها في القناني، وأغلقوها بالفلّين، ووضعوها في السّراديب المكيّفة كي لا تفسد؛ وحموها من الحرّ والبرد، ونسجوا الأناشيد والتراتيل والأدعية حولها، وأطلقوا عليها كرمة يسوع، وأشاعوها بين الفقراء والمساكين، فكان الخمر من ابتكاراته حتى أصبح دمه، وشرايينه تملأ القناني تلو الأخرى عبر القرون.

كانت زيارة الأب إيمانويل بمثابة تنوير لنا، نحن الرُّهبان والرَّاهبات، وهو أحد الآباء الفرنسيين المتعاطفين مع الكنيسة الآشورية، والذي ألّف كتابًا عنها بالفرنسية، احتفينا به، وأحاطه الأب جوزيف بكل رعايته وكرمه، واثنى على بحوثه عن مسيحيي المشرق. هذا الرجل الذي تحوّل إلى الرَّهبنة عندما أخفقت الثورة الفرنسية، وكان مختصًّا باللغات، وبخاصة الآشورية، ومحاضرته عن عظمة العقل الآشوري ظلت تدور في أذهاننا زمنًا طويلًا:

بدأ المحاضرة، قائلًا: لمن يحاول الكتابة في التاريخ الآشوري،

عليه أن يتفحص مليًّا جذور معاني الكلمات المتداولة في اللغات الأخرى وعلاقتها الصميمة بأصلها إذ إن كثيرًا من مفردات اللغة الآشورية القديمة قد تم حفظها في أمهات اللغات الأجنبية الحالية كالإنكليزية التي ورثت اللاتينية، بنت الإغريقية التي عاصرت الآشورية القديمة.

في لغة الآشوريين الأوائل التي نتحدث بها إلى الآن أطلقوا تسمية «زونا» للاستدلال على المنطقة والتاريخ حيث لا تاريخ بلا مكان ولكون الأبجدية الآشورية هي أساس الأبجدية الإغريقية «ألفا بيتا كاما»، ولعدم تفهم الإنكليز للمصطلح الذي ورثوه، استخدموا زون zone للدلالة على المكان.

ثم أضاف: أتى يوم على الآشوريين عندما لاقوا العذاب والاضطهاد أن نزل الرُّهبان والرَّاهبات إلى السراديب من أجل عبادة اللَّه، يتآلفون مع الكهنة والأساقفة الذين كانوا يُذبحون. كل ذلك لكي يمجّدوا اللَّه، الرَّهبنة جسد المسيح كما يؤمن الأب جوزيف. لكنه اختار أن يحقق جوهر الرَّهبنة في الهدوء والصوم والصلاة والثبات بصبر في المكان الذي اختاره. هل كُتب عليهم أن يتيهوا في العالم ويطوفوا حوله إلى الأبد؟ هل هذا جزاء من ألبس البشرية ثوب الحضارة؟

ثم مدّ بصره في القاعة، وأرسل نظراته التأملية إلى الصفوف الخلفية في جلسة الرُّهبان والرَّاهبات، قائلًا: إليكم بعض التسميات التي ترجع نشأتها إلى الشعب الآشوري ولغته العالمية، على سبيل المثال:

عرفت البشرية من خلالها معاني المجتمعات والمدن، فأخرجتها من ظلام البدائية وقادتها لتدرك المنطق في فهم قوانين الحياة، تلك التي اقتبسها أرسطو كما هي، وباسمها الآشوري في كتابه (أوركانون)

الذي يعني مدخلًا إلى القانون (آور = مدخل أو يدخل... كانون = قانون)، وهي تؤسس لمبادئ الحق والأخلاق التي تحرك الضمير الإنساني، ولم تكن موجودة في التاريخ البشري، فوضعوا أصول الحكم وأسسوا هيكل أول دولة سارت عليه البشرية منذ ذلك العهد وإلى اليوم.

(آشور بانيبال) الذي يقرأ اسمه بمعنى: آشور الذي يبني بفكره (باني = يبني... بال = باله = فكره). كانوا يجوبون كل أرجاء المعمورة يعمّرون ويلقنون البشرية معاني التحضر والتمدن، أما اليوم فهم مطاردون في المطارات والموانئ والسفارات بحثًا عن ملجأ، عن مأوى يدسون فيه رؤوسهم ويعيشون حياة بائسة، بعيدة عن حياة آبائهم.

(الأمبراطورية) وتكتب (أمبر- آتور- أيا) أي مرحلة ما بعد سقوط دولة آشور (أمبر = ما بعد، أتور = دولة أتور، أيا = هذه) إذًا تسمية (الأمبراطورية) ليست كما يشار إليها كنظام سياسيّ حاكم، كما يقال مثلًا الأمبراطورية الرومانية، بل هي مرحلة لحدث تاريخي عظيم الشأن والتأثير في تاريخ الإنسان، وهو فاصل أستعين به لفصل التاريخ البشري في مرحلة حكم الآشوريين الذين وجدوا في كل أرجاء المعمورة عما حدث للبشرية بعد نهايته.

أفريقيا: ومعناها «أها فريقا» أي هذا يفرق / يختلف كون البشرة سوداء، إذ عند استكشاف تلك القارة، وجدوا بشرة الناس سوداء، فأطلقوا وصف «هذا مختلف». الآشوريون كانوا يسمون الشيء بصيغة الوصف، ومن هنا انتشر استخدام اسم «أفريقيا»، علمًا أن ليس هناك معنى لتلك الكلمة في كل لغات العالم قاطبة إلا في اللغة الآشورية، لغة المنشأ التي قيلت فيها.

«أثينا»: ومعناها «الذين جاءوا» وبالآشورية «أثيانا» أي «القادم». وبمرور الزمن أسقط حرف الألف، إذ كانت مدينة أثينا اليونانية بمثابة المحطة والمقر للعلماء الآشوريين الذين كانوا يسافرون وللقادمين الجدد.

«أثور»: قيل الكثير عن هذه الكلمة وأسيء استخدامها وتعريفها لجهل من حاول إقحامها في تسمية سياسية وقومية، وهي غير ذلك، فشاع استخدامها خطأً في الاستدلال إلى اسم الشعب الآشوري. إن معنى «أثور» هو «المؤلف والمثقف» الذي يعتبر أول من كتب وقرأ وألّف. واستخدمت هذه الكلمة باللغة الإنكليزية ومنها جاءت كلمة author أي «مؤلف» إذ كان الشعب الآشوري أكثر شعب مثقف في العهود القديمة من حيث تقدمه الفكري المشعّ على العالم.

تسمية العرب التي جاءت من التسمية الآشورية «أرا بشتا» ورد ذكرها في أقدم خريطة للإغريق، فذكرت Arabista، وهذه أصلها من الآشورية، وتعني الأرض المتروكة أو المتصحرة ذات الطبيعة الرملية والإنسان الذي سكن هذه البيئة اتخذ اسمه منها. هذا ما دونه الآشوريون في مخطوطاتهم.

نهض الآباء الآشوريون من مقاعدهم، يحيّون الأب إيمانويل، وتقدم الأب جوزيف إلى المنصة، وضمّه إلى صدره، وقبّله على جبينه، وأهداه قلادة صليب يخصّ بها كبار الضيوف، ثم تقدم الأب شربل، راعي مكتبة الدير، وأهداه كتاب أنجيل آشوري قديم، يحتوي على شروح وتفاسير قديمة، أهدى الأب مار يوسف نسختان منها للدير، ثم خاطبه الأب جوزيف قائلًا: الآشوريون يعيشون مخاض صراعهم بين

العقل والعاطفة، فهل سيجدون طريقهم، يا تُرى في بيئة ترفض عقولهم وقلوبهم؟

وبعد انتهاء المحاضرة، تناول العشاء مع الآباء الآشوريين، وطال حديثه مع الأب شربل، ثم سألته:

ـ ألا تعتقد، يا أبانا إيمانويل، أن الغرب استحوذ على يسوع؟

كاد يغصّ بلقمته وأجابني بنبرة استفزازية:

ـ لو بقي يسوع في المشرق لظل رثّا، ومتسولًا، وهائمًا على وجهه.

وهنا تدخل الأب جوزيف، قائلًا:

ـ يسوع ملك الإنسانية سواء في الغرب أو الشرق.

فانتهزت الفرصة وقلت:

ـ الغرب قضى على تيارين إنسانيين: الماركسية والمسيحية، ما هو رأيك، يا أبانا إيمانويل؟

التفت الأب جوزيف إلى الأب إيمانويل:

ـ لإسحق آراؤه الخاصة، يا أبانا، فلتصفح عنه.

ضحك الأب إيمانويل:

ـ لا توجد لدينا محرمات في الغرب.

في تلك الأثناء، وضع الأب جوزيف خبز الشعير في الموقد الملتهب، كي ينضج، فأغرتنا رائحته، وزادت من شهيتنا أن نتناول مزيدًا من كؤوس النبيذ، مع الأرغفة وقطع الجبن والزيتون.

والتفت الأب جوزيف إلى الأب إيمانويل:

ـ الأب إسحق يطالب بعلاقة مباشرة بين الرّب والمؤمن، ما هو رأيك؟

فضحك الأب إيمانويل:

ـ لكن هذا يلغي وظائفنا جميعًا، نحن ـ العاملين ـ في الكنائس والأديرة، رهبانًا وقساوسة ومطارنة وأساقفة.

فقلت له مازحًا:

ـ وهل توجد لنا وظائف في السماء؟

فالتفت الأب إيمانويل إلى الأب جوزيف:

ـ هذا كلام فلسفي جميل انتهى منذ سنوات، وأنتم تعيدون اجتراره من جديد.

فقلت له:

ـ كنيستكم القويمة تصرّ على أننا لا نستطيع السير في الطريق المؤدي إلى الخلاص إلّا بإنارة كهنة الكنيسة.

انطلق ضاحكًا:

ـ ومن قال إنني أتفق مع كنيستنا القويمة، أيها الأب إسحق؟

تكلّم الأب جوزيف لتخفيف الجوّ المتوتر:

ـ سيقدّم إسحق أطروحته في الفاتيكان.

التفت الأب جوزيف، قائلًا:

ـ بفضلك، يا أبانا، جوزيف.

سألني الأب إيمانويل:

ـ ما هو موضوع أطروحتك؟

ـ كانت عن الرَّهبنة والتصوف، لكنني غيّرت موضوعها، فبات عن دير الأيقونات.

وهنا التفت الأب جوزيف إلى الأب إيمانويل موضحًا:

ـ إسحق أضاف إلى الدّير الرقص، والفلسفة، والرسم، والشعر، والمرأة والحب والتأمل.

ابتسم الأب إيمانويل، قائلًا:

ـ أجل، لم تكن المسيحية معارضة لكل ذلك قط.

ـ إذًا لماذا غابت المرأة عن العبادة في الغرب؟

ـ ماذا تقصد بذلك؟

ـ أقصد أن الأنثى والذكر رفيقان في الإيمان، ويكمل أحدهما الآخر، ألا ترى يا أبانا إيمانويل، أن إله الغرب بلا أم أو أخت أو رفيقة أو بنت؟ لماذا يترك المؤمنون العالم الذي يحيطهم بحنان الأم والأخت والرفيقة والبنت والعشيقة والحبيبة والصديقة؟ الآلهة عندكم رجولية، لكننا في بابل، لدينا آلهة نساء أمثال: تموز الذي ارتبط برفيقته عشتار، وزوس الذي أعطته الديانة الإغريقية زوجة ورفيقات وبنات. لماذا تبتعدون عن صورة الأنثى، القوة الإلهية العظيمة التي ذكرتها جميع الأديان؟

شرد ذهن الأب إيمانويل بعيدًا، فبادر الأب جوزيف مضيفًا:

ـ يقصد إسحق أن الأنثى هي التي كانت تبحث عن الجنة، وليس الرجل، جذبتها شجرة شهيّة، فأكلت من ثمرتها، وأعطت رجلها قطعة منها؛ فانفتحت أعيُنهما واكتشفا أنهما عاريان، فغطّيا عورتيهما بأوراق التين وصنعا لأنفسهما مآزر. أليست تلك رواية الإنسانية من الشرق؟

ثم صمت هنيهة، مضيفًا:

ـ إسحق دفع الرُّهبان والرَّاهبات إلى العمل في الحقول، والزواج، والاستغناء عن الاعترافات والتخلص من مشاعر الذنب والخطيئة.

انفرجت أسارير الأب إيمانويل، والتفت إلى الأب جوزيف:

ـ أحيي تلميذك الأب إسحق، ونحن نوجه إليه دعوة إلى فرنسا.

ـ ولكنه ذاهب إلى الفاتيكان.

ـ سيزورنا من هناك، لا ضير.

كدت أطير من الفرح بينما كان الهدوء مخيّمًا على الدّير، شعرنا بالتعب والإنهاك من النقاش والشرب والأكل، فذهب كل منا إلى النوم، والفجر يلف الدّير بضبابه الشتائي، وينفث رذاذه عبر الأشجار الخضر المحيطة بنا، فلا أرى سوى خليط من بشر وآلهة هائمين في هذا الدّير، وتائهين كأنهم غارقون في بحر شاسع، متلاطم الأمواج، في كون لانهائيّ لا قرار له. زهّادٌ وكهنةٌ يتناسخون في كل العصور والأزمان، في الأديرة والمناسك والجحور والقلّايات، يحضرون التسبيح، والقداس الإلهي، يخرجون من باب الدّير إلى البرية في نزهة روحية، مبتعدين عن أرواحهم كلّما ازداد ورعهم، وحين حَلّ الصباح، بدأ الهرج والمرج

في أرجاء الدّير، يتضرّعون إلى الرّب، وتتعالى ضربات النّاقوس بلا انقطاعٍ، يتناوب عليه الرُّهبان، يطفئون مصابيحهم الزّيتية، ويبدأون حياة يوم جديد.

في تلك الليلة، لم يكن الأب جوزيف بتلك الحيوية التي عُرف بها، إذ لم يغفر الفاتيكان له. بعد محاكمته، ظهر كفقير مدقع، فارتدى ما يشبه الأسمال، وطالت لحيته، وأصبح كالتائه في البراري، كأنه راح يبشّر بوجه جديد ليسوع بين صفوف المزارعين والرعاة والنجارين والكادحين. طغى الحزن على الرُّهبان والرَّاهبات، ببريق دموعهم، وتنهدات صدورهم، كأنهم فقدوا قائدهم في معركة تدور رحاها ليس بين جدران الدّير، بل في أرواحهم المعذبة، وهم يحفظون عن ظهر قلب كلمات الإنجيل وعباراته. جلسوا القرفصاء، على ضوء الشمعدان، يقلّبون صفحاته بأيدٍ آلية، وبصورة ببغاوية، من دون أن ينتبهوا إلى رنين كلماته، وإيقاعاتها ومعانيها؛ فهل كان الكتاب مقدسًا لولا معاناة هؤلاء الذين لا بيوت لهم سوى الأديرة والقلّايات والجحور؟

قال الأب جوزيف:

ـ لماذا أنتم حزانى عليّ، ألم يكن يسوع نجّارًا بارعًا، متقنًا لعمله، يصنع الأبواب والنّوافذ التي لا تستطيع العاصفة أن تحطّمها؟

ثم أضاف:

ـ إن يسوع إنسان قويّ، حرّ، جبّار، ثائر على الطغيان والتقاليد والنظم الفاسدة. فهل يجب أن ترحلوا عن عالمنا حتى تكتمل الحقائق عندكم؟ يسوع ليس عبارة عن كلمات فقط.

*

لم تكن معاناة الأب سامر سوى جزء من معاناة هؤلاء الرُّهبان والرَّاهبات، الذين اختاروا العيش في الجانب المظلم، ولكنه لم يكن مظلمًا إلى هذا الحد، فقد كانوا يلتقون سرًّا في أماكن الاختباء التي منحها لهم الرّب: مخازن الأكل، الحمامات، أمكنة الخلوة، صناديق الاعتراف، برج ضرب الناقوس، كلّها شهدت ملذاتهم المكبوتة، في صدورهم، ولم يجدوا منفذًا إلى تنفيسها في العلن، لأن لعنة الجسد كانت تلاحقهم في كل مكان. تذكّر الأب سامر تفاصيل حياته، بعدما كبتها في صدره سنوات طويلة، حين يتصفّح الكتاب المقدس، أو يختلي في قلّايته أو يستعيد ذكرياته، لأنه ترعرع في حضن اللّه، كما قال عنه الأب جوزيف ذات مرة، بلا أب ولا أم، تجرّع آلام ديره الأول، وهو طفل صغير، رغمًا عن أنفه، ولم يذق دفء البيت قط، ذلك اليتيم الذي عُثر عليه على عتبة كنيسة الأب مار يوسف ذات صباح مبكر، ملفوفًا بقطعة من قماط قماشي، ووجهه مغطى برذاذ الثلج، لا يحرّك سوى جفنيه، بين الحين والآخر، راميًا النتف البيض على صفحتي خديه، مكوّر الجسد من البرد، صرخت الرَّاهبات اللاتي عثرن عليه:

ـ يا له من طفل جميل، ويحمل اسم القديسين: سامر.

ربما كان ذلك الاسم واحدًا من عذاباته اللانهائية في عالم المجهول والغموض، لكنه لم يكن يعي ذلك إلا متأخرًا عندما أصبحت روحه تمس نظرات الآخرين الفضولية، وهو يتحداها بقامته الفارهة، وبعينيه الزرقاوين، اللماعتين، اللتين لا تخفيان ملمح ذكاء متخفٍ في مكان ما. كأن الرَّاهبات اللواتي عاش بينهن، كن ينتظرن نبيًّا يأتي من

سديم الكون اللامرئي، ليطمئن أرواحهن الحائرة، بين الزهد والعبث، فوجدنه على عتبة كنيستهن متروكاً، مهملًا، لا يقوى على الصراخ من الجوع. لكن ثمة من يسأل منهن، من أعطاه هذا الاسم، يا تُرى؟ ورقة صغيرة، مزخرفة بحروف مترددة، مضطربة، ومرتعشة، خُطّ عليها اسم سامر الذي ظل يدور في فلك مجهول مخيف، والسؤال الجهنمي الذي ينهال على جدران رأسه بمطرقة ثقيلة: أين هو الشخص الذي أطلق عليه هذا الاسم؟ ولماذا منحه اسمًا إذا كان ينوي التخّلي عنه؟

أدرك أن الأسماء عبارة عن منحوتات سماوية تخرج من الروح، لتأخذ شكل الأحجار المتكدسة في هذا الكون، ترددها الألسن، وتصوغ ذاكرتها من العدم، فيكون الغياب وجودًا، والاسم عنوانًا، وكل الأسماء تتحوّل رمادًا على بوابة الجنة والفردوس، تنتظر جردة حساباتها، بين إغراءات ملائكة الخير وشياطين ملائكة الشّر على الكتفين.

لا أحد يرى الملائكة سواك، يا ربّ الأرباب. هكذا ردد في نفسه.

حاول أن يسبر أغوار اسمه من دون جدوى، وأن يتنبأ بمحتوى تلك الرسالة القصيرة التي وُضعت مع جسده، ملفوفة بخرقة القماش، من دون جدوى، بعد احتراق مكتبة الدّير، وتحولت كل الأسماء والألغاز والأسرار رمادًا أسود، من دون أن تفيد محاولات الأب مار يوسف العثور عليها بين أكداس الأوراق الناجية من الحريق في خزائن الدّير. وهكذا ومنذ أيامه الأولى، ما أنفكّ يبحث عن أيّ شبه بين تفاصيل وجهه، والوجوه التي يصادفها: في الأنف، والفم، والعيون، والتجاعيد، والقوام، وأخيرًا في الروح، عبثًا، بل دفعه التمحّص الدقيق في الوجوه إلى إثارة الانتباه والغضب عند البعض. وعندما شّب عن الطوق في

قرية مركا، أدرك أن أباه كان موجودًا في مكان ما، في زاوية ما، في جحر ما، في قلّاية ما، في دير ما، في ماخور ما، على هيئة ملاك أو جنيّ، يحمل بيده راية الجحيم أو راية الجنة، أما أمه، فهي إن لم تكن امرأة عادية، فهي حواء بلا شك، تلك التي اقترفت الخطيئة، وطردت من الجنة، وكان يتخيلها ممن اختبأن وراء ثياب الرَّهبنة، لكي تبعد عنها شبهة الزنا، أو العهر، أو الفجور، فيما اختبأت الخطيئة في أعماقها مثل جمرة لا تنطفئ وتذكرّها بذلك اليوم المشؤوم، بتلك الولادة غير المرغوبة، وظل حائرًا، يبحث عن كلمتي: أبي وأمي في قواميس الحياة، من دون أن يَجرؤ يومًا على نطقهما، وكأنهما كلمات حرّمها الخالق، الذي أشرف على ولادته، وأوحى لأمه بفكرة رميه على عتبة الكنيسة، وأوحى لأبيه أن يهرب إلى مكان مجهول. لذا كان ينادي جميع الرَّاهبات بكلمة أمي، وجميع الرُّهبان بكلمة أبي، في الدّير الذي تربى فيه، وينتظر ما تقوم به هذه الكلمة أو تلك من تأثير، مترقبًا ردود أفعالهم وأفعالهن عساه يجد ذلك الألق بريقه من أعماق الأب الحقيقي أو الأم الحقيقية، وكان يصغي إلى كل واحد منهم وواحدة منهن، ويراقب كيفية تلفّظ اسمه، لعل في الرّنة والإيقاع ما يؤدي إلى اكتشاف أمه المجهولة أو أبيه المجهول.

عندما شبّ، اقتحمت مخيلته جميع احتمالات ولادته: هل حملت به إحدى راهبات الدّير، وحاولت نكرانه والتخلص منه، بإلقائه على عتبة الكنيسة، بالتواطؤ مع زميلاتها الرَّاهبات؟ هل اتفقن جميعهن على حفظ سرّ هذا الابن اللقيط؟ هل ضاجع الأب مار يوسف إحدى الرَّاهبات ونفخ بطنها؟

هكذا أصبحت الكنيسة مع تلك التساؤلات، قدره، بل دُفنت

الأسرار في حياة القديسين الآثمين، وهبط قدر من السماء مرة واحدة وإلى الأبد.

ينظر إلى وجهه في المرآة، ويتساءل:

ـ هل أشبه أبي أم أمي؟

إبن زنا، ابن خطيئة، ابن لذة، ابن كلب، ابن نطفة شهوانية عابرة قذفها أبي في أحشاء أمي، أم ابن نُفخ به من روح اللّه وألقي بقماط الخطيئة على عتبة الكنيسة؟

لكن الأب سامر شق طريقه مثل نبتة ضائعة في ظل الكنيسة، وحفظ الأناجيل الأربعة عن ظهر قلب، وسواها من الأناجيل، وانغمس في حياة شهداء المشرق، باعتبارهم رفاقه على الدرب. وعندما يئس من العثور على سرّ ولادته، قرر الرحيل عن قرية مركا، هاربًا من الخدمة العسكرية إلى حيّ الآشوريين في زحلة حيث استقبلته عائلة أم جوني بورو، العجوز الآشورية التي لجأت إلى لبنان بعد المجازر العثمانية في الحرب الأولى، وتزوجت من لبناني، وأصبحت بمثابة أمه لكنه لم يتأقلم هناك لأنه لم يرَ نهاية للتمييز المذهبي حتى في لبنان المتعدد الأديان والمذاهب، وساد وهم التسامح الذي تعلق به أهل الشرق والغرب، ولكنه خواء بخواء، لا يعرف العيش إلا سائرًا في أفلاك أخرى، لذا وجد ضالته المنشودة مع معلمه الأب جوزيف، وأسس معه دير الأيقونات بعدما يئس من طلب اللجوء إلى كندا، بل يئس من تقديم الأوراق مرة بعد أخرى، حتى ظن أن كندا لا تقبل اللقطاء أمثاله.

عندما التقاه الأب جوزيف في حيّ الآشوريين، سأله:

ــ هل تريد المجيء إلى دير الأيقونات؟

ـ أريد أن أكون بجوارك، يا أبانا المبجّل.

ـ وماذا عن قريتنا؟

ـ في مهبّ الريح، تنتظر الحراب والسيوف.

كثيرًا ما كان الأب جوزيف يدقق النظر في عيني سامر، ويتذكر ابنه:

ـ تذكرّني بابني اسكندر في عمرك الثلاثيني الآن.

ابتسم الأب سامر، قائلًا:

ـ هل تتذكر قرية مركا التي اشتهرت برجلين هما: المطران مار يوسف، والراعي البطل جوزيف؟

ضمَّه الأب جوزيف إلى صدره، مطمئنًا إياه إلى أن قرية مركا ما زالت على قيد الوجود لكنها تغيّرت. ومنذ ذلك اليوم، وجد الأب سامر أباه الروحيّ، وكفّ عن البحث عن أبيه، تنفس بملء رئتيه بصفاء، تلك الليلة، وللمرة الأولى، ارتاح من العذاب الذي طارده سنوات طويلة، ولعن هؤلاء الذين يصنّفون البشر على أساس اسم صاحب النطفة. وظل يحلم بالعودة يومًا إلى دير وكنيسة الأب مار يوسف، أقدم أديرة العالم، وموطن مولد ابراهيم، ومتخيّل قبر آدم، ترتفع في رباه قبتا النبيين هود وصالح، ومدفن ذي الكفل حزقيال النبي، ومدفن العزير، ومحطة المسيحية الأولى في المشرق.

ذُهل الأب جوزيف بمعرفة سامر بالأناجيل وتاريخ المسيحية ومذاهبها، وسرده لمقتطفات منها، مع رواية حياة الشهداء في المشرق، وقرر منذ ذلك الحين، أن يكون ساعده الأيمن، وسلّمه مفاتيح الدّير،

وائتَمنَهُ على أسراره.

لم ينم الأب سامر تلك الليلة، وترددت كلمات الأب جوزيف في رأسه، وتساءل:

ـ يا إلهي، هل حُكم عليّ أن أبقى ملتصقًا بك إلى يوم القيامة، كوني أول من لامس جسده عتبة الكنيسة، وظل مرتبطًا بها مثل الحبل السّري، بين الأم ووليدها، وصرت أرى وجهي في جميع عتبات الكنائس، مرآتي الدائمة، مثل ينبوع ماء، تلاحقني الأسئلة من دون أن أجد لها أجوبة، لا هناك، ولا هنا، تلاحقنا التهديدات: إنسوا الكنيسة النسطورية التي تركتموها في بلاد النّهرين.

ظل يستيقظ ليلًا، وهو يتمتم:

ـ يا ربّ الأرباب، لا يعرف قصتي إلا الأب جوزيف، لكنه يريد إخفاءها عنيّ.

يا إلهي، أنقذني من قصتي، من ملمس عتبة الكنيسة، من العدم، من اللاشيء، من الأب، من الأم، فالعزلة هي آخر عذابات الرّب. أيام ثقيلة تنقضي على إيقاع مشية السلحفاة، كلمات تتكرر كلّ يوم، تصدأ كما تصدأ المعادن الرديئة، وتتلعثم أثناء خروجها من الفم. يا إلهي! من أين لي تلك الكلمات الطازجة التي أرغب في استخدامها للمرة الأولى، أفضّ بكارتها، كما يفضّ الفحل بكارة أنثاه، متى تطرب أذني لإيقاعاتها ورنينها؟ متى أبتعد عن إغواء الشيطان؟ ومتى تنساب روحي مع النّهرين العظيمين اللذين قال فيهما الشاعر الآشوري: نهران تنحني لهما البحار؟ ملَلت رؤية الشمعدانات، والشموع والقداس، والتعميد،

والنّار والاعترافات، تعبت من سحق عناقيد العنب بقدميّ، بحذائي المطاطي، حاملًا ذلك العصير إلى الجرار الخضر، حتى لا يفسد، لكي تبيعه أم جوني من سكارى الحيّ، وشحاذيه، لا أريد أن أصنع النبيذ العادي، الشعبي، العابر بلا طعم، بل أريد صنع نبيذ من نوع آخر، يخلد في قاع الفم، ويحرّك جوهر الروح، يتعتّق مع الزمن، ويؤرخ له، نبيذ الملوك والأمراء، السائل المراق مع المطر، في السراديب، إلى جوار رفات العمالقة، بقفازاتهم الحريرية وعرباتهم المذهبّة.

وكثيرًا ما كان يقف أمام المرآة، ويردد:

لماذا أصبحنا على عتبة التاريخ منبوذين ومهمّشين وعاطلين، نحن ـ الآشوريين ـ، متناسين أساطيرنا، ونرتعش أثناء الدخول إلى كنائسنا، من قنبلة مختبئة في قداس المذبح، أو خلف البوابة، أو في قفص الاعترافات، أو في السرداب، أو معلقة على الصّليب الخشبي، أو في جبّة راهب، أو في اللباس الداخلي لراهبة، لا نعرف متى تكون أجسادنا أشلاءً تتعلق بالأجراس والصلبان والأبواب، وتتحوّل عناوين حمرًا في الصحافة الصفراء كما حدث في كنيسة سيدة النجاة؟ فهل هناك نجاة مع ما يحدث؟

كان الأب سامر حلقة وصل بين الآشوريين في المشرق والمغرب، بل هو من كان يعين الشباب الآشوريين الحالمين بالهجرة إلى دير الأيقونات، باعتباره محطة عبور إلى أوروبا وأميركا، ومصهرًا تلتقي فيه جميع المذاهب وليس المسيحية الآشورية، بكل نكهاتها وألوانها، من دون أن يفكروا في تاريخ دير الأيقونات ومؤسسه.

هل كُتب عليّ أن أكون جسرًا بين الشباب الآشوري وانعتاقهم؟ هل العلاج في هجرتهم أم في بقائهم في بلدهم؟ هربت مثلهم، كما يهرب المئات كل يوم، يقفون في طوابير، متذللين، صاغرين، ومبتذلين، أمام منظمات الهجرة، تلقنّهم ما تشاء من تعاليم لكي يغادروا أرض أجدادهم بالسرعة الممكنة.

كنت أتطلع في وجوه الشبان الآشوريين القادمين إلى دير الأيقونات، علّني ألتقي اسكندر، ابن الأب جوزيف، الذي حدّثني عنه، لكنني ترددت في طرح السؤال عليه، خشية جرح أحاسيسه وكبريائه. فكم من الآباء يفتقدون أبناءهم، وكم من الأبناء يفتقدون آباءهم، وبين هذه التساؤلات، أشعر بالاختناق والغرق وربما التعفن بين جدران الدّير.

*

قطعت الطّائرة أميالًا تتراكض على الشاشة المثبّتة في أعلى مقعدي، من دون أن أشعر بالزمن الذي يمّر بلمح البصر، فكرت في الغيوم من نافذة الطّائرة، وقلت في نفسي:

ـ لماذا يتسابق البشر مع الزمن من أجل بناء الكنائس والأديرة والمعابد، هل مصدر ذلك الخوف أم الإيمان؟

وجدت أن التغلب على الزمن هو ما تسعى إلى بلوغه البشرية، والإيمان يبدو مفزعًا ومرعبًا ليس لأضعف النفوس بل لأقواها وأعتاها، وما هذه الأبنية التي يقدّسونها سوى ذريعة لإشعال الحروب. كيف يكون طعم الزمن من دون هذه المعابد والكنائس والمساجد؟ لا أحد يعرف. في ديرنا، كلّ واحدٍ من هؤلاء الرُّهبان والرَّاهبات، يأوي إلى نفسه

كالحلزون، يتحصّن تحت جلده، ويتقوقع في مغارته، ويبعد الضوء عن عينيه، ملتفًا بالظلام، ومتوسلًا بالجدران، ومرتعدًا أمام شروق الشمس ومغيبها، عداد يحصي دقائق حياتنا من دون توقف، وليس غريبًا أن أغضب على الساعة المعلقة على الجدار، وأهشّم عقاربها لأهرب من تلك الدقات التي تحسب دقات القلوب.

لم يجد أيٌّ من الآباء الآشوريين أجوبة عن هذا السؤال، ومن أجل الاطمئنان، عقدوا العزم على التعلق بهويتهم، بعيدًا عن كل المذاهب، بمعتقدات أخرجوها من أعماق التاريخ، وجمعوها من أفواه العابرين والضّالين والتائهين. أسئلة مُلحّة، لا تجد إجاباتها في ثرثرات أواخر الليل مع الأب جوزيف الذي كان يغمرني بمحبته، ويتضرع إلى السماء من أجل سفري إلى روما، لكن ذلك لم يكن يمنعه من النشيج والنحيب والبكاء في غرفته. خجلت من أن أراه في اليوم التالي، لكنني بدأت أعرف ما يكمن وراءه من أسرار. لم يغب شبحه عني، رأيته عبر نافذة غرفتي، يتحاور مع شبح آخر، يتصارخ مع الأخت سيسيل، ويتهم أحدهما الآخر. دفعني الفضول إلى الاقتراب من النافذة، والإصغاء إليهما طمعًا في كشف ألغازهما وأسرارهما، يقبّل الأب جوزيف يدها، ويتلمس منها المغفرة، وهي لا تكف عن طرح الأسئلة من دون أن تجد إجابة عنها، ثمة خطب في هذا اللقاء، وأسرار يخفيها كلٌّ منهما عن الآخر، وفي نهاية المطاف، جلسا على حافة السرير، يستنجدان بالآلهة الآشورية البعيدة، ويحاولان استحضارها من العالم السفلي، بعيدًا عن تعاليم يسوع وكأنهما يحاولان ارتقاء سلالم الإيمان عن طريق ذواتهما، وليس عن طريق معتقدات تراكمت عبر التاريخ، وأصبحت أمراضًا مزمنة في جسد التاريخ. وقلت مع نفسي: لئن كان يسوع يسكن جسد

المؤمن، فإن المؤمن يسكن في فضاء اللّه.

خرج الأب جوزيف في الصباح كعادته يذرع الممر ذهابًا وإيابًا، متعكِّر المزاج، يتحاشى لقاء أحد، لكنه ابتسم لي:

ـ كيف الحال، يا أب إسحق؟

ـ كل شيء على ما يُرام، يا أبانا.

ـ متى السفر؟

في تلك اللحظة، ذهب تفكيري إلى سؤالي عن المشهد الذي رأيته بالأمس لكنني خجلت أن أدخل في صلب علاقته الحميمة مع الأخت سيسيل، لأن علاقة الرجل والمرأة أعقد من أن نتصوّر، مثل علاقة اللّه بالملائكة، كائنان لا يمكن رؤية روحيهما إلا من وراء قفص الزجاج البلوري الذي ابتدعته البشرية في مواراتها لعواطفها وأحاسيسها.

قال لي الأب جوزيف، وكأنه أحس بما كنت أفكر فيه:

ـ هل تدري أن شجرة السدر العظيمة، التي نراها كل يوم، ولا نعرف قيمتها، لا يشعر بوجودها أحد، إلا عندما تحرّك الرياح والعواصف أغصانها، وهكذا الرجل لا يهّز كيانه سوى المرأة، آنذاك يتحوّل شجرة.

ثم هّز رأسه متحسرًا:

ـ هل تعلم أين حصل بوذا على جمرة التنوير؟

ـ من شجرة السدر؟

ـ هل يمكن أن نحصل على جمرة التنوير من شجرة؟

ـ لطالما كانت الأشجار مصدر نعمة البشر ونقمتهم. وحكاياتنا يجب أن نسقيها بدموعنا كي نقوى على حفظها في قلوبنا، وكم من حكاية أضاعتها البشرية ولم تعد الأجيال تتذكرها؟

ـ لكن يا أبانا، ألا تعتقد أن المسيحية أنهت الطبيعة؟

توقف عن السير في الممر، وحدّجني بنظرات غريبة:

ـ ثمّة فيلسوف يعيش في باطنك، إما أن تستسلم له وإما أن يستسلم هو لك. لذلك سألتك عن سفرك إلى الفاتيكان، فهناك سيكون لك شأن وليس هنا في ديرنا الفقير.

ـ هذا مصدر فخر لي، يا أبانا، ولكن ملايين الآسيويين يستوحون الحياة والحكمة من الطبيعة؛ أليس كذلك؟

ربت على كتفي:

ـ لكنك كما قلت لا أحد ينتبّه إلى شجرة السدر ولا إلى حفيف الشجر ولا إلى خرير الماء ولا إلى عزيف الرياح، هل أنت معي؟

هزّ رأسه:

ـ نحن في أحشاء هذا الدّير، نجهل ما يحدث في العالم من كوارث ومآس؛ لأن الرّب أراد لنا العزلة، فأغلقنا آذاننا عن كلِّ صوتٍ آتٍ من الطبيعة، هل قرّر لنا الرّب هذه العزلة؟ ها نحن عزلنا أنفسنا في أحجار الدّير الأصمّ، وعشنا على الفقر، وأنكرنا غرائز أجسادنا حتى تعفّنت أرواحنا هنا.

ظهرت ملامح الارتباك على وجه الأب جوزيف:

ـ انظر يا أبانا إسحق، ليس في مقدوري أن أجيبك عن كل شيء،

فإنني أصغر من أن أكون عارفًا بأسرار الكون، لذا أرجو منك أن توجه أسئلتك إلى الطبيعة نفسها، علّها تجيبك، إن انشغالي هذه الأيام كما تعلم، أبعدني كثيرًا عما يجري في أذهان الناس، ولكنني سأنفذ ما تقترحه، وأستخدم صلاحياتي لكي أنقذ الرُّهبان والرَّاهبات من هذا السبات المميت، فأنت مستشاري ولك أن تقترح ما تراه ملائمًا لهؤلاء الذين خرجوا حتى عن سلطتي وأصبحوا في عهدة الرّب.

وراحت الدموع تسيل من عينيه، كأي عاشق فارق حبيبته، وهو يرسل نظراته إلى الرُّهبان والرَّاهبات الذين يتجولون، هائمين على وجوههم في أروقة الدّير، ثمّ سألني:

ـ هل تبادلت أفكارك مع الرُّهبان والرَّاهبات؟

ـ أحيانًا، ولكني تحدثت مع الآباء الآشوريين، لأن من الرُّهبان والرَّاهبات من هم بمثابة النابغين العفويّين، ومنهم من أغلق رأسه عن كل فكرة جديدة، بعضهم مؤمن حقيقي وبعضهم من اهتّز إيمانه. وبين هذا وذاك يولد جنس آخر من البشر، وربما يتفوقون على أقرانهم.

التفت إليّ مذهولًا:

ـ هل تقصد إن الإيمان قد انتهى في قلوب بعضهم؟

ـ أجل، وهم على حق لأن الإيمان لا يأتي إلا مع الحرية.

احتضنني الأب جوزيف، قائلًا:

ـ هذه حالة خطيرة، إذا عمّت الدّير، فهي تنذر بأسوأ الأحوال، لم تكن المسيحية يومًا سجنًا للمؤمنين، فكيف ينتهون إلى هذه الهاوية؟ وهل لهذه الآلهة أفواه ولا تنطق، وعيون لا ترى، وآذان لا تسمع؟

ـ يا أبانا جوزيف، إنهم يثقون بك، ويؤمنون بكلامك، يجب أن تقنعهم بسلوك طريق آخر إلى الرّب، وهؤلاء البلهاء المساكين لا يعرفون سوى طريق واحد، مسدود الأفق. دعنا نوقظ عقولهم من سبات القرون السالفة، فالإيمان وحده لا يكفي، وقطرة المطر الخفيفة لا تطفئ ظمأ الأعوام، دعهم يخرجون من شرانق العزلة والفقر والبتولية إلى السماء المفتوحة، إلى الثمار الطيبة، ذات المذاقات اللذيذة، لا أن يدوروا حول أنفسهم مثل بهائم الطواحين. وربما سألتك: هل يرضي الرّب أن يراهم كسالى في الوادي الخصيب، نائمين تحت الأشجار المثمرة، ولا يقطفون منها، بل ينتظرون سقوطها في أفواههم المفتوحة؟ هلّا فكّرت معي في مصيرهم؟

تأوه الأب جوزيف، ومدّ بصره بعيدًا إلى السماء، متحسرًا:

ـ أتفق معك، لا شفاء لهم إلا بالعمل والجدّ والزراعة والسقي والحب والزواج كما كان فعل آلهة آشور. هل تعتقد أن آشور كانت أرضًا خصبة، صالحة للزراعة؟ أبدًا، المهندسون هم الذين حرّفوا النّهر وجاءوا به إلى السهل الجاف، ومن هنا بدأ الازدهار، أما نحن في دير الأيقونات، فنملك كل شيء، الأرض والمطر والسواعد القوية، ولكننا لا نملك الإرادة. قل لي بربك، لماذا هاجر الآباء الآشوريون وشيدوا هذا الدّير، ألم يقصدوا بذلك، المحافظة على مذهبهم في المسيحية الذي كان يتهدده الفاتيكان في حربه الطويلة ضد معتقداتهم؟

وراح يلتفت يمنة ويسرة، ويذرع الممرات جيئة وذهابًا، كأنه يحاول حلّ معضلة عويصة، يضرب الأخماس بالأسداس، ويتخطى دوره كراهب يتحدى الرياح العاصفة، التي لم ينحنِ لها قط، ولطالما

حذّر الرُّهبان والرَّاهبات من دفن رؤوسهم تحت جلودهم، وخنق رغباتهم باسم الرّب، من أجل ألا تخور عزائمهم في وجه جبروت الطغيان.

ثم قلت له:

ـ ألا ترى، يا أبانا، أن أغلب الرُّهبان والرَّاهبات لا يعرفون سوى ترداد ما تقوله لهم، وهم لا يكفّون عن تزيين الدّير بالأيقونات، كأنهم يعيشون في متحف، خائفين، ومذعورين من الديكورات التي صنعتها أيديهم من أجل فكرة واحدة وهي تجسيد الآلهة فوق رؤوسنا؟

هزّ رأسه بالإيجاب:

ـ أيّها الأب جوزيف، تأمّل جيدًا...كيف يكون الجسد بيت آثام وخطايا وذنوب، إن للإنسان جسدًا واحدًا يحيا في زمن معين، يولد ويكبر ويشيخ ويموت، فهل من الحكمة الربّانية أن نمقته ونكرهه، في جثة هامدة قبل أن يموت، وندفنه في حفرة ظلماء، وباردة وهو حيّ؟

هز رأسه ورمقني بنظرة تساؤل عنيفة:

ـ ألا تزال معتقداتنا عبارة عن أصنام وأوثان شبيهة باللات والعزى وهبل وتماثيل الملوك والرؤوس الجوفاء المنتشرة في السّاحات.

اغرورقت عيناه بالدموع، وهو يرفع يديه إلى السماء، فقلت له:

ـ متى سننزع عن جلودنا عقدة الآثام التي تطاردنا في كل مكان، لقد حوّل الغرب يسوع أسطورة، ودوّنها مثلما دوّن أساطير بوذا وكرشنا وميثرا وأوزوريس وبعل بابلى وغيرهم... وجعلوا منه إلهًا، وامتدادًا للآلهة الوثنية؟ أليس كذلك؟

ثم تنهد، متحسّرًا، وهو يلوي رقبته يمنةً ويسرةً، كأنه يبحث عن

شيء، ثم قال بحزم، متألمًا:

ـ لم أتحدث يومًا عن آثام الجسد، وهي فكرة مختلفة، نبتت بعد ولادة يسوع، وأصبحت عرفًا سائدًا. ألسنا نحن، من أسبغ على يسوع صفات الإله، وألبسناه ثوب المعجزات، ووزعنا حوله الأعاجيب، واستنسخناه آلاف المرات، ووضعنا له علامة تجارية؟

ـ هل فكرت بالإله البابلي تموز.

ضحك، قائلًا:

ـ أو دموزي!

ـ استعار يسوع منه ومن الآخرين، وأصبح مزيجًا منهم، ثمّ أسبغ المؤمنون عليه ما شاءوا من حكايات وأساطير... وما برح كل جيل يراكم عليها ما في وسع مخيّلته، ويستورثها جيلًا بعد جيل، وهكذا دواليك، ونحن لا نستطيع إزالة ما علق في أذهانهم، لأنّ البشرية ظلت قرونًا طويلة، لا تعرف ماذا تعبد، ثمّ انتهى بها الأمر إلى الآلهة الحالية؛ حتى وضع يسوع نهاية للوثنية حسبما تقول الأناجيل، في حين أن قصة تموز أو دموزي تسير متوازية مع الأناجيل إلى أن يتعرف إلى عشتار، وبعد ذلك تَقتُلُ تموز الأرواح الشريرة أو الخنازير بعد الهرب من الموت ثلاث مرات، ويحبس في العالم السفلى حيث الجحيم. وتجلس عشتار والنساء حوله ينتحبن على تموز الإله الذي مات... ألا يذكرك هذا المشهد بالمريميات اللاتي جلسن عند قبر يسوع ينتحبن عليه؟ هل تتذكر كيف خرج تموز وعشتار من الجحيم إلى الحياة مرة أخرى وصعدا معًا إلى السماء، وانتصر تموز على قوى الظلام، وصعد ظافرًا إلى حياة جديدة. ألا ترى كيف تتشابه حياة يسوع مع هذه الأسطورة؟

حتى شكل الصّليب مستعار من رمز الإله تموز، يرجع أصله إلى أرض الكلدانيين القديمة التي كانت تستخدم رمزًا لاسم الإله تموز بالحرف (T) السّري.

هز رأسه، قائلًا:

ـ أنت تشغل نفسك كثيرًا بقراءة الكتب، لم أرَ شخصًا مسلمًا قرأ تراثنا الآشوري مثلك، يا إسحق؟

ثم أخذ يقهقه:

ـ أنت أصبحت آشوريًا أكثر منا، يا رجل.

ـ هل ما قلته لي جزء من أطروحتك التي تعدّها للفاتيكان؟

ـ كانت جزءًا من أطروحتي السابقة، ولكنني قررت أن أركز أطروحتي على حياتنا كغرباء على مرّ التاريخ، واتخذت من هموم دير الأيقونات مادة لأطروحتي، وقلت في نفسي: من الأفضل أن أتكلم عن الأحياء وأنسى الموتى قليلًا.

ـ أنت مصيب فهدف جميع النظريات هو خدمة الإنسان.

ـ أعتقد أن الرّب لا يزال يسمعنا.

بعد تلك الحوارات، تغيّرت علاقتنا، وأصبحنا لا نتفارق أبدًا، وفي كل ليلة تتكرر لقاءاتنا، وكنا نذهب إلى الأب شربل، ونستعير الكتب والمخطوطات من المكتبة، لنقرأ حتى ساعة متقدمة من الليل، ولا أحد يعبأ بنا، أو يسأل عنا. كنا نتمتع بقراءة الكتب، ونناقش ما جاء فيها حتى انبلاج الفجر، ذلك المزيج من شعاع فضيّ، بحروف الكلمات الشاحبة إلى أن تسطع الشمس عليها، فيزداد نورها ألقًا وشعاعًا، ونحن

نسكر بالمعرفة الآشورية في بطون الكتب. نسينا أنفسنا كرهبانٍ في الدّير وتذكّرنا أنني رسّام وهو موسيقيّ. لكننا في غمرة الإيمان والرَّهبنة، نسينا أننا ننتمي إلى الرّسم والموسيقا، جوهر إبداعنا الذي أهملناه، لأنهما عالمان مخيفان، نرى فيهما ذواتنا أكثر صفاءً من الرَّهبنة. ولم يكن الدّير سوى قوقعة التجأنا إليها، خوفًا من طرح الأسئلة على أنفسنا.

وفي تلك الليلة، اقتنع الأب جوزيف أن يُخرج البيانو من غبار غرفته، ويضعه تحت شجرة السدر الوارفة الأغصان، واقفًا وقفة عازف محترف، بعدما نزع جبته السوداء الطويلة وطرحها جانبًا، وفتح أزرار قميصه، وهزّ رأسه يمينًا وشمالًا من شدة ضغط الياقة على رقبته، ورفع أكمامه إلى الأعلى، ثمّ ألقى نظرة على الرُّهبان والرَّاهبات الذين تجمّعوا في الساحة، ينصتون بكلِّ خشوعٍ إلى ما يعزفه في تلك الليلة. فصرخ بهم، ملوّحًا بيده: لا تخشعوا إنها ليست موسيقا الكنيسة.

كان شامخًا على المسرح، يعزف مثل فيفالدي الذي عزف في كاتدرائية القديس مرقص، كونشرتو الفصول الأربعة، وحملت الرياح ألحانه. بدأ بالربيع والصيف والخريف والشتاء، وانبعثت أصوات تلك الفصول، ونحن نستمع إلى عزفه الخلّاب، لا تقطعه سوى أصواتٍ تهبُّ من الوادي المجاور: نُباحُ كلاب الرعاة، وصدح الطيور، وخرير المياه، وتكسّر الثلوج تحت الزّلاجات، وتشقّق الأعواد في نيران اشتعالها، مما جعل الإصغاء إلى العزف يتضاعف حتى أغلق الرُّهبان والرَّاهبات عيونهم، سارحين في عالم الأنغام، وأرواحهم تحلق مثل طيور بيض في سماء الدّير، وتحاول أن تغادر إلى أرض آشور، وتعانق أرض الأجداد.

انتزعتهم هذه الموسيقا كما انتزعت الأب جوزيف من قبضة عالمهم إلى عوالم أخرى، مثلما انتزع الربو فيفالدي من لباس الرَّاهب، فاختلطت مشاعري في رؤية هذا الرجل، فكانت ألحانه في تلك الليلة ثورة على أناشيد القدّاس الرتيبة، والفرق هنا واضح بين نشوة النبيذ الذي نشربه في الحانة، وذاك الذي نشربه في رحاب الدير.

ثم أفاقوا من إغفاءتهم بعد انتهائه من العزف، وراحوا يتجمهرون حوله، وقد نزعوا عن رؤوسهم القلنسوات، وراحوا يطوقونه بأذرعهم، في مشهد لا يشبه قوانين انضباط القدّاس، وهو يرفع يديه، كأنه يريد احتضانهم، فاغرورقت عيناه بالدموع وهو يخاطبهم:

ـ ليبارك يسوع الموسيقا التي تجري في شراييكم.

شددت على يده، وقلت له:

ـ إن براعتك في العزف لا يعادلها سوى إيمانك بيسوع.

ذهبت إلى غرفتي، وقد كبر الأب جوزيف في نظري وأصبح أكبر من راهب، نظرت في المرآة وكأنني أراه أمامي وأخاطبه وهو يبدي قلقه على مصيري بعد رحيلي الوشيك من الدّير. وكأنني أخاطبه: لا تقلق عليّ، يا صديقي العزيز، يا مغني التروبادور الجوّال الذي لا يمّل من الإنشاد، أيّها الموسيقيّ الذي تصغي إلى ألحانك الآلهة منذ زمنٍ طويلٍ، وهي تطوف على القرى النائية، وتتسرّب إلى جذور الأشجار.

أيّها الرَّاهب المتمرّد، أنت لم تخرق تعاليم الرّب كما اتهموك قياصرة الفاتيكان، بل تتلذذ بكلمات الرّب، مع أنغام الموسيقا، وتجعلها سراجًا منيرًا في طريق مظلمة، وأنت تردد: لا تحزنوا، يسوع معكم، يحمل فأسًا ومعولًا ومسحاةً! أطلب منك الآن أيّها الأب جوزيف أن

تقول لهم: أخرجوا أيّها الرُّهبان والرَّاهبات ولطخوا أيديكم وأرجلكم بالطين، إبحثوا في الأرض عن البذور الربانية وأخرجوها إلى السطح، وقوموا بزرعها؛ فهي البركة والنعمة، وهي التي تمّد عروقكم بالماء والهواء، ألا يكفي أن تنتظروا ما يؤتى به إليكم من الخبز والزيتون والزيت والعسل، وأنتم مشغولون بالعبادة؟ ألا تعلمون أن العمل عبادة، وكرامتكم تكمن في قطرات العرق التي تتصبب من جباهكم، وليس رغيف الخبز الذي تلوكونه بعرق الإهانة؟ يجب أن تفكروا في البرزخ المخيف بين الفردوس والجحيم، لا يوجد لون أبيض ولون أسود، بل هناك ألوان متدرجة لا تراها أبصاركم للوهلة الأولى، لكنها موجودة، ومتى ما اكتشفتموها ستدركون أن الحياة تكمن في هذا التدرج، بين الشك واليقين، بين الإيمان والشك، بين المطلق والنسبي...

لا تأكلوا خبزًا من كدح غيركم. لماذا ننتظر أن يتصدّق إخوتنا علينا بالخبز والنبيذ والأرز والخضروات واللحوم والثمار؟ لماذا لا نُبدعها نحن، وهي مدفونة في جوف أرضنا؟ أليست لكم أيدٍ وسواعد؟ أما ترون هكتارات الأراضي التي تبرّع بها أبونا الياس لديركم؟ لماذا تركتم الأعشاب الضارة تنبت فيها، والغبار يتكدّس على أشجارها؟ ألم تفكروا في تذوّق الخبز الذي تصنعه أيديكم؟ اذهبوا واحرثوا تلك الأراضي وازرعوها، لا أن تذهبوا إلى مناسككم وعباداتكم، لكي تكفوا عن العيش على كدّ وعرق غيركم. ولتكن لكل منكم قطعة أرض يعتز بتحويلها بستان زيتون أو كرومًا، أو مزرعة عدس... وتفننوا في زراعتها، حتى تصبح الأرض الرمادية خضراء.

إنني أنير بصيرتكم كما أنار الرّب بصيرتي ذات ليلة مظلمة؛ رأيت الأنوار في كل مكان: في الزوايا، في النوافذ، في الأبواب، في الكوى

وفي الثقوب الصغيرة. هيا اشربوا هذا النبيذ المقدس، وفكّروا من أين يأتي؟ فكّروا جيدًا في عناقيد العنب، التي زرعها إخوة لكم، خرجوا في البرد القارس، حرثوا الأرض، زرعوا، ثمّ قطفوا العنب وعصروه وخمّروه في البراميل الخشبية، وبعثوا الدفء في السراديب، وحافظوا عليه لكي تشربوه... وها هي الشمس تبرق في كؤوسكم، وتنير وجوهكم، حيث يسري النبيذ في شراييكم. ولكن في المرّة المقبلة التي نجتمع بها في هذا المكان، أريد أن نشرب نبيذكم أنتم؛ وحينئذ يباركُكم الرّب، ويحوّل نهر الماء نبيذًا. ليبارك الرّب سواعدكم.

كان المنظر رائعًا في الصباح، إذ انتشر الرُّهبان في الحقول المحيطة بالدّير، نزعوا الثياب السود القاتمة، ولبسوا ثيابهم الأليفة، وأيديهم ملطخة بالتّراب، وفي المساء عادوا من الحقول، وقد وضع كل راهبٍ إكليلًا من الشوك فوق رأس رفيقته الرَّاهبة، في إشارة إلى خاتم الزّواج. لا أدري هل كانت هذه طقوسًا آشورية قديمة أم أنّها من بنات خيالهم. ولم تمض غير أيام معدودةٍ حتى بدأ الأب جوزيف يتلو مراسم الزّواج في الكنيسة بين الرُّهبان والرَّاهبات؛ وكانت دموع الفرح تتلألأ في عيونهم، وهم ينشدون ويرقصون ويمرحون. وبعد عام، تراصّت الطاولات أمام باحة الكنيسة، وبدت عليها الأوعية والصحونُ المليئة بالفواكه والخضروات ولحوم البقر والخنزير البريّ، والنبيذ.

وقفتُ بذهولٍ أمام هذه اللوحة. مشهدٌ إلهيٌّ، لا يمكن رسمه إلا بأصابع من نورٍ، وفرشاة، خيوطها من ذهبٍ، أجسادٌ تخلّصت من خمولها وكسلها، فما كان عليّ إلا أن أمزج فرشاتي بحوض الشمس، وأنتقي الألوان، من التّراب والحجر، وأخلطها بالعسل والحليب والنبيذ، وأستخرج منها الألوان، لكي أقوم بجولة تائهة في تعاريج قماشة اللوحة، التي نسجتها لي أيدي الرَّاهبات من بقايا الخرق التي

كان الرُّهبان يتخلون عنها، من أرديتهم البالية. أنت، يا سيدي، خالق هذه اللوحة العملاقة التي تحكي قصة تحوّل هؤلاء الرُّهبان والرَّاهبات من الظلمات إلى النّور، قوّة الفنّ، تلك الرّعشة، التي شق بها الخالق السماوات، وبعثر الألوان فيها، وما جهودنا إلا السعي وراء جمعها من الكون من جديد.

*

كاهن الكتب، الأب شربل، هكذا أطلق عليه الأب جوزيف، مهووس بإدارة مكتبة الدّير منذ سنوات، لا ينام في غرفته، قلّايته، إلا قليلًا، لأنه تعوَّد أن يبقى ساهرًا بين الكتب إلى ساعة متقدمة من اللَّيل. غادر الموصل إثر احتراق مكتبة كاتدرائيتها، ورائحة احتراق الكتب تصعد إلى منخاريه وتُجعّد ملامح وجهه، غضبًا، ولو أتيحت له الفرصة أن يعثر على الفاعل لأكله وهو حيّ. يستيقظ على أشباح الكتب والمخطوطات، وعندما يدهمه ذلك المنظر، يصرخ كالمجنون: ولا يردد سوى كلمة واحدة: برابرة... هولاكو... برابرة...

وعلى إثر ذلك، كتب إلى الأب جوزيف يطلب منه الهجرة إلى دير الأيقونات، وأرسل إليه تقريرًا يصف فيه الكتب والمخطوطات والوثائق النادرة التي احترقت منذ العهد العباسي: مساجلات ومناظرات غنية في عهد البطريرك طيمثاوس مع خلفاء بني العباس. أجل يا أبانا جوزيف، وهو يتمتم: إنه الملقب برائد الحوار الإسلامي – المسيحي، ومنها مع المهدي والرشيد والمأمون وإرشاداته لحل معضلة العلويين في نزاعهم مع الهاشميين، والعلاقة الحسنة بين الكنيسة

والخلفاء العباسيين، وبخاصة المأمون الذي كرر هو وحاشيته زياراته لأديرة الموصل، وصادف العيد الكبير وبقي خمسة عشر يومًا هناك، وأمر بإعادة إعمار الدّير. احترقت مخطوطة أخبار بطاركة الشرق، ابن العبري والرهاوي المجهول، ووثيقة مهمة للسلطان عبد الحميد يقرّ بسلطة بطريرك الكلدان ونفوذه.

عندما اطّلع الأب جوزيف على رسالة الأب شربل، أصابه الغمّ والحزن، وشعر بأن جزءًا من تاريخ مدينته ذهب مع الكتب المحترقة لن يعود، فبعث برسالةٍ يطلب من الأب شربل القدوم إلى دير الأيقونات، وحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه من تلك الكتب والمخطوطات بترميم بعضها، وهنا طلب منه أن يؤسس مكتبة دير الأيقونات التي زخرت بأمهات الكتب. وواصل الأب شربل تطوير هذه المكتبة، طالبًا من دور النشر اللبنانية والعربية والغربية أن تتبرع بنسخة واحدة من كتبها، حتى أخذت العائلات تهدي مكتبات ذويها المتوفين إليها، وانهمك بترميم الكتب والمخطوطات، وتجليدها، بل والطلب من الرُّهبان والرَّاهبات أن يقرأوا الكتب، ويحفظوا مقاطع من الأسفار المُقدسة، والصلاة الربانية وأكبر عدد من المزامير، وفرض على المُبتدئ أن يتعلَّم «الأبجدية النُّسْكية» أي الفضائِل والجِهادات الرُّهبانية. أمَّا ساعات الفراغ، فكان من الضروري أن يشغِلها الرَّاهب بالقراءة في الكتاب المُقدس الذي كان يُحفظ غالبًا، وكان إجباريًّا في الدّير.

تفجّر فجأة في ضحك صاخب، وهو يسرد علينا قصّة طريفة دوّنتها إحدى المخطوطات:

ـ إنها قصة طريفة. ويسكت.

ثم يسأله الرُّهبان والرَّاهبات:

ـ ما هي هذه القصة، يا أبانا شربل؟

يطلق يديه في حركات وإشارات، ويقول:

ـ طبيب الخليفة أبو جعفر المنصور، هل تعلمون من هو؟ إنه النسطوري جورجيس بن جبرائيل الذي شفى المنصور من مرض عضال بعدما فسدت معدته، وبمناسبة تكريمه، ألقى الطبيب خطبة شهيرة في حضرة الخليفة باللغتين الفارسية والعربية، فسمح له بشرب الخمر، وقد علم الخليفة أن طبيبه هذا سوف يغادر إلى زوجته التي شاخت وأقعدها الوهن في بلاد عيلام في عيد الميلاد، فبعث إليه المنصور بمبلغ ثلاثة آلاف دينار مع ثلاث جوارٍ روميات بصحبة سالم الخصي، ولكن جورجيس هذا ردّ الجواري إلى الخليفة قائلًا له: يا أمير المؤمنين، لا يمكن أن تكون هذه الجاريات معي في بيت واحد لأننا معشر النصارى لا نتزوج بأكثر من امرأة واحدة، وما دامت زوجتي على قيد الحياة فلا أتزوج غيرها. فتعجّب الخليفة كيف يمكن لرجل أن يرفض ثلاث جوارٍ روميات جميلات، ولو كان غيره لما تردّد في النوم معهن في سريرٍ واحدٍ؟

انفجر الرُّهبان والرَّاهبات بالضحك، وغطت بعضهن رؤوسهن في أوشحتهن خجلًا وحشمة.

ثم واصل الأب شربل، بروحه الهزلية المرحة:

ـ هناك طرفة أخرى عن هذا الطبيب، إذ سبق للخليفة أن دعاه إلى الإسلام قائلًا: أسلم وأنا أضمن لك الجنّة. ولكن الطبيب تجرأ على الرّد قائلًا: رضيت حيث آبائي في الجنّة أو في النّار. فأعجب به الخليفة

أيما إعجاب، فكرّمه وأثنى عليه. وهو يردد: آه... يا معشر النصارى، أنتم الأقرب إلينا.

كان الأب شربل يجادل الآباء الآشوريين حول أصول الرَّهبنة الأولى وحِفْظ المزامير والعهد الجديد، لأنّها أساس التّعليم في العصور المبكرة والوسطى، لكن هذا الحِفْظ لم يكُن عملًا آليًّا، بل كان جهدًا عقليًّا تأمُليًّا يبذله المتعلم.

ـ هذا صحيح، يا أبانا، أتفق معك والدليل على ذلك، كانوا يفرحون بكلمات الرّب، ويستمتعون بقراءة بُستان الرُّهبان أثناء المائدة في الأديرة.

ثم التفت إليّ: وقال:

ـ أيها الأب إسحق، صارت الأديرة خزائِن للمعرفة القديمة في العصر البيزنطي، بل كانت مسؤولة عن حِفْظ التُّراث خوفًا من الاندثار في المجاهل المظلمة.

ثم أضاف:

ـ والقديس باخوميوس نفسه، أوّل مُشرِّع رهباني، وضع قوانين لحماية الكُتُب والمكتبات، وانتشرت حُجرات النُّسَخ في الأديرة، وكان يُنظر إلى نسخ المخطوطات كواجب مُقدّس يشترك فيه الرُّهبان ورؤساء الأديرة.

قال له الأب جوزيف:

ـ وهل سمعت بالنسّاخين الرُّهبان، ومنهم: إبراهيم وهيراكس ومارالوس والقديسة ميلانا.

ـ النسّاخون مباركون، وعملهم مقدّس، ولذلك استُخدِمت صلاة خاصَّة لتبريك المنسخ «حُجرة النسخ»: «أيّها الرّب تعطّف وبارِك هذا المنسخ الذي لخُدَّامك وكلّ ما فيه، إذا قرأوا هنا أو كتبوا أي كِتابات مُقدّسة، يفهمونها وينتفعون منها».

لم يكن الأب شربل مجرد أمين مكتبة عادي، بل قارئ نهم، لا يتوقف عن القراءة ليل نهار، ويقدّم النصح لقراءة الكتب ويعين الباحثين، ولا أنسى ما قدمه إلي من مصادر أطروحتي. كما دفع بعض الرُّهبان إلى نسخ الكتب الممزّقة، وتجليدها وتزيينها، وعلّمهم ترميم الكتب. ومفاتيح الكتب كلّها في يده، ويدوّن الرُّهبان أسماءها في دفاتر وسجلات، بل أكثر من ذلك، فقد حوّل الدّير هرمًا من الحكايات والقصص، بين جدران المكتبة، ساعيًا إلى سبر أغوار الكتب فيها، وأرواح كُتّابها ومؤلفيها: يكتب ويرقّم، ويصنّف، ساهرًا الليل حتى الفجر، ويلقي بأضوائه الخافتة على صفحات الكتب، ويشتبك مع حروفها المكتوبة بخطٍّ مرتعش، ويتساءل بروح علميةٍ مرحة: هل الكتّاب والمؤلفون سحرة تحوّلوا أساقفةً وكهنةً ورهبانًا وملائكةً حُجروا في هذه الزاوية، يرددون على مسامعنا: أغمضوا أعينكم لحظة، ستشاهدون يسوع في حروف الكتب على رفوف المكتبة!

لا توجد عزلةٌ مع الكتب. هكذا يردد الأب شربل، بل إن عزلة الرَّاهب في قلّايته، ومن دون هذه الكتب لا يرى أبعد من أرنبة أنفه، هؤلاء التعساء الذين يشيخون، لا يعرف الواحد منهم ماذا يفعل بوقته، وبحياته، فقد ينشغلُ الموظّف المتقاعد بأمور عائلته، أما الرَّاهب، فيخرج من غرفته للصلاة ولتناول الطعام، والعودة إلى قلّايته للنّوم على أمل أن يمرّ طيف يسوع في أحلامه، وكان من الممكن أن يراه

في بطون الكتب لو استمر في القراءة، ولم يكن يتردد في قول ذلك للرُّهبان والرَّاهبات الشابات من أجل أن يدفعهم إلى القراءة والاطلاع ويبقي عقولهم يقظة، ومنفتحة. هذه الكتب التي علاها الغبار لا تنتظر سوى الأيدي التي تتلقفها، والعيون التي تعيد إليها الحياة بفك شيفرة حروفها، كأن الصفحات امرأة متروكة، والأيدي تغازلها حين تقبلها.

كنت أمضي ساعات طويلة في مكتبة الدّير إلى أن أرى الأب شربل واقفًا على رأسي، وهو يردد:

ـ لا يقضي على ليالي الأرق والوساوس والكوابيس الباردة سوى القراءة؟

أرفع رأسي، وأجيبه:

ـ أنت على حق، يا أبانا شربل، أنت تعيش بين كنوزٍ لا أحد يعرف قيمتها سوى القراء.

ـ من لا يعرف قيمة الكتب لا يعرف قيمة الحياة.

هكذا ينزوي الأب شربل بين كتبه، ويدوّن في دفتره، ذي الصفحات الكبيرة، بقلمه الحبر، علامة باركر، الذي يعلّقه في جيبه الصّغير منذ كان في الموصل، مضيفًا:

ـ يا أب إسحق، لا ندري ماذا يحدث في الدّير لو غادرنا الأب جوزيف، لا ندري إلى أين تأخذنا الرّياح، ألا ترى أن سفينتنا ستغرق من دون ربّان. لماذا عزف الرُّهبان والرَّاهبات عن القراءة.

الأب شربل شأنه شأن الآباء الآشوريين الآخرين لم يعرف سوى حياة الدّير، منذ رحيل أبيه. في الخامسة من عمره، ترمّلت أمه، ورفضه

زوجها الجديد، ووضعه في الدّير رغم إرادته وإرادة أمه، التي لم تكف عن البكاء عليه ليل نهار، وكانت تقطع أكثر من مئتي كيلومتر كي تزوره وتحمل إليه الطعام والفواكه، وبسبب ذلك لم يعرف مقاعد المدرسة، وكل ما تعلّمه كان في الدّير، ولم يكتفِ بإطاعة الرَّاهب طاعة عمياء.

ـ هل تعلم، يا أبانا إسحق «إن لفي الكتاب سحرًا كما في الماء». كثيرًا ما أحلم بالحروف تتموّج على بحر أزرق، إنني أقرأ الكتب على سطح البحر.

ـ جميل، يا أبانا شربل، خيالك جميل.

ـ وأنت أجمل، يا أبانا إسحق.

يصمت فترةً قصيرة، وينظر في الفراغ كأنه يقرأ حروفًا ضائعة فيه، ويتحسّر:

ـ هل تعلم أن كنيستنا تشرذمت، بعد الغزو الأميركي لبلادنا إلى أثني عشر فرعًا: معمدانية وإنجيلية ولوثرية ومورمون وشهود يهوه، حتى الكهنة تغيروا وباتوا يهتمون بالمال والمناصب، فما جدوى المسيحية التي نراهن عليها في دير الأيقونات، لسنا سوى حلقة الآباء الآشوريين المجانين خارج بلاد الرّافدين.

ـ ماذا عسانا نفعل، يا أبانا شربل؟

ـ أعرف أن الحلّ هو عدم هجرة الآشوريين من بلاد الرّافدين، وتركها للمتطرفين.

ـ أنت ترى كيف يقتلون العلماء والأطباء والأكاديميين والطيارين، ويحرقون المكتبات ويخطفون الرُّهبان، ويهدمون الكنائس.

كان الأب شربل قد زار العراق، وعاد بذكريات أليمة، تنبعث في كل مكان، قال عنه المقربون إنه ملّ من حياة الدّير، ويرغب في العودة إلى بلاد آشور، لأن روح المكان استولت عليه مثل أطياف سحر اعتملت في أعماقه، وجعلت لياليه كوابيس فظيعة، هل تريد أية مساعدة؟ أبدًا. كان يردد: لا أحد يساعدك في مصيرك. أنت في وجه الأمواج الهائجة وحيدًا، والرَّاهب تخلى عنه الجميع، حتى الرّب. تلك كانت المشاعر والأحاسيس التي تدهمه، ولا يستطيع التحرر منها. كان يبدو أن حالته تلك لم يكن لها أن تستمر هكذا، رأسه معبأ بالكتب، وانشطرت حياته إلى نصفين: نصف محكوم بالكتب، ونصف آخر محكوم بالحياة اليومية. وما بينهما يكمن ذلك العذاب، التناقض الصارخ بين حياتين.

لم تمضِ أيام حتى صحونا على هياج وصخب في الدّير، تجمّع الرُّهبان والرَّاهبات، أمام المكتبة، يصرخون، غاضبين: جريمة، جريمة، جريمة... كان الأب شربل مطعونًا بسكين في ظهره، وممددًا على الأرض، مخضبًا بدمائه، حتى آخر كتاب كان قابضًا عليه بقوة، تعبر عن شدة الألم الذي حاول في لحظاته الأخيرة كما يبدو، أن ينزلها بين سطور الكتاب. وكان الجميع يتطاول من أجل أن يقرأ الصفحتين المفتوحتين أمام عيني الأب شربل وهو يودّع عالمنا بحسرة عدم تحقيق حلمه. هرع الأب جوزيف إلى المكان، والتفت حوله الرُّهبان والرَّاهبات، وفي عيونهم شرارات الغضب، صاح بعضهم: لنستدع الشرطة... حاول الأب جوزيف تهدئتهم، وهو يدقق النظر في وجه الأب شربل، وكأنه يحاول أن يقرأ آخر كلمة ارتسمت على شفتيه، ربما يستنتج اسم القاتل الذي نطق به، أو كلمة أخيرة قالها قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. أصرّ الرُّهبان والراهبات على استدعاء رجال الشرطة، وإجراء تشريح للجثة،

لكن الأب جوزيف، قال: نحن مسيحيون لا نؤمن بتشريح الجثة، ثم أضاف:

ـ دعونا ننتظر حتى المساء علّ القاتل يأتي إلى كرسيّ الاعتراف.

سارعوا إلى تنظيف جثته، وسجّوه في سرداب الكنيسة، بعدما وضعوه في النعش، بانتظار المساء لكن أحدًا لم يأتِ إلى كرسي الاعتراف. واتكأ الأب جوزيف على المذبح، منتظرًا ظهور القاتل بين آونة وأخرى، عسى يدفعه تأنيب الضمير إلى هذا الركن المضيء من روح البشر، حيث يلاقي الإنسان ذاته للمرة الأولى. ساد أركان الدّير صمتٌ رهيبٌ، ولم يتمكن أحدٌ من التنبؤ بالقاتل، هل لا يزال يدور بيننا، ويحوم حول مكان جريمته، لكنّه بلا شك ما زال يعيش بيننا، محافظًا على هدوئه وصلاته وصمته، لأنّ لا أحد هرب، بل ظل القاتل مختفيًا تحت جبّة راهب أو راهبة؟ ولا أحد يستطيع أن يشير إليه بإصبعه.

الكل أدار برأسه، نحو السؤال السرمدي، الذي يقبض على الأرواح عادة في مثل هذه الحالات، ولكن ما الذي فعله الأب شربل لكي يُقتل، يا إلهي! سؤال بدأ يحوم فوق الرؤوس ويختلط بأسئلة أخرى، فهو لم يؤذِ نملة، ولم يتحدث عن أحدٍ بسوء.

كان المساء هو موعد إعطاء الأب جوزيف أوامره بتشييع الأب شربل بحسب الطقوس الآشورية، ودفنه في مقبرة الدّير. وطالب بعدم غسل جثته لأن الشخص المقتول، بحسب الطقوس الآشورية، قد اغتسل بدمه. حلّ الدم مكان الماء. كأن نقطة الدم كانت إيذانًا بانهيار دير الأيقونات بكامله.

وعلى مذبح الكنيسة، وقف الأب جوزيف، وقال بصوتٍ عالٍ:

ـ طسكا دشيغة...

رنّت الكلمات في آذانهم وفتحوا عيونهم واسعة، كأنهم يريدون استنباط كلمات منسية من معجمهم المفقود. الفردوس المفقود يبدأ بضياع الكلمات، وهذا ما كان يشعر به سكان الدّير. وكان يقصد اليوم الأول من التشييع أي غسل جثمان المنتقل بالماء الذي يباركه الكاهن بالصلاة عليه، حيث يقوم بغسله أشخاص لديهم الخبرة، سواء كان راهبًا بسيطًا أو أسقفًا أو مطرانًا أو بطريركاً. كان الآشوريون يطلقون على الميت المنتقل لأنه ينتقل من مكان إلى آخر، أثناء هذه الحالة، ثم أدوا عليه الصلاة، وودعوه على أمل اللقاء به يوم القيامة، بحضور يسوع.

ثم نطق الأب جوزيف بكلمة أخرى:

ـ «قلا داورخا»...

أي صلاة الميت. حملوه في النعش، متوجهين إلى مقبرة الدّير، يتقدمهم الأب جوزيف، لتأدية صلاة «قلا داورخا» حيث يخرج الجميع بمراسم مهيبة، متوجهين بالنعش ليوارى التراب. سجّوا جثمانه بوضع الاستلقاء على الظهر وتوجيه الرأس نحو الغرب، تحسبًا لحالة نهوضه، إذ يجب أن يكون وجهه متجهًا نحو الشرق، نزولًا عند المعتقد الآشوري القائل إن يسوع، سيعود عند قدومه من الشرق مثلما صعد من جبل الزيتون. آه! منك يا جبل، زيتون! هكذا قال الأب جوزيف ولم نكن نعرف ماذا كان يقصد بتلك الحسرة؟ ثم أهالوا التراب على النعش الخشبي الصقيل، فأصدر التراب صوتًا يشبه سقوط المطر. بعدما غطى التراب كل جزء ظاهر من النعش، قرأ عليه الأب جوزيف التسبيح باعتباره اختفى عن وجه الأرض:

ـ أنت من تراب وإليه تعود، والأسرار المقدسة التي قبلتها هي التي تغفر لك، وتبيض وجهك يوم القيامة.

وفي اليوم التالي، ردّد الأب جوزيف في الجمعة المهيب:

ـ «طكسا دصويًا»...

اجتمع الرُّهبان والرَّاهبات في الكنيسة لأداء صلاة الرمش، طقس العزاء، مرفوقًا بالصلوات والمزامير التي تعزي الأحياء لفراق إنسان من بينهم، لأنْ مهما علا شأن الإنسان، فلا بد من أن يذوق الموت كما ذاقه العظام ورجال الكتاب المقدّس وحتى يسوع نفسه.

ثم اختتم الأب جوزيف الطقس بقراءة التبريكات:

ـ ندعو اللّه أن يهب العزاء لذوي المنتقل، ويبارك من جاءوا للتعزية به.

في اليوم الثالث، حلّت خاتمة مظاهر الحزن، متزامنة مع ختام القدّاس على روح المنتقل، وذكر اسمه، ومعاني قيامة الأموات المقدّسة.

ثم تناولوا الفطور في قاعة الكنيسة، والكلّ يردد:

ـ وداعًا أيّها الأب شربل، ليتغمدك يسوع بكلمته المقدسة ورحمته الواسعة.

كان الرُّهبان والرَّاهبات يسيرون متفرقين، أثناء خروجهم من الكنيسة، اثنين اثنين، في توتر وقلق، يتصرفون كأن أحدهم لا يعرف الآخر، ترتعد فرائصهم من وقوع ضحية مقبلة، ربما لن يكتفي الغادر بقتل الأب شربل!

كان بعضهم يركع، متضرعًا أمام الصّليب، لا يفارقه، مرددًا: يا مريم المباركة، يا أم الإله، لا تتركينا في هواجس الجريمة والقتل.

كانوا يتساءلون بوجوه متجهّمة، وقلوب حزينة، وعيون دامعة، لماذا قُتل الأب شربل؟

جاء رجال الشرطة إلى الدّير، أول مرة، من دون أن نعلم من الذي أخبرهم بالحادث، وقد تعجب ضابطهم، مخاطبًا الأب جوزيف:

ـ كيف يمكن أن تعيشوا هنا على أرض لبنان من دون إقامات رسمية؟

لم يرتبك الأب جوزيف من هذا الاستجواب، بل أجابه:

ـ يا حضرة الضابط، نحن نعيش في أرض نعتقد أنها امتداد لأرض آشور الواسعة، ثم إن الرُّهبان والرَّاهبات لا يخرجون من هنا أبدًا، فماذا يصنعون بالإقامات؟

انفجر ضابط الشرطة في الضحك، واكتفى بهزّ رأسه:

ـ يبدو أنكم دولة داخل الدولة.

ثم أضاف:

ـ ومن المسؤول عن اغتيال الأب شربل هذا؟

لم تكن أية إجابة في ذهن الأب جوزف ولا في أذهاننا جميعًا. فقال الأب جوزيف:

ـ يا بني، عقابه عند الرّب.

كنت أخشى في تلك اللحظة أن يُلقى القبض علينا جميعًا، ولكن

ذلك لم يحدث، بل اكتفى بزيارة مرافق الدّير، ورحل مع رجاله.

وبمرور الأيام، تحوّل رحيل الأب شربل لغزًا من الألغاز، ولم تعد أجواء الدّير آمنة، وتعكّرت أجواؤه حتى صار الرُّهبان والرَّاهبات يتلفتون يمنة ويسرة أثناء سيرهم في الممرات كأنّهم يخشون ظهور شبح وبيده سكين يلمع في الظلام ويطعنهم في ظهورهم. ومنذ ذلك اليوم، أغلقت مكتبة الدّير أبوابها، وعلا الغبار بوابتها، المزخرفة بالرموز الآشورية، وعادت الكتب إلى مغارتها المظلمة، تنتظر من ينفض عنها الغبار ثانية.

*

لم يتبقَّ من رحلة الطيران سوى مسافة قصيرة رسمتها الشاشة المثبتة أمامي، وبدأ سهم تحرّك الطّائرة، يشير إلى العدّ العكسيّ للوصول إلى المدينة الأمبراطورية روما. كان معظم ركّاب الطّائرة يغطّون في نوم عميق، دسّوا رؤوسهم في أغطية صوفيّة دافئة، تحاشيًا لبقع ضوئية قد تشتعل في سقف الطّائرة.

ظهرت ناتاشا مثل شبح بين مصابيح الأضواء الخافتة، تذرع الممرات الكائنة بين المقاعد جيئة وذهابًا، تتمايل بين الظل والضوء، كأنها تدور على المسرح، تستعرض مفاتن جسدها، بغنج وإغراء، ألهبت قلب هذا الرَّاهب الهادئ الذي لم تكن الرَّهبنة في حياته سوى سحابة عابرة، ولطالما أبعد عن خياله تلك البتولية المقيتة التي خنقت نوازعه وغرائزه أثناء وجوده في الدّير، يؤجلها يومًا بعد آخر. ولم تكن الحرية التي منحها لنا الآباء الآشوريون سوى وهم في إطار قوانين الدّير

الصّارمة التي خلقها الرُّهبان والرَّاهبات أنفسهم. وكل واحد منا خلق سجنه الخاص، وتقوقع بين جدرانه، طوال هذه السنوات من دون خيال المرأة. إبن بلدتي، عمران في بيروت، الذي أصبح بوهيميًّا ومدمنًا، كنت أزوره بين الحين والآخر. رغم مغادرته مخيمات الفلسطينيين ظل يحتفظ ببزته العسكرية. كان يناديني، مازحًا: يا راسبوتين العظيم!

ـ يا رجل، لا تقارنّي بالعظماء.

وننفجر ضاحكين.

هل كانت ناتاشا تفكر في أنني راسبوتين حقًّا؟ نظراتها ترسّخ فكرة راسبوتين في داخلي، وهي تتضرع بأسماء الرّب المقدسة، بحركة شفتيها الشهيّتين، بعدما خطفت، بجمالها الفتّان، قلب هذا الرَّاهب الباحث عن أية أنوثة حتى لو كانت تنبعث من جارية أو ساقية أو عاهرة، رغم سعيي إلى إطفاء هذه المعركة الحامية مع جسدي، وأقول في نفسي:

ـ أيّها الأب جوزيف، لا أريد أن أزعجك بقصتي أكثر فأكثر. لا أستطيع أن أتخلى عن جسدي، وأنت تقول لي: إن التقاليد الآشورية ليست صارمة مثل التقاليد الكاثوليكية، فقد كان تسامحنا يثير نزعة الفاتيكان التسلطية، وهو يبعث منذ العام ألف وثمانمئة، إرساليات تبشيرية من روما إلى الكنيسة الآشورية القديمة «أمرا أتقتا» من أجل تغيير مذهبها، وإغراء الناس بالأموال، لكن قرانا الآشورية صمدت بوجهه، ورفضت تعليق صور يسوع على جدران كنيستنا البيضاء، بشعره الأصفر، وعينيه الزرقاوين، وصُدم الآشوريون لفقدان يسوع ملامحه الآشورية: وجهٌ أسمر، وعينان واسعتان، وشعرٌ أسود، ابن فلسطين، وابن

الرّافدين. ولم تتقبل كنيستنا لقب «أم اللّه» الذي يُطلق على مريم العذراء.

وبعد فترة صمت، قال لي:

ـ سعت الكنيستان الكاثوليكية والآشورية إلى توحيد الإيمان والطقوس في التسعينات، لكنهما فشلتا، وضُمّت الكنيسة الآشورية إلى مجلس كنائس الشرق الأوسط، ومُنحت بعثات دراسية لكهنة الكنيسة الآشورية للحصول على الشهادات العليا، واستعارة الآشوريين كنائس كاثوليكية من أجل إقامة القداديس.

لم يكن في بالي أن المسيحية تحتوي على مذاهب متناقضة مثلنا، ومخطئون من يفكرون في أنّها موحدة. لكن الأب جوزيف الذي تبحّر في قراءاته، شرح لي ذلك:

ـ وهكذا استبدّت بقياصرة الفاتيكان رغبة القضاء على الهويات الكلدانية والسريانية والآشورية، إلا أن البطريرك مار بولس الثاني شيخو، تجرأ ورفع عصاه في وجه الفاتيكان، مهددًا بضرورة وقف التدخل في شؤون الكنيسة الآشورية، فما كان منهم إلا تحضير تهمة جاهزة، غائرة في القرون، وهي الهرطقة، لكي يضعوه خارج اللعبة. وهمّشت روما العلمانيين في انتخاب البطريرك، والكنيسة الكلدانية، رغم كاثوليكيتها، تبقى شقيقة للكنائس المشرقية الأخرى، حتى التصوّف الأفلاطوني والديانات الهندية والزرادشتية مستوحاة من الآلهة الكلدانية، إلا أن الأمبراطورية الفارسية قضت على الكلدان، ثمّ أتت روما والكنائس الغربية والإسكندرية على البقية المتبقية؛ فهدمت دورهم وأحرقت معارفهم في علوم الطب، والكيمياء، والفيزياء، والرياضيات

وتفسير الظواهر الكونية، وفي الوقت الذي تعيش كنائسنا الفقر والعوز، تمتلك الكنيسة الكاثوليكية الرومانية من الأملاك والأراضي والعقارات والمزارع والمصانع في العالم ما لا يعدُ ولا يُحصى، من مزارع السكر في البرازيل والبرتغال وأرصدة هائلة في أسواق التجارة العالمية، ولم يتجرأ أحد من أتباع الكنيسة الكاثوليكية على الدخول إلى الكنيسة النسطورية الشرقية، باعتبار هذا الفعل جريمة وارتدادًا عن الإيمان، والقلة يعرفون أن مار نسطورس ليس آشوريًا، وإنما يوناني وكان أسقف أنطاكية، وأتقن السريانية والعربية واليونانية والعبرية ولغات أخرى.

قلت له:

ـ قرأت مؤخرًا أن الكنيسة الرومانية قضت على العلوم والأسرار القديمة، ودمرت مكتبات عامرة بكاملها وأغلقت الجامعات ودور العلم والطب والهندسة؛ لأنها كانت تنافسها وكانت لها نظريات وتفسيرات أخرى عن المسيحية، في رغبة من الغرب أن يفرض هيمنته على الشرق، والتعتيم على معارف الكلدانيين القديمة التي امتدت إلى الصين واليابان، عمودية وصورية، وينقشون المسلة أو جدران الأبنية بالأحرف الصورية، ومنها باب عشتار، وانصهر دم الكلداني والسومري والأكدي والبابلي والآشوري والآرامي والسرياني، وأخذوا لغات بعضهم وعاداتهم وطقوسهم وعلومهم، فمزجوها وأعطوا للبشرية هذا الكم الهائل من الحضارة التي أذهلت العالم منذ أكثر من سبعة آلاف سنة قبل الميلاد.

أجابني بعدما اتكأ على المذبح:

ـ من خلال التواضع والبحث الروحي والتأمل والصلاة، اكتسبنا

فهمًا جديدًا لبعض العقائد، لم تعد الكنيسة تؤمن بالجحيم لأنه يتعارض مع الحب اللّامتناهي للإله، فالرّب ليس قاضيًا ولكنه صديق ومحب للإنسانية. لا يسعى الرّب إلى الإدانة، وإنما إلى احتضان الإنسان، والجحيم مجرد كناية عن الروح المعزولة، التي ستتحد في نهاية المطاف، مع النفوس الأخرى، في محبته... لكن الكنيسة أبدت قساوة تجاه الحقائق التي تعتبرها خاطئة أخلاقيًّا. أما اليوم، فالرّب هو بمثابة الأب المحبّ، لا ندين أطفالنا وروادنا ومحبينا، وكنيستنا كبيرة بما يكفي لتتسع لذوي مختلف الميول، لأننا نحن جميعًا نحب الرّب نفسه ونعبده. وقد حان الوقت لأن ننظر إلى الحقيقة الدينية باعتبارها قيمًا مطلقة أو منقوشة فوق حجر، والملحدون أنفسهم يعترفون بالرّب. وعندما نحب الجمال في نفوسنا، نلمس الرّب ونعترف به. الإنجيل كتاب مقدس وجميل مثل الكتب السماوية العظيمة الأخرى، بعض أجزائها عف عليها الزمن، وبعضها الآخر غرق في التعصّب والتطرّف، وقد آن الأوان لمراجعة هذه الآيات وعدم اعتبارها نصوصًا مطلقة.

وهنا أدركت لماذا أقدم الفاتيكان على محاكمة الأب جوزيف. ولعل أولها هذه الروح الانفتاحية، وثانيها المحافظة على الهوية الآشورية حتى في بناء الهندسة القويمة للكنيسة بكل طقوسها وتفاصيلها، واستخلصها من الوثائق والمخطوطات. ومنذ بدأ في حيّ الآشوريين في زحلة القيام بالصلوات مع رفاقه الآباء الآشوريين الآخرين في منزل أحد أفراد هذه الجماعة، بسبب عمليات الاضطهاد المريرة. وحرص على بناء الكنيسة الملحقة بدير الأيقونات، في اتجاهها نحو الشرق، لأن الشرقيين يتوجهون في صلواتهم نحو الشرق على الدوام، إذ إن

الرّب يسوع سوف يظهر في مجيئه الثاني من الشرق. يوجد في باحة الكنيسة باب صغير يتميز بعتبة مرتفعة وسقف منخفض، لكي ينحني المؤمن أثناء عبوره، فيحافظ على روح التواضع. وعمل على أن تكون ساحة الكنيسة كبيرة ومكشوفة في الوقت نفسه، وعلى يمينها جهة الشرق، يوجد بيت يسمى «بيت الصلاة» تقام فيه الصلوات الفرضية والقسم الأول من القداس. أما من جهة الغرب على يسار الساحة فتوجد غرفة تسمى «بيت السهاد» أي «الساهرين»، تقام فيها صلوات ليلية. ويوجد في ساحة الكنيسة ثلاثة أبواب: باب صغير يؤدي إلى جرن «المعمودية» الرامز إلى نهر الأردن: باب يدخل منه الرجال، وباب تدخل منه النساء.

ويشير صحن الكنيسة إلى العالم الأرضي، قسم منه مخصص للرجال ويحيط به البيم ويمتد إلى أمام قدس الأقداس، وقسم آخر خلفي مخصص للنساء. والبيم هو موضع مرتفع قليلًا عن مستوى أرضية الكنيسة يجلس فيه الإكليروس خلال القداس، ويرمز إلى مدينة القدس في الأرض. يوجد على البيم منصة خشبية صغيرة، يضعون عليها الصّليب والإنجيل باتجاه الشعب لكي يسجد لها وتسمى «الجلجلة». على الجهة اليسرى من الصّليب منصة لقراءات من العهد القديم، وعلى اليسرى، منصة لقراءات من العهد الجديد. أما باب قدس الأقداس فتغلقه ستائر تفتح أثناء القيام بالذبيحة الإلهية. وفي ذلك إشارة إلى اتحاد السماء بالأرض حيث يضع الآشوريون على المذبح صليبًا دون المصلوب، يرمز إلى الانتصار. ومن أبرز الأماكن الموجودة داخل قدس الأقداس في الجدار الجنوبي، خزانة تسمى بيت الكنز توضع فيها الأواني المقدسة، وباب في الجدار الشمالي يؤدي إلى غرفة

صغيرة تُسمّى بيت دياقون أي بيت الخدمة، يعدّون فيها الخبز والخمر للقداس. ويوجد في هيكل الكنيسة، جهة الشمال، باب يؤدي إلى غرفة هي بيت الشهداء أو بيت القديسين يحتفظون فيها بذخائرهم. وقد حاول الآباء الآشوريون أن ينقلوا جزءًا من هذه المواد من بلاد الرّافدين أثناء رحيل البعض وهرب القسم الآخر. وهم يأملون بذلك في إعادة طقوس الكنيسة الآشورية في بيروت، بعدما أدركوا استحالة مواصلة طقوسها في موطنها الأصلي.

* * *

بعثت تفسيرات الأب جوزيف في نفسي حماسة كبيرة لكي أواصل طريقي رغم ترددي في بعض الأحيان، وكنت أسعى إلى فهم أكبر لهذه الشخصية التي لا تستسلم لوقائع الأمور بسهولة ويسر. ولم يكن أفضل من الأب سامر، تلميذه، لكي يشرح لي تفاصيل محاكمته:

ـ لم تكن لدينا أية شهيّة لتناول الفطور في ذلك النهار، ونحن ننتظر أمام غرفة صاحب القداسة. مضى علينا ثلاثة أيام، وقد أعطونا غرفة حقيرة، تفتقر إلى أبسط مقومات المعيشة، أشبه بزنزانة، عارية الجدران، مما جعل الأب جوزيف يغضب كثيرًا، وهو يقلّب أوراقه وكتبه من أجل التحضير للدفاع عن التهم الموجهة إليه. كان البابا غائصًا في كرسيّه، لا يظهر منه سوى رأسه الصغير، المغطى بقلنسوة حمراء كبيرة، يستند إلى مقبضي الكرسي، رافعًا رأسه ببطء مثل حلزون منهك، وقال بصوت أجش:

ـ أيّها الأب جوزيف، هكذا تخون تعاليم يسوع؟

اندفع الأب جوزيف إلى الأمام، وأظهر صوته بكل قوته:

ـ لم أفكر يومًا، يا صاحب القداسة، في خيانة تعاليم يسوع.

فانفجر البابا صارخًا:

ـ أليس ما تفعلونه في الدّير خيانة؟

ـ الظّروف التي ألمّت بدير الأيقونات، يا صاحب القداسة، كان علينا أن نفكر في أرزاق ثلاثمئة راهبٍ وراهبة.

نزل البابا من كرسيه، وهو يمسك بمقبضي الكرسي المطلي بالذهب.

ـ وماذا ينفع إذا قضيت على الروح وأشبعت البطن، ألم يمت يسوع فقيرًا، ومعزولًا وبتوليًّا؟

ـ هل نتبع خطوات يسوع أم نقلده، يا صاحب القداسة؟

ـ أتجرؤ على قول ذلك؟

ثم صرخ:

ـ هيا اخرج من هنا، لا وقت لديّ أهدره معك.

ـ دعني أشرح لك، يا صاحب القداسة.

هبّ البابا صارخًا:

ـ أنت خرّبت حياة الرُّهبان والرَّاهبات، ماذا تشرح لي، أيّها القس البائس، وأنت وضعت جميع الآثام على ظهورهم، هل تعتقد أنك ستنجو من الجحيم؟

ثم أمسك بثيابه، قائلًا:

ـ ألا تتذكر اليوم الذي جئت فيه إلى الدّير، ممزق الثياب، جائعًا، وها أنت الآن في أرفع مكانة؟

ـ كان على رهبان الدّير وراهباته أن يفكروا في ملء بطونهم.

ـ هذا كلام الشيوعيين! وماذا عن مساعدات الفاتيكان لكم؟

ـ مساعداتكم، يا صاحب القداسة، لا تكفي لعشرة أيام.

وهنا صعد البابا إلى كرسيه المذهّب، واعتلاه ثانية، واسترخى فيه، وقال بصوت هادئ:

ـ لا بد أن الشيطان تسلّل إلى روحك وأوحى لك بهذه الأفكار.

ـ لم تكن لي وسيلة أخرى سوى دفع الرُّهبان إلى زراعة الأرض التي منحها لنا الأب الراحل الياس، تغمّده اللّه برحمته الواسعة.

صرخ البابا:

ـ ولكنك حوّلت الدّير إلى مجتمع مشاعي؛ هل تدرك ذلك؟

ـ هذه شائعات.

ـ البتولية، أيّها الرَّاهب، أحد قوانين يسوع، وأنت درست ذلك، لا أتكلم مع تلميذ مبتدئ.

ـ حضرتك تعلم أن ثلاثمئة شخص أحرار في تقرير مصيرهم.

وهنا خرج البابا عن طوره:

ـ أتباع يسوع ليسوا أحرارًا إلا في عبادته!

صرخ البابا قافزًا على قدميه:

ـ كفاك غرورٌ.

ثم مّد يده إلى لحيته، كأنه يريد أن يتخذ القرار الأخير:

ـ عُد إلى الدّير وبشرهم بيسوع الذي نريده نحن، لا بيسوع الذي تريده أنت.

ـ كيف تريدني، يا صاحب القداسة، أن أبشرّهم بأفكار أخرى؟

رّن الجرس، معلنًا انتهاء المقابلة، استرخى البابا على مقعده الوثير، وكأنّ غفوة طارئة ألمّت به، فقال بصوت خافت:

ـ يمكنكما الانصراف الآن...

كان الأب جوزيف حزينًا بعد عودته من الفاتيكان، وصودف أن التقيته، لكنني حاولت تحاشي الحديث معه، ورغبت في أن أقول له: يا أبانا العزيز، لا تجعل صراعك مع قداسة البابا مباشرًا، مهما يكن من أمر.

ـ إن الفضل يعود إليك، يا أبانا إسحق، أنت من نبّهتهم إلى العمل، ونبذ الفقر، والابتعاد عن العزلة، والبتولية في هذا الدّير.

ثم استدرك:

ـ ما رأيك في قدح من الشاي الساخن؟

وبعد ذلك، مسكني من يدي، ضاغطًا عليها:

ـ يا أبانا إسحق، تركت أسرتي وبيتي في سبيل العدالة، وطفت القرى والبلدات غير آبه بما آكل أو أشرب أو ألبس، والآن أجد نفسي

وحيدًا؛ لأنني سرت على خطى يسوع. وأجدني أتساءل الآن: هل كانت خطواتي على صواب، أم أشكك في الطريق الذي سرت عليه؟ آمنت بيسوع، من دون أن أتخلى عن الشك، وقرأت الإنجيل من دون أن أتخلى عن أفكار ماركس.

قلت في نفسي: لماذا لا أدعو الأب جوزيف إلى التسكع قليلًا في بيروت لأزيل عنه كآبته، ونجحت في إقناعه، وتنكّرنا بملابس دنيوية، ونزلنا مدرجات الدّير في الظلام. وذهبنا إلى حانة «الريغيستو»، الصاخبة بالموسيقا في شارع الحمراء. نسينا للحظات أننا راهبان، بل عدنا إلى هوايتينا في الرسم والموسيقا. وطلبنا كأسين من النبيذ، كان طعمه مختلفًا ربما لأنه ليس نبيذ الكنيسة الذي تعودنا على شربه أثناء القداس الكئيب، فقلت له:

ـ ما رأيك في هذا النبيذ، يا جوزيف؟

وهنا ناديته باسمه للمرة الأولى كصديق حميم.

هزّ رأسه، وتمتم:

ـ لم يمتدح الكتابُ أرضَ فلسطين إلا لأنها أرض الخمر والزيت، والقمح والشعير والكروم والتين والرمّان والعسل. أرضٌ لا تأكل فيها خبزك بتقتير، ولا يعوزك فيها شيء.

وبعد فترة قصيرة أضاف:

ـ إذا أراد الرَّبُّ أن يبارك شعبه؛ وعده بالخمر.. وإن أراد أن يعاقبه حرمه منه.

بعد خروجنا من الحانة، سرنا عبر أزقّة ضيّقة، مليئة بأكوام النفايات، نادتنا امرأة من إحدى النوافذ، احمرّت وجنتاه خجلًا، وراح يمسح قطرات الدموع عن لحيته السوداء، المشوبة بالخيوط البيض، طالبًا المغفرة، لذلك قفلنا راجعين إلى الدّير، فأدركت أن الأب جوزيف في وضع محرج.

وفي اليوم التالي، ألقى خطبته في صفوف الرُّهبان والرَّاهبات، وهو يرمقني بنظرة:

ـ كفّوا عن كتابة آلام المسيح على الجلود، وعلى جدران الدّير، وعلى الأوراق البيض، وعلى قماشة الرسم، أو على الغيوم، بأصابعكم النحيلة الواهنة، وأنتم ترسمون إشارة يسوع في الرياح. ليست آلام يسوع حائط مبكى. كفّوا عن البحث عن المسامير والدّم في أذرعكم وأرجلكم، واقلعوا صورة ما جرى له، على مرأى ومسمع من جمهور يعيد رؤية ما سمعه منذ آلاف السنين.

املأوا رؤوسكم بأسئلة الحياة وليس بأسئلة الموت، واعلموا إن كنتم موجودين، فإن الموت غير موجود، وإن كان الموت موجودًا، فأنتم غير موجودين؛ لذلك كفّوا عن التفكير في الموت، وتهيئة أكفانكم البيض، والتفكير في الخشب الذي تُصنع منه توابيتكم، فاعلموا أن الدود سينخر أجود أنواع الخشب، حتى لو كان من الصندل والساج، ويحوّله نشارة خشب مع أجسادكم التي لا يبقى منها حتى النشارة أو الرّماد، فيلتهمها الدود كما يلتهم السُّكّر المطحون.

ثم مررنا بالمكتبة، وتذكرنا الأب شربل، الذي ظل اغتياله لغزًا غامضًا، يُضاف إلى ألغاز الكون الواسعة، ما عسانا نفعل، حياتنا كلها

ألغاز وألغاز... أليس يسوع لغزًا؟ قتلت البشرية ستة عشر إلها من أجل خلاصها والتكفير عن خطاياها، بدءًا بميثرا وكرشنا وانتهاءً بيسوع.

قلت له:

ـ هل تبقى المكتبة مغلقة بعد رحيل الأب شربل؟

ـ ننتظر أن يأتي بديل منه.

ثم غادرت حزينًا إلى غرفتي، وحلمت بأنني أرى شجرة السدر تحوّلت إلى شكل أنثى، أغصانها تحولت يدين، ورجلين، وصدرها انتفخ بثمرتين كبيرتين.

ثم جاءتني المضيّفة ناتاشا، لتبعثر غفوتي، وتطمئنني إلى حالة الوقت المتبقي من الوصول إلى روما.

ـ هل ترغب في كأس من الماء؟

في تلك اللحظة، كنت أحدّق بالغيوم عبر نافذة الطّائرة، متخيّلًا رهبانًا عراةً، يتشمّسون، لحرق الشهوة الآثمة، وأجدني أتساءل: من الذي منحهم هذه الشهوة الآثمة؟ أليس هو الرّب؟

كنت أتساءل مع نفسي: هل تعرف هذه المضيفة شيئًا عن آلام شهداء الصّليب أم أنها وضعته كزخرف على صدرها كزينة بعدما حُرمت منه في سنوات الشيوعية الحمراء؟ ثم أجبت نفسي: لو كل فرد يحمل صليبًا على صدره، يعرف آلام المسيح، لامتلأ العالم بالرُّهبان والرَّاهبات. لا شك أن هذه المضيفة الروسية قد قطعت البحار والسهول والوديان لتعثر على هذا العمل.

ما عساي أفعل بين جبّة الرَّاهب وغرائز ملتهبة، ظلت نائمة في قبو جسد يتآكل، ويشيخ، ويُصاب بالعجز؟

تخيلتها في تلك اللحظة، راكعة أمامي، بين ساقيّ، في غرفة الفندق، تعترف لي، وكلما أخبرتني بخطيئة عن حياتها، شربت كأسًا من النبيذ، وهي تبلع ريقها بكل صعوبة، حتى أصبح كلانا في حالة ظمأ، وشعرت نفسي أندسّ إلى قفص الاعتراف الخشبي، وأحكي لها ما اقترفت من ذنوب في حبس جسدي بين جدران البتولية.

أسمعها تردد:

ـ كنت أحلم أن أقدم اعترافاتي أمام راهبٍ أحبّه ويحبني، ما رأيك؟

*

كان الخبر صادمًا في الدّير... اختطاف الأب مار يوسف في الموصل!

انهمرت الدموع من عيني الأب جوزيف والأخت سيسيل عندما اطلعا على الخبر الحزين الذي نشرته الصحف البيروتية على صدر صفحاتها الأولى: مسلحون مجهولون هجموا على سيارة المطران الأب مار يوسف البالغ من العمر سبعين عامًا، بعدما أنهى صلاة «درب الصّليب» في صوم عيد القيامة في كاتدرائية الموصل، وبعد مغادرته، أمطروا سيارته بسيل من الرصاص مما تسبّب بمقتل سائقه واثنين من مرافقيه، ثم اختطفوه وألقوه في مؤخر سيارتهم، لكنه تمكن من استعمال هاتفه الخلوي، واتصل بمسؤولين من الكنيسة طالبًا منهم عدم دفع أي فدية لإطلاق سراحه لأنهم سوف يستخدمون ذلك المال لإلحاق الأذى بمزيد من النّاس. ولكن بعد مرور يوم واحد على اختطافه، عُثر على

جثته، ولم تعلن الجهة التي أقدمت على خطفه عن نفسها، ولم يُعلن عن سبب وفاته.

صرخت الأخت سيسيل:

ـ قتلة، متوحشون، متطرفون.

وتذكرت خطاب الأب مار يوسف،فعاد بها الزمن إلى ذلك اليوم المأزوم في حياتها.

ـ يا أبنائي، يا أهالي مركا، عشنا معًا في هذه القرية الصغيرة على مكارم الأخلاق، كلنا نخطئ، وسبحان من لا يخطئ. أعلم أن في عيونكم شيئًا من الحيرة والقلق والسؤال، فلا تصدّقوا الشائعات بصدد كنيستكم الآشورية، فهي كانت ولا تزال مخلصة لكم، رغم إغراءات المال والسلطة. ولتعلموا أن أختكم سيسيل طاهرة الجسد وعفيفة الروح. والرَّاهب الذي خرج من بيتها في تلك الليلة، لم يكن سوى زوجها جوزيف، وليس كما تتخيّل العقول المريضة، لأنّه تنّكر بهيئة راهبٍ، وقد أعرته بنفسي جبّتي، خشية أن تكتشفه قبيلة الباز وتغتاله، فكان في زيارة سّرية لزوجته، وهو حقٌ مشروعٌ في ديانتنا. وأرجو أن يبلغ حاضركم غائبكم بهذه الحقيقة، ولتعلموا أنّني سكتُّ طوال هذه الفترة عن مصارحتكم، خشية أن يكشف العازمون على قتله مكان اختبائه، ليكون في مأمن من الأذى، لكني حرصت أن أخبركم الحقيقة قبل أن أرحل عن هذه الدنيا، بل سجّلتها في وصيتي لكي تُذاع في حالة رحيلي المفاجئ.

تراءت صورته لها من بعيدٍ، ولولاه لما كان للأب جوزيف من أثر.

انزوى الأب جوزيف، محبطًا في غرفته، واتكأ على الكرسي، مستعيدًا ذكرياته مع الأب مار يوسف، في اليوم الذي أواه في كنيسة مركا وأنقذ حياته، ولم يخطر على بال القتلة أن جوزيف الرّاعي الشّاب الشيوعي يمكن أن يكون في الكنيسة. وردد في نفسه بسخرية: للمرة الأولى تفيدني تهمة الشيوعية. وبما أن القدر شاء أن يقود خطاه إلى هذا المكان، قرر أن يحمل الصّليب أينما رحل، مؤمنًا بأن الكنيسة هي التي أنقذت حياته، وانغمس في قراءة الإنجيل من دون أن ينسى قراءة ماركس، ولم ينس قط، ما قاله الأب مار يوسف: يسوع دائم والشيوعية زائلة.

في تلك الليلة، تلمّس جوزيف الشّاب رطوبة سرداب الكنيسة، في البرد القارس، وآفاق مذعورًا على سماع ناقوس الكنيسة في الفجر، طاردًا من رأسه كابوس ملاحقة قبيلة الباز لقتله بالفؤوس. ولم يكن يعرف أن أذنه ستتوحَّد مع ذلك الرنين طيلة حياته، يصحو وينام على أنغامه، ولم يخطر بباله أن يصبح راهبًا، ويأخذ دور الأب مار يوسف، إذ بدأ الآشوريون يتوافدون على ديره، كمحطة ميناء، قبل أن يشّدوا الرّحال إلى أميركا وكندا ونيوزيلندا وأستراليا... وأصقاع الأرض.

جاهد الأب جوزيف في الحصول على الوثائق التي تركها الأب مار يوسف من خلال حارس الكنيسة، ومن بينها مخطوط كتابه القيّم حول «رسل يسوع إلى بلاد النّهرين»، أوّل كتاب يستعيد قصة انتشار المسيحية في بلاد النّهرين وتركيا وبلاد فارس. وتألم كثيرًا عندما قرأ آخر مقابلة له، قال فيها: نحن أمام خيارين، إما الهجرة وإما الموت، حيث تُركنا لنواجه الإرهابيين بمفردنا، فهل نفقد الرجاء؟

وتمتم الأب جوزيف مع نفسه: كلّا، يا أبانا، مار يوسف، لا يفقد الإنسان الرجاء ما دام الأمل يبرق في رأسه مثل شعلة مضيئة.

ورنّت آخر كلماته في أذنه قبل أن يهجر الدّير:

ـ أيّها الإخوة والآباء في دير الأيقونات، وأنتم تؤدون الصّلاة على روح الموتى، لا بد أن تذكروا خصال هذا الرجل، ابن البطريرك الكلداني المعروف مار يوسف عمانوئيل الثاني الذي رحل عن عالمنا، وفي ضميره يعيش الألم الآشوري، وأصرّ على عدم هجرة الآشوريين من قراهم، لأنه لا يريد لهم أن يفقدوا الأرض التي نهضت برسالة يسوع، تلك الأيقونة التي صمدت بوجه الوثنية المجوسية التي أذاقتهم العذاب، وقتلت المئات بل الآلاف من شهداء المشرق، وأكثر من ذلك، حرص على حث مهاجري أبناء مركا على العودة إلى ديارهم وبيوتهم، هؤلاء الذين فرّقهم الدهر أمثال: العم ميخا دنخا، والعم بولص دانيال، والعم نيسان خوشو، والعم منصور يونان، وجميل سليمان، والخالة هيلاني داوود. وهذا ما أرّخه الأب مار يوسف في كتبه ومخطوطاته، وها هي وصلتنا، بعناية الرّب، إلى هنا وأودعناها في مكتبة الدّير، في انتظار من يدرسها ويحققها ويفك أسرارها من الباحثين لأنّها تؤرخ بشائر المسيحية الأولى في بلاد النّهرين.

ما زالت حكايات الأجيال الغابرة التي طواها الزمن تتردد عقودًا من السنين، فظلت فكرة العودة تقضّ مضاجعهم بالآهات والحسرات والذكريات والحنين إلى ربوع مركا الشامخة، ببساتينها ورياضها وأشجارها ومروجها وجناتها وينابيعها العذبة، وازدادت هجرات أهالي مركا، هربًا من الاختطاف والقتل والفدية والعصابات والميليشيات...

ثم قام الأب جوزيف بالصلاة على روح الشهيد والصديق الأب مار يوسف، وأقام قداسًا ضخمًا تكريمًا له.

وبعد الانتهاء من طقوس القداس، ذهب إلى حجرته، يرتّب قصاصات الصحف عن أوضاع المسيحيين تحت الاحتلال الأميركي، منها أخبار الفدية التي طلبوها في اختطاف بولص اسكندر، أحد قساوسة الكنيسة السريانية الأرثوذكسية، والقس موسى، مطران كنيسة السريان الكاثوليك، وسامي الريس، الكاهن في الكنيسة الكلدانية، والقس البروتستانتي منذر الدّير، والقس الكلداني رغيد كني، وكلهم لاقوا الموت من دون رحمة، وآلاف المسيحيين الذين غادروا موطنهم في بلاد الرّافدين.

هل يكفي حزن أهالي مركا على مقتل الأب مار يوسف؟

وهو يردد كلماته على مسامع الرُّهبان والرَّاهبات، مستذكرًا ما قاله في حقه:

ـ ألا ترون معي، كم عزيزة هي الروح، وكم نشقى في الحفاظ عليها في الدنيا، انظروا إلى صبركم وتحملكم المآسي في هذه القرية، وتذكروا جوزيف، الابن البار لمركا، كيف دافع عن نفسه، ووقف مع الحق، وحافظ على نفسه بالاختباء والهرب والمطاردة، ليقول لكم إن يوم الحق آت لا ريب فيه، وإن يسوع المسيح لم يكن يأبه للدنيا العابرة، الزائلة. لذلك علينا ألا نفعل ما فعله، بل أن نؤمن بما آمن به.

ردد حينذاك أهالي مركا:

ـ آمين.

وانفرجت أساريرهم، وصلّوا بصوتٍ عالٍ، وهم يعيدون الثقة إلى كنيستهم التي هجروها ردحًا من الزمن، وعانى فيها الأب مار يوسف أقسى الآلام، حتى يوم رحيله المأسوي.

وسأله أهالي مركا:

من هو الرسول الذي بعثه الرّب إلى بلاد النّهرين لنشر المسيحية؟

فأجابهم:

ــ إنه مار شمعون بطرس الرسول، الذي تبنى رسالته تلميذان، هما مار أدّي ومار ماري، وأتى مار أدّي ومار ماري، الرسولان اللذان أرسلهما الرّب إلى بلاد الرّافدين لنشر رسالته، التي بدأت تباشيرها في مدينة الرها، أورفا التركية، وهو يخاطبه:

ـ أنت نعمة حلّت على بلاد الرّافدين.

ثم شيد مار أدّي كنيسة في الرها ورسم كهنة وشمامسة لها، ونال إكليل الشهادة ودفن فيها.

أما مار ماري الرسول، فقال عنه الأب مار يوسف: أكمل مار ماري الرسول، رسالة الإنجيل في بلاد ما بين النّهرين، وهو تلميذ ضمن تلامذة يسوع الاثنين والسبعين، وهو من أسس كنيسة المشرق إلى جانب مار أديّ، ونحن الآن تحت رعايتهما، ولا تزال أيقونة مار أدّي تزيّن كاتدرائية كنيسة الموصل، التي أبدعها الرسام مايكل بيرفان، مُستَلهمًا روحية القديس من كتاباته وأعماله. وتركت الكاتدرائية الفنان ليشرح لوحته في محاضرة، فواجه الحضور، قائلًا: يمكنني أن أرسم ولكن لا يمكنني الحديث عن الرسم، لذا أطلب من الأب مار يوسف

الذي دعاني من كندا لكي أرسم هذه اللوحة، أن يتحدث عنها. فنهض الأب مار يوسف من كرسيه، واعتلى المنصة، وشرح أبعاد اللوحة كأي ناقد قدير: إن الأيقونة هي كتابة تُصوّر هذا القديس، إذ يظهر رجل فارع القامة شديد الهمّة، في وسط الأيقونة، مهرولًا في الطريق، يتطاير إثر الرياح رداؤه ذو اللونين الأزرق والأحمر دلالة على قداسته، والغبار يتصاعد من حوله، قادمًا من أورشليم التي يُرمز إليها بأسوارها العالية الضخمة على يسار الأيقونة، عابرًا أراضي الصّحراء بين أورشليم وبلاد ما بين النّهرين، وهنا رمز إليها بالجبل الصخري لوعورة أرضها وكثرة المشقّات التي واجهها أثناء سفره، والكتاب بيده، حاملًا معه البشرى السارة لينقلها إلى أهالي بلاد ما بين النّهرين، بإشارة شكل الصّليب والنجمة الكلدانية في وسط الإنجيل. أما الأرض التي داسها، فأنبتت عشبًا أخضر، وعملًا مثمرًا في القلوب، وشجرة صغيرة، تأصّلت بالإيمان، ونباتات تشق الأرض بلونها الأخضر معلنة عن رسالة مار أدّي الرسول التي طافت واستقرت في قلوب الناس، بين نهرين، بمياه زرقاء، دجلة والفرات، تعمّد فيهما ابناؤها باسم يسوع.

جاء مار أدّي الرسول مُبشرًا، وعلى الجهة اليمنى أيقونة نتيجة الثمر الوافر، وكثرة الكنائس وتعددها، وأشهرها الكلدانية. وفي الأيقونة، خطوط مستخدمة في رسم الكنائس لا تتبع منظور الرسم الهندسي، بل تبعث الإيحاء الإلهي عن البشر. في الأعلى وخلف مار أدّي، لُوِّنت الأيقونة بماء الذهب للدلالة على أن مصدرها الإلهي، كما كتب اسم مار أدّي على أطراف الأيقونة باللغة الكلدانية، قبل ما يُقارب ألفي عام.

كان الأب مار يوسف يزور هذه الأيقونة مرة في الأسبوع في

كاتدرائية كنيسة الموصل، ويقطع جبال مركا وسهولها التي تبعد نحو أربعين كيلومترًا منها، ليمتّع نظره بتأملها، لأنّها تلهمه الصبر والسلوان. ويستعيد الأب جوزيف ذلك التاريخ لرهبان دير الأيقونات وراهباته، ليثبت لهم أن الكنيسة الآشورية هي كنيسة العلم والبحث والحضارة.

ودارت محاورات بينه وبين الأب جوزيف عبر الرسائل: لا تنسَ، يا صديقي العزيز، أن كنيسة روما أنهت الجدل في أروقتها، ونحن لا نزال نتجادل، ونتبصر في اللاهوت، أين البطريرك طيمثاوس الذي كان يجادل الخليفة المهدي في بغداد؟ وأين بابوات روما من بطاركة الآشوريين الذين تفانوا وقدسوا الروح واللاهوت؟

إن آباء دير الأيقونات يشبهون تلاميذ الرسول الذين جاءوا إلى بلاد النّهرين لنشر المسيحية، وها هم يخرجون منها لنشرها خارج الحدود. ألا يشبه الأب الياس في دير الأيقونات مار شمعون بطرس الرسول؟ والأب جوزيف، مار توما والأب شربل، مار أدّي، والأب سامر، مار آجي تلميذ مار أدّي؟ والأب إسحق، مار ماري تلميذ مار أدّي؟

ردد الأب جوزيف:

ليرحمك الرّب، يا أبانا مار يوسف، ويسكنك فسيح جناته.

ثم قرأ مقاطع المقدمة التي كتبها لمؤلفه المخطوط «رسل يسوع إلى بلاد النّهرين»، كلي ثقة بشعبي المؤمن بالآشورية، تسمية قومية لجميع طوائفه من سريان وكلدان ونساطرة، تلك التسمية الأزلية ما زالت مفخرة لكل آشوري، ويكفي أنها وردت في سفر التكوين.

*

أيقظني ضجيج الطّائرة وهرج الرّكاب إثر إعلان قائد الطّائرة بإنكليزية وبلكنة إيطالية، الهبوط التدريجي على أرض مطار روما، كأنني آتٍ من طواف في بحر متلاطم، مضطرب، مكفهر الأمواج، خارجًا من زمن غير مرئي، مغبش، ومضبّب، وبعيد إلى زمن ملموس، ومرئي، وواضح. وفي اختلاط الزمنين، ولد زمن آخر، هو الذي أعيشه الآن، لا أثر فيه لضباب أو لغبار، بمذاق ثلوج روما الناصعة البياض.

ثلاث ساعات من الطيران، جمعت أعوامًا طويلة في بؤرة عقلي، كأنني عشت عصارتها، مكثّفة، وفاضت بكل تفاصيلها، مسببّة ليّ صداعًا نصفيًّا، كأننا قطعة إسفنج امتصّت الآلام وأخفتها بين ثنايا دماغي، وانسابت على شكل قطرات، تعصرها يد هائجة، لتعيدها إلى ذاكرتي، لتستنشق هواء الطّائرة الخانق، الخالي من الأوكسجين. وكم غبطتُ هؤلاء الرّكاب الذين غطّوا في نوم عميق من أول الرحلة إلى آخرها، من دون أن تؤرقهم أية ذاكرة، أو أي استرجاع لزمن ما، كأنهم كائنات بلا ماضٍ ولا أثر. أما ذهني فقد اختار من الزمن كله، هذه الساعات الثلاث لينصهر فيها، انصهار الحديد في فرن ساخن، في غليان المدن: باريس وبغداد وبيروت وأخيرًا وروما... التي ظهرت بعض معالمها من نافذة الطّائرة على شكل طائر يختبئ، مرتعشًا من ثلوجها. وحتى في هذه اللحظات لا يمكن أن أتخلّص من الصور التي ما زالت تقتحم رأسي رغم أنفي: اسكندر ابن الأب جوزيف، ذلك الابن الذي طالما افتقده، وطواه النسيان مع انشغاله بأحوال الرُّهبان والرَّاهبات في دير الأيقونات، والذي فرّ من بغداد، ليلتحق بأبيه، والذي لم يره في حياته. وأمه سيسيل التي خططت لرحيل العائلة الصغيرة والهجرة إلى كندا.

ارتعش قلب اسكندر قبل مغادرته مركا إلى بغداد، وفراق نهرين، تلك الفتاة الرقيقة، التي أحبها في السنة الأخيرة من دراسته الثانوية، والتي حرصت على الخروج في ذلك الصباح البارد كي تودّعه، وهو يعدها بخطوبتها والزواج منها، وهو يتذكر أباه، الغائب الحاضر، ذلك البطل الذي رفض الظلم، وتشرّد بعيدًا، وانفصل عن أغنامه وجنّته الصغيرة مركا كأي نبيّ مخذول، يعصر قلبه الألم والحسرة، عاجزًا عن مواجهة المتسلطين في قريته.

هكذا مرّت تلك الصورة سريعة، خاطفة، مثل البرق إلى أن وجد اسكندر نفسه في الثلاثين من عمره تقريبًا، ممسكًا بنسخة قديمة من رواية «الأم» لمكسيم غوركي التي تركها له أبوه، وأمه تردد على مسمعه:

ـ احتفظ بهذا الكتاب، يا بني، فهو إنجيل أبيك.

وهو يقلّب صفحات الرواية، ويتحسس بصمات يد أبيه، ويشمّ رائحة أوراقها الصفر العتيقة، التي لوّحتها ضربات الشمس، ماذا يفعل أبوه لو رأى هذه الرواية بين يدي ابنه، بجلدها السميك، وصفحاتها المرممة؟

وما بين الإنجيلين، ولد إنجيل آخر في قلب الأب، ولا تعرف عنه الأم ولا الابن شيئًا، هذا الأب المطارد، وقف ضد الظلم، ذات مرة، ودفع الثمن غاليًا، لكن ما عساه يفعل، فمصير الابن لا يختلف عن مصير الأب، وهو يقرأ الرواية التي بين يديه، أبطالها روس حلّوا في نفوس أبناء قريته مركا، وأصبحوا رجالًا مألوفين يتسكعون في طرقاتها، ويرتادون حانتها الوحيدة.

أمضى كل سنوات طفولته وشبابه بعيدًا عن أنفاس أبيه، يزوره شبحه، مثل طيف عابر في الليل، يحاول الإمساك به من دون جدوى، ينتصب بقامته، ويعدّل من جلسته في مقعده، مفتخرًا به، من دون أن ينسى كلمات الأب مار يوسف عندما عمّدته أمه في الكنيسة:

ـ اسكندر... يشبه أباه كأنهما تفاحة قُسمت إلى نصفين.

في مركا، موسكو الصغيرة، كما أطلق عليها أهالي القرية، الذين اعتنقوا الشيوعية، ثم عادوا إلى الكنيسة، فتحوا عيونهم على شرارة هذه الفكرة، وترسّخت في أذهانهم، وكان بطلهم الفتى الراعي جوزيف، يملأهم افتخارًا واعتزازًا، فيما ضل الابن طريق الشيوعية، وصار يبحث عن أبيه في منعرجات القرية، ومراعيها الخضر من دون أن يجده، وآمن بأن لا جريمة في الدنيا مثل تخلّي الأب عن ابنه. راوده حلم رؤيته، مرات ومرات، وهو يتعلق بيد أبيه، ويتجولان في طرقات القرية، المطلّة على الوادي، بكل هدوئها وسكينتها، عندما كانت قطعان الماشية ترعى وحدها، من دون أن يفكر الراعي في اللصوص والذئاب المفترسة.

كان يتمنى أن يرى أباه مرة واحدة في حياته، ليطرح عليه السؤال الذي ظل يؤرقه طوال هذه السنوات: هل يستطيع الابن أن يعيش من دون أبيه؟

لم يجد أية إجابة لا من أمه ولا من الأب مار يوسف ولا من أي واحدٍ من أهالي القرية. الكل يعظّم أباه، وبطولاته، ويسرد حكايات شجاعته وجرأته ومغامرته، من دون أن يلتفت إلى أعماق معاناته. حتى أمه غير قادرة على إقناعه بالإجابة، وقتله في ساحة مركا بالفؤوس، من قبل أولئك الذين لم يتخلوا عن أسلحتهم البدائية.

وردد اسكندر في نفسه: كيف أنظر إلى أبي الآن، كشيوعي أم كراهب أم الاثنين معًا؟

قررت أمه الالتحاق بأبيه، وحاولت إقناعه بالرحيل معها لكنه قال لها:

ـ لا أريد أن أفسد عليكما لحظة اللقاء بعد هذه الأعوام.

كان اسكندر يجلس ساعات طويلة أمام الكمبيوتر مبحرًا في ذلك العالم الافتراضي الأثير على قلبه، فوجد كمًّا هائلًا من المعلومات المتضاربة عن تلك المملكة التي شيّدها أبوه مع الآباء الآشوريين في دير الأيقونات.

وتساءل بحسرة:

ـ هل يمكن أن يصبح الدّير وطنًا بديلًا، مدينة السّماء بديلًا من مدينة الأرض؟

وبُهر اسكندر بما أنجزه أبوه، وشجاعته في تغيير قوانين الرَّهبنة منذ قرون، ثم قرأ عن محاكمة البابا لأبيه، والشائعات التي تواردت عن محاولات أبيه تدمير الكاثوليكية، بإنشاء كنيسة مشرقية آشورية في بيروت. لقد وضع المهاجرون الآشوريون محاكمة أبيه على الإنترنت، وأثارت ردود أفعال الآشوريين في أميركا وكندا ونيوزيلندا وأستراليا. كان اسكندر يمضي أغلب أوقاته في البيت أمام شاشة الكمبيوتر في بغداد، ويرى أصدقاءه من شباب قريته يهاجرون كل يوم إلى أميركا وكندا ونيوزيلندا وأستراليا، هربًا من التفجيرات والخطف إلى الصقيع والثلوج والبرد، يقفون في طوابير الانتظار، حتى فرغت منهم مركا، وظلت فتياتها عوانس في زوايا بيوتهن، لا أحد يطلب أيديهن، نصف

شبابها راح في الحرب، ونصفهم الآخر هاجر، ولم يبق فيها إلا الشيوخ والعجائز، وأصبحت قرية أشباح مخيفة، في حين راح المهاجرون الآشوريون يشيدون ديكورات قريتهم في المهاجر علّهم يرون قمر مركا الشهير، يرسل ضوءه على أسطح البيوت، المبللة بالمطر، والمكسوة بالثلوج، يمدون أنوفهم من نوافذ غرفهم من أجل شمّ ذلك العطر الغائب من قريتهم.

كان اسكندر يفتح رسائل إيميل الأصدقاء، الواحد تلو الآخر، في جهاز الكمبيوتر أمامه، ويقرأ ما يكتبون إليه، وهو لا يمتلك إلا أن يذرف الدموع، وحيدًا في هذا البيت، لا يعرف مصيره، ويصرخ من أعماقه:

ـ لماذا تركتم مركا، جنّة اللّه على أرض آشور؟

لا يجد اسكندر سوى الصدى على صفحات الفيسبوك بعد منتصف الليل، حين يستيقظ أصدقاؤه من النوم في أرجاء العالم، ويبادلونه الدردشات، وهو يعتذر لهم عن انقطاع الكهرباء، على أمل التواصل معهم بين الحين والآخر، وقد أصبح عاجزًا عن الخروج من البيت، أو الذهاب إلى الجامعة، كل شيء تعطّل، تتربص التفجيرات في شوارع بغداد وساحاتها ومقاهيها وأسواقها.

وكم كان يتمنى لو يتواصل مع أبيه على الفيسبوك. وتساءل هل يستخدم أبوه الإنترنت، وتردد كثيرًا في الاتصال به لأنه لا يعرف كيف يبدأ الحديث معه، هل يعاتبه على غيابه أم يهنئه على شجاعته؟

في عزلة جهاز الكمبيوتر على طاولة خشبية في زاوية غرفته، يستحضر العالم بكامله، وهو ينتظر لقاء أبيه على أحرّ من الجمر، من

دون أن ينسى سؤاله السرمدي: يا أبي العزيز، هل كنت مجرد نطفة قذفتها في بطن أمي ورحلت؟

وفي الوقت نفسه، شعر بتأنيب الضمير إزاء أمه: أمي العزيزة، أريدك أن تكوني حرّة في لقائك مع أبي، ثقي بأنني لا أتحمّل مشهد لقائكما بعد فراق هذه السنوات. فهل يستقبلك كما كان راعيًا في براري مركا، تحمله رياح الأغاني وألحان الناي وأنغام الحب بين خرافه التي ترقص طربًا من الانتشاء، أم سيكون اللقاء باردًا وجامدًا؟ ربما تقولين لي: إنك تريد أن تستعيد الماضي السعيد الذي ولى، وقضت عليه الحروب، وما ذنبي أنا، المولود في هذا الخضمّ الصاخب، أن أعيش تاعسًا؟ هل أنانيتي جعلتني أبقى إلى جوار فتاتي الآشورية نهرين؟ أستوحي منك التشجيع على الارتباط بها، لأنها تذكرني بأيقونة قريتنا، مركا، بل هي أيقونتها الأولى والأخيرة، وبراءتها الأولى. ما زلت أتذكر كلماتك: يجب أن تفي بوعدك لحبيبتك، مهما كان الثمن، لا تكن مثل أبيك، لقد تعرفت إلى فتيات كثيرات على الإنترنت، ولكن حبي لنهرين لا يعادله حب على الأرض.

فكرت فيكما كثيرًا، كيف، يا تُرى، سيكون ذلك اللقاء بين رجل راهب وامرأة علمانية؟

وجاءت رسالتك لتقول لي: إن لقاءكما كان رهيبًا، حين دخلت إلى الدّير خلسة، وتنكّرت بزي راهبة، أنت التي لا تتحمّسين كثيرًا لتعميدي في كنيسة المطران مار يوسف على جبل مركا، وتعتبرينها مجرد نزهة، وتسخرين من القداس الإلهي يوم الأحد، هل من الممكن أن تصبحي راهبة من أجل البقاء بجوار أبي؟ ثم فكرت قليلًا، بعدما

تأملت حياتك، أنت راهبة بالفعل، حتى لو لم ترتدي الرداء الكهنوتي الأبيض، ولم تتزوجي كل هذه الأعوام، إخلاصًا لأبي. عشت الفقر والعزلة والبتولية كأن مريم سكنت في أعماقك. أهنئك على روحك، يا أمي، وأستمد منك كل الشجاعة والصبر والتعقل، التي رضعتها مع حليبك الأبيض، ذي المذاق الحلو، والطازج، والمنعش. أهذا هو مصيرنا، نحن الآشوريين، أن نعيش بخذلان في ظل ذكرى أجدادنا الأباطرة.

عذرًا، يا أمي، انقطعت الكهرباء ثانية، وانحسرت معها كلمات رسالتي، وإلى أن تعود الكهرباء، عليك أن تخرجي أبي من هذا السجن الإلهي، لكي نرحل إلى كندا، فليس أقسى من أن يعيش راهب وراهبة عاجزين عن التعبير عن حبهما القديم. نامي بهدوء، نهرين تريدني أن أركز معها على الفيسبوك، لا تقلقي على أخواتي الثلاث، فهن في خير ويخطط أزواجهن للرحيل قريبًا لا أدري إلى أين، أستراليا أو كندا أو نيوزيلندا، بحسب موافقة البلدان التي تقبل طلبات لجوئهم، وجميعهم يفكرون في بيع بيوتهم بأبخس الأثمان لتوفير أجور تذاكر الطّائرة الباهظة، والآشوري أصبح أرخص من كيس البطاطا في بلاد الرّافدين.

فتح اسكندر نافذتين على صفحة الفيسبوك، إحداهما لأمه في دير الأيقونات، وأخرى لحبيبته نهرين في قرية مركا.

ـ نعم. يا نهرين. كنت أتحدث مع أمي، هي بخير تسأل عنك. وأنت؟

ـ أنا بخير. ولكن أوضاع مركا لا تبشّر بخير. أنت تعرف، المنطقة كلها متوترة، وأبي يفكر في الهجرة، متى نتزوج؟

ـ لا تقلقي، سنتزوج يا نهرين.

نافذة دردشة جديدة انفتحت على صفحة الفيسبوك، إنها لأحد أصدقائه من قريته مركا، وقد ذهب إلى عمّان استعدادًا للهجرة.

ـ أهلا صموئيل.

ـ ماذا فعلتم مع الـ«أي. إن. سي.»، «المؤسسة الخيرية الكاثوليكية»؟

ـ يقولون لنا انتظروا.

ـ وكيف حال لينا؟

ـ تبكي ليل نهار، ولا تريد العودة إلى بغداد أبدًا لأنها لا تزال تعيش كابوس كاتدرائية سيدة النجاة، حيث كما تعلم قضى ابن أختها، من بين الاثنين وخمسين شخصًا في انفجار رهيب. وهل تعلم أن الآشوريين هنا اضطروا إلى حمل السلاح من أجل حماية كنائسهم؟

ـ أسوأ ما في الأمر أنهم يجبروننا على حمل السلاح لكي يبرروا جرائمهم.

ـ يريدون طردنا وكأننا لم نسكن هذه الأرض منذ سبعة آلاف سنة

وبعدما صمت لحظة:

ـ استلم آشوريو الموصل منشورات تأمر النساء بارتداء الحجاب.

ـ وماذا عن المترجمين الآشوريين الذين عملوا مع الأميركان؟

ـ يستلمون مظاريف تحتوي على طلقات رصاص.

توقفت الدردشة مع صموئيل، مع انقطاع التيار الكهربائي، ثم عاد، وأضيئت شاشة الكمبيوتر من جديد، وأخذ يقرأ عن نزوح الآشوريين عن قريته مركا في سفر برلك، أي في حملة الإبادة التي تعرّض لها المسيحيون في تركيا وشمال أرض الرّافدين آنذاك.

ثم شاهد على إحدى الفضائيات فيلمًا وثائقيًّا عن مركا التي كانت ملجأ للآشوريين الفارين من سطوة العثمانيين، فيقتلونهم وهم عراة بالسلاح الأبيض. لم يتحمّل مشاهدة تلك الفظائع، دسّ رأسه في الفراش في محاولة للنوم، لكنه لم يتمكن، ثم تذكر معلم المدرسة في مركا الذي أعجب به، ولحفظه عن ظهر قلب أسماء ملوك آشور بحسب التسلسل: بدءًا بالملك توديا وانتهاءً بأسماء الملوك الآخرين: سرجون، سنحاريب، أسرحدون، وآشوربانيبال وغيرهم.

ثم يسأله المعلم:

ـ وما هي مدن الآشوريين وأمبراطورياتهم؟

يرفع اسكندر أصبعه، ويجيب بحماسة:

ـ سومر، الوركاء، أور، إريدو، كيش، لاغاش، نيبور، أكد، بابل، إيسن، سوسا، نينوى، دور، شاروكين، نمرود.

ـ وكتاباتهم؟

ـ مسمارية، سومرية، أكدية، عيلامية، حورينية...

ـ وما هي أساطير بلاد الرّافدين؟

ـ ملحمة جلجامش وإينوما إيليشش، ومردوك.

بعد ذلك، جاءته مكالمة أمه.

ثم عاد إلى الدردشة معها على الفيسبوك:

ـ كيف حال أبي، هل غيّرته الشيخوخة؟

انفجرت أمه في البكاء وقطع التيار الكهربائي. لم يتمكن من التواصل معها، وراح يستعيد قصة أبيه، وهربه من اللصوص، القتلة ذوي الفؤوس، فانهمرت الدموع من عينيه، واختنق بها، واحمرّت عيناه، وفكر في أنهم لم ينجحوا في قتل أبيه لكنهم نجحوا في نفيه وإبعاده طيلة هذه السنوات.

استيقظ في الصباح على تهديدات وصلت إليه من مدير الوكالة العقارية التي تريد شراء بيتهم تحت ضغط الترهيب والترغيب، وهو عاجز عن تقديم أية شكوى لأن رئيس البلدية، المدعوم من الميليشيات، يقف وراء شراء بيوت الآشوريين بأسعار بخسة. وعندما رفض، تركوا له مظروفًا يحتوي على رصاصة على عتبة منزله.

لم ينم تلك الليلة، سافر إلى مركا، وقابل أهل خطيبته نهرين، وأخبرهم القصة، حاملًا معه رسالة التهديد والرصاصة، ثم اتصل بأمه، وأخبرها بما حدث حول منزلهم. بكت الأم على الهاتف، وطلبت بيع البيت بأي ثمن والمجيء مع نهرين إلى بيروت.

كانت آخر جولات اسكندر في محيط كنيسة سيدة النجاة، سمع أصوات انفجارات، جعلته يدور في فلك الفراغ والكآبة. هل المصادفة هي التي شاءت أن يكون على مقربة من موقع الكنيسة يوم الحادث المشؤوم... تلك الجولة أشبه بالوداع، في الحي الذي أحبه، الكرادة

الشهيرة وسط العاصمة، في شطر الرصافة من نهر دجلة حيث تزدحم الكنائس والمدارس القديمة، وتمثال (القهرمانة والأربعين حرامي) الشهير، وعلى مستوى النظر القريب انتصب الصّليب ذو الطاق المميز لكنيسة سيدة النجاة... وشوارعها الآن محاطة بالحواجز الكونكريتية الشاهقة، مما يبعث في نفسه الضيق. كان اسكندر يأتي إليها، أيام الآحاد، عندما تزوره خطيبته من قريتها مع أبيها وأمها. والآن حدث شيء كبير، تغير المشهد، حيث ما زال الكثير من أضرار الرصاص والتفجيرات يرتسم على الجدران المحيطة. وإلى يمين الباب وُضعت لوحة ضوئية بالغة الأسى طبع عليها صور الشهداء الخمسين جميعًا، تعلوها صور الأبوين الشهيدين اللذين رحلا يوم كانا يؤمان المصلين في قداس الأحد. ها هي صورة الأب الشاب وسيم الذي رحل بربيعه السابع والعشرين. كان وسيم شابًّا ودودًا، يحب لعب كرة القدم في الملعب القريب من تمثال (شهريار وشهرزاد) عند نهر دجلة على شاطئ شارع «أبو نواس» القريب. وكذلك الأب ثائر... وهذه صورة الشهيدة رغدة وقد تعمّد ذووها منح الكنيسة صورة لها بفستان زفافها، الشابة اللطيفة التي كانت تعمل في منظمة الأمل، إحدى مؤسسات المجتمع المدني. لقد تزوجت مؤخرًا ربما قبل شهر. جاءت تصلي في ذلك اليوم شكرًا للرّب لأنّها اكتشفت في اليوم نفسه أنّها حامل. كانت تصلي لأنّها ستصبح أمًّا، ولم تعرف أنها ستصبح ذكرى.

*

بدا لي جناحا الطّائرة، مبللين بقطرات الندى، حبيبات لامعة تبرق

بين الغيوم كما لو أنّها تلتصق على جسد ناتاشا الرّشيق، وتثير بنظراتها الشبقيّة، إغراء يُراوح بين الوعد ونكثه، بين الاندفاع والانسحاب، بين القبول والرفض، لا يمكن أي شخصٍ أن يقاومه بخاصّة إذا كان راهبًا. والسؤال الذي كاد يخنقني: ما الذي يجذب هذه الروسية الفاتنة إلى راهبٍ كهلٍ مثلي؟ وتذكّرت الحكمة التي رددها الأب جوزيف على مسمعي ذات يوم: للرجل ألف حيلة وحيلة ليصبح جميلًا: الشّجاع، والكريم، واللطيف، والنّاعم، وحلو الكلام، والصّادق، والمُضحي وغيرها، بينما لا تملك المرأة سوى حيلة واحدة: جمال وجهها ورشاقة جسدها وزينة مكياجها!

هززت رأسي، خجلًا، أتصبب عرقًا أمامه.

أجل، يا أبانا جوزيف، إليك يعود الفضل في أن أكون على هذه الطّائرة، ولطالما كنتَ لنا نبراسًا، قدّيسًا، وإنسانًا، ربما ولدت في الزّمن الخطأ.

وبعد الآن ليس لي إلا الكتابة إليك، يا أبانا جوزيف، وتفريغ شحنات كلماتي على الورق، وإنني لأكنّ لك كل التقدير والتبجيل والإعجاب كبقية رهبان الدّير وراهباته، لكنني خجلٌ منك، لأنّني أتصرف ليس كما ينبغي، ظاهريًّا على الأقل، وأنت تكبّدت كلّ هذا العناء من أجلي. رأيت الوداع في نظراتك ودموعك وابتسامتك، وهاأنذا أحمل قلادة الصّليب التي منحتها لي كجزء من رعايتك المبجّلة، وقدمت إلي كل العون في ظروفي الحالكة، ودبّرت بعثتي العلمية إلى الفاتيكان، وحصلت لي على جواز سفرٍ أحمر اللون لم أكن أحلم به؛ فكمْ أراني محظوظًا بصداقتك. وما زلتَ أتذكر ما قلته لي ذات مرة: لا

تنسَ يا إسحق أنّك رسامٌ وفنانٌ قبل أن تكون راهبًا. وأجبتك: وأنت يا أبانا، تذكّر أنك موسيقيّ دفن موهبته في غبار الدّير ومشاكله.

يا أبانا العزيز، لا أدري ماذا كان يحصل لي، لولا عونك ومشورتك وعطفك؟

بفضلك بددت كآبة سنوات السجن وتعاسته، ووجدت ضالتي المنشودة في طهارة الجسد والروح بعدما أنزلت الأساطير من السماء إلى الأرض، وجعلتنا نعيشها يومًا بيوم، أنت تشبه أولئك الغواصين الذين يصطادون اللؤلؤ والمرجان، ويغامرون بحياتهم.

لكن ما يفرحني أنك ستلتقي ابنك بعد مرور سنين طويلة، مزيلًا النقطة السوداء في حياتك في الكشف عن زوجتك سيسيل، هذه الرَّاهبة، اللاراهبة، التي حفرت عميقًا في أذهاننا صورة ملاك رباني، طاهر الروح، وأنثى أصيلة تدافع عن شرفها بأظفارها وأسنانها. لم يكن من السهل على امرأة مثلها، أن تغوص في عقل رجل، اختاره القدر ليكون بطلًا.

لحظات عظيمة أمضيناها معًا في البحث عن الرّب، ولم نجده لا في الدّير ولا في الكنيسة، بل في حبّة قمح يلتقطها طائرٌ جائعٌ ويطير بها إلى صغاره في العشّ، في كسرة حبّة حمص تلتقطها نملةٌ، وتحملها لتخزينها إلى ليالي الشتاء الباردة، وكنت تردد: لا تبحثوا عن الرّب في عزلة التعبّد بل في ملامح الوجوه. عرفتك رجلًا هادئًا، وبسيطًا، ومتواضعًا، لا يخشى اقتحام الصّعاب مهما كلّفه من ثمن، وما زلت أتذكر ما قلته لنا: لماذا لا نرقص عندما نصلي ونتعبّد على أنغام الموسيقا مثل الأفارقة الذين يشيدون كنائسهم بين الأدغال؟ هذا ما

كان يفعله الآشوريون أيام زمان في أيام الفرح، فالعبادة فرح أيضًا، ترقص فيه الآلهة في المواسم، وأسطورتنا تتجسّد على شكل تنين يموت على يد القديس مار جرجيس الشهيد. يرقص المؤمنون جذلين، سعداء، مبتهجين بيوم الانتصار على النفس. لا تكون الصلاة خلاص الإنسان إلا عندما تكون مشحونة، برعشة الإيمان، مثل شجرة تهزّها الرّيح وتُسقط ثمارها على الأرض.

يؤسفني، يا أبانا جوزيف الطيب، أن أقول لك إنني لا أستطيع أن أمضي بقية حياتي باحثًا عن الرّب، وقراري هذا لا يبتغي الكفر أو التجديف أو غير ذلك؛ لأنني لا أجد مخرجًا منه، في متاهة يغرق فيها المؤمنون والملحدون على حد سواء. ألا ترى البهجة التي تغمر وجوه هؤلاء اللامبالين؟ ذلك العمى المضحك الذي يصيّر الإنسان أبله سعيدًا، وهو في طريقه إلى الملذات القصوى من بين كائنات تريد أن تعيش بسرعة وأن تنهي ما ألقي على كاهلها من عبء ثقيل؟

اسمح لي أن أستكمل رسالتي في ما بعد، لأن المضيفة ناتاشا جاءت إليّ بكأس عصير بدلًا من النبيذ لكي أستعيد نشاطي، وهي تغمز لي بعينها اليسرى، لا تقل لي: تجنّبها. أرجوك... إنها جميلة إلى حد أنني أرغب في قضمها مثل تفاحة ناضجة، حتى لو كانت تفاحة آدم، ومستعد أن أعيد كتابة أسطورة البشرية من أجلها. وها هي تعيدني من جديد إلى تساؤلي المحيّر:

ـ ما الذي يجذب هذه المضيفة الجميلة إلى راهب كهل مثلي؟

أثناء الإعلان عن هبوط الطّائرة، داهمني حلم سريع مثل إغفاءة على جسد ناتاشا، على فراش الفندق الوثير، مسترخية، تتلمس بأناملها

الرفيعة الصّليب المعلق في عنقي، وهي تندفع نحوي تنزعته من صدري، وتكرر: هل تعلم أن للصليب عيون؟ ثم تناولت كأس النبيذ، وراحت تسكبه على جسدها، فالتمعت القطرات تحت الضوء الخافت، المنبعث من زوايا السرير، وتسألني أن أرتشفها الواحدة تلو الأخرى بشفتيّ الجافتين، ورحت أضيع في غابة من زغب صغير أصفر نابت على أسفل بطنها، مُبتلًا ولامعًا مع النبيذ الأرجواني اللون، كاشفًا عن عناقيد العنب، غير المرئية، المتناهية في الصغر، لينعكس على جسدها، مضيئًا ظلام التعاريج، بعيدًا عن ضوء الشمس وأشعتها. اغتسلنا بالنبيذ، وكأنها إحدى آلهة المعابد الآشورية القديمة، تردد: اسكب على جسدي مزيدًا من النبيذ، وارتوِ منه، يا كاهن الحب. وهنا فكرت براسبوتين، الذي تحمل بذور سلالته، ربما أرادتني أن أكون ذلك الشبح الذي يهدد الرهبان ويقودهم نحو عرين الشيطان، فمن أين تعلمت هذه اللعينة أسرار لعبة الجسد مع الصّليب؟

قالت بكلمات مترنحة: لا تفكر، يا أبانا، إلا في هذه اللحظة.

ثم انفجرت بالبكاء، وهي تروي قصة حياتها، وتلصق ألقاب العهر والقذارة والفسق بنفسها، وتكرر: قل لي أنت عاهرة. مومس. قذرة. سافلة... وأقرأ لي أحكام الزانية في الإنجيل؟

بدت وكأنها تحاول طرد شبح الماضي، من عينيها الزرقاوين، حيث يمتزج الألم باللذة، فهل هي محترفة أم فاتنة تقود راهبًا مسكينًا إلى الخطيئة؟

ثم راحت تردد: عمدّني، يا أبانا، بالصليب، بمائك الذي ينبع من جسدك، وتذوّق هذه اللحظة، لتعرف ما أنت محروم منه.

يا إلهي! أهو إيمان مسيحي ممتزج بشبق جنسي، أراه للمرة الأولى، هل لأنّها حُرمت من الصّليب ثمانين عامًا؟

بعد ذلك، أخذت تطلق الشتائم والنعوت على الروس: حفنة من السكارى الأوغاد والمخنثين والمافيا.

ثم صحوت من غفوتي على نداءات قائد الطّائرة بالنزول التدريجي على أرض مطار روما لأرى ناتاشا تحمل إلي كأسًا من الماء بعدما كنت أسبح في حالة من الهذيان الحالم.

سألتني أين سأكون في روما؟

قلت لها:

ـ ربما في الفاتيكان.

ازدادت إعجابًا بي.

وسألتني:

ـ هل يمكن مرافقك إلى هناك؟

ـ وأين ستكونين أنت؟

ـ في فندق روما بلازا.

ـ لماذا لا نلتقي هناك، ربما رسمتك على لوحة؟

هزّت رأسها فرحة.

تذكرت الجدارية التي رسمتها على بوابة الدّير: كنيسة تطير مع الغيوم، ينظر إليها السيّاح بروح رينيه ماغريت الذي ظل في ذهني

عبارة عن منزل غارق في الظلمة تحت سماء نهارية، ورجال في زيهم الفضفاض معلقون في الهواء: صور مألوفة في عالم هذا الفنان، رغم غموضها، ولكنها شديدة الإلفة ولا ينقصها سوى إضفاء شيء من الواقعية لكسر إيقاع سرياليتها. أحجار جمعها الرُّهبان والرَّاهبات من الجبال المجاورة، كل حجرٍ بلون معين، تعطي ألوان الفسيفساء، التي أصبحت جزءًا من أيقونات الدّير. رسمت تلك الجدارية لأتأكد من بقايا موهبتي في الرسم. الفرشاة شغفي الأول، حلّت مكانها الكلمات، وفي مرسمي، كنت ألهو بالألوان، وأشعة الشمس تفيض على المكان، وقلت في نفسي إذا كان يوجين ديلاكروا قد شدّ الرحال إلى المغرب، فلا بد لي من شد الرحال إلى جسد ناتاشا لكي أرى الألوان بشكل آخر، ربما سأجد جميع التدرجات اللونية التي أبحث عنها. وتساءلت: هل لرسوماتي عن الرُّهبان والرَّاهبات المتعبّدين قيمة ما في عالم الفن؟

حاولت استكمال كتابة الرسالة الموجهة إلى الأب جوزيف.

ـ أبانا الرائع جوزيف. لا أريد أن أخيّب آمالك، فلست برجل انتهازي خدعك، لتحقيق مآربه الأنانية، أرجو منك أن تسامحني، إن لمْ أفِ بتعهداتي القديمة، وما ينتظرني هو تقرير مصيري، وأنا أجهل ماذا سيكون عليه حتى هذه اللحظة؟

تعلم أنني لم أتزوج ولم أنجب؛ بل انشغلت بالبحث اللاهوتي، وأنت من شجعني على سلوك هذا الدّرب الوعر، فهل تريدني أن أسحق إرادتي في طاحونة حجرية من جديد؟

في تلك اللحظة، مرّت عربة بائعة العطور في ممر الطّائرة، تعلن عن علاماتها التجارية.

سألت ناتاشا عن عطرها المفضّل:

ابتسمت وقالت:

بوازون.

ابتسمت مع نفسي: الفرنسيون مجانين لا يتورعون أن يطلقوا على العطر اسم السّم، ويجدون من يشتريه أيضًا.

أشتريت قنينة من السّم، ودسستها في حقيبتي الصغيرة لأقدمها إليها في ساعة لقائنا؛ لم أرغب في إهدائها على مرأى من ركّاب الطّائرة لكي لا يتزعزع إيمانهم بالرَّاهب الذي يعيش جحيمه وحده.

وتساءلت:

ـ هل تحتاج روما الأمبراطورية التي تفرّخ الرُّهبان كل يوم مثل الأرانب إلى راهب مثلي؟

ثمّ دققت الفحص في جُبتي الفضفاضة، كأنها فُصّلت لشخص أكثر بدانة مني، فوجدتها مثل قناع أخفي وراءه وجهي الحقيقي؛ فضحكت من أعماقي، معتقدًا أن هذه الجبّة ملتصقة بجسدي لا يمكن نزعها إلا يوم القيامة، وقد آن الأوان لأقرر مصيري؛ ما دام عالم الرُّهبان لم يعد يغريني، بعيدًا عن الدّير، وقريبًا من الفاتيكان، يرنّ في رأسي المثل الفرنسي «الزيّ لا يصنع الرَّاهب». ثمّ نظرت إلى نفسي في مرآة تواليت الطّائرة الضيق، إلى هذا الرَّاهب، علّني أرى وجهي الحقيقي.

وبعدما خرجت، والطّائرة في حالة هبوط، ذُهل الجميع، والارتباك يظهر في عيونهم، كأنهم أصيبوا بنوع من الصدمة. كنت أضمر في أعماقي ضحكة ساخرة منهم، ولا أجد طريقة لأقول لهم، لأسرد لهم ما عشته. وبدأت أتساءل مع نفسي، كما لو أنني أرى هذا الرَّاهب، قد تبخّر من نافذة الطّائرة، كمعجزة تُضاف إلى معجزاتهم اللانهائية، وأردد مع نفسي، وكأنني أسرد لهم أساطيرهم: وداعًا، أيّها الرَّاهب المختبئ في أعماقي، أيّها المرتجف، أيّها الخائف، أيّها المذعور مثل فأر على سفينة غارقة، هل تبحث عن ديانة جديدة، تجهل منابعها وجذورها؟ ديانة آتية من آسيا أو أفريقيا أو أية قارة مجهولة، لا يعرفها حتى الوثنيون، مثل صلاة رجل بدائي، خرج من الكهف، من المغارة، يتوضأ بمزيج من الماء والتراب والنّار والهواء، يغتسل بها، ويتطهّر. حاولت نسيان كل ما شهدته في السجن والميناء والدّير، لاجئًا إلى استخدام كلمات أستدعيها من قاموسي الخاص، كطفل يتعثّر في الكلام ويصوغ كلماته الأولى؛ إذ لم أعد بحاجة إلى الترداد مثل الببغاوات البلهاء، بكلمات تداولتها ألسنة البشرية عبر قرون، ربما لا أحتاج إلّا إلى التمتمة، إلى حركة الشفاه الطفولية التي تعلّمتها في المهد.

لم أتنكر بجبّة الرَّاهب من أجل خداع أحد، كما لم أُعِرْ أي اهتمام لشؤون الآخرة يومًا ما، وجدت نفسي مختبئًا تحت ثياب اللّه، ومعلّقًا في صدري الصّليب الذهبي. آن الأوان لأتخلص منه، وأمنحه للمضيّفة ناتاشا عربون حب، لأنني وبكل بساطة، لا أرغب في تكرار الطقوس نفسها، وليس في مقدوري أن أغيّر طقوس الفاتيكان الصارمة، أمّا ما فعلته في دير الأيقونات، أيّها الأب العظيم، فلا يُقدر بثمن، حيث

الرُّهبان والرَّاهبات يعيشون حياتهم من جديد، أما هنا فتعيش التماسيح العجوزة، وتتعامل بالسحر، وتستعين بالكهنة الشياطين، ورؤوس الأموال المباركة من الرّب؛ فما الجدوى من العيش بين أحجار لا تتزحزح، وجبال لا تُقهر، ووديان لا تُعبر؟

لم أعد بحاجة إلى أيّ شيء الآن، لأنني لم أعد أحتمل سكوت الرّب على مظالم الأرض، ومعابده وكنائسه ومساجده العاجزة عن صدّ الشرور عن البشر؛ فما جدوى دور العبادة التي تعجز عن إيواء فقير أو كسوة عار، أو إشباع جائع، أو طمأنة حائر؟

فكرت طويلًا، ولم يبق أمامي سوى أن أقرر حياتي المقبلة، بعدما سئمت من تحويل حياتي إلى نقاشات ومناظرات وجدالات، تبدأ في المساء وتنتهي عند الفجر، فالحياة ليست برجًا عاجيًّا، أو قلّاية نتأمل فيها أبد الدهر.

يا أبانا جوزيف، قراري حاسم، وأنت تعلم مدى حبي لك، لا يمكن التراجع عن قناعتي بأن الحياة تستحق أن نعيشها بكل امتلاء وشهوانية ولذّة وعبث أيضًا. لماذا نختزل كل جغرافية العالم الواسع، بجباله وتلاله وسهوله وأنهاره ووديانه ومحيطاته بقفص، اسمه الدّير أو المعبد أو الكنيسة أو المسجد أو الفاتيكان؟ لماذا نحيط أنفسنا بأسوار شاهقة، ولا نرى نورًا سوى الشمعدانات الشاحبة والحزينة، ونظرات الرُّهبان والرَّاهبات الكئيبة، والأيقونات الحائرة. هذا لا يعني، يا أبانا جوزيف، أنني لا أحبك، وأن ثورتك لا ضفاف لها، ومآثرك عظيمة، فهل هناك أعظم من إخراج ثلاثمئة راهب وراهبة من عزلتهم؟

لا تلمني لأنني غيّرت الرداء الكهنوتي بالملابس الدنيوية في لحظة القرار الأخير.

وأعلن لك، وأنت أول من يسمع مني ذلك، أني سأغمس لقمة عيشي بفرشاة الرسم والألوان في أحياء روما وشوارعها وأعيش الصعلكة بكل ما فيها من معنى، فثمّة الكثير من الحانات تنتظرني، ونبيذها لا يشبه نبيذ دير الأيقونات، الممزوج بالقداس والصلوات والتراتيل والخوف والتزلف والنفاق والتذلل والتصغّر. كثير من النساء هنا بحاجة إلى دفئي، حضني، وذراعي مثلما أنا بحاجة إليهن في ليالي روما الباردة.

ـ لماذا علينا أن نقدّم القرابين دائمًا من أجل أن نكون سعداء؟

نحن نهبط في مطار روما.

هكذا انطلق صوت المضيّفة: أربطوا أحزمتكم، واطفئوا هواتفكم النقالة.

وعندها حاولت استجماع كل ما لديّ من قوة ورباطة جأش من أجل إخفاء نظراتي القلقة، الخائفة، والحائرة، لم يلحظ الرّكاب كيف تخلّصت من الرداء الكهنوتي في غرفة الحمام، ودسسته مثل كومة من القش في حقيبتي.

وقبل الهبوط النهائي للطائرة، توجه كبير الرُّهبان، المسؤول عن فريق استقبالي إلى داخل الطّائرة بعد ثوان من هبوطها، وسأل المضيّفات هل كنت على الطّائرة، فأجابته ناتاشا أنها رأت الرَّاهب قبل قليل نازلًا من الطّائرة، ابتسمت لي، تغمزُ بعينها اليسرى، في إشارة لموعدنا.

كان الرّكاب يهزون رؤوسهم يمنة ويسرة، حائرين، وراغبين في توديع الرَّاهب الذي صعد معهم إلى الطّائرة، ولا يجدون أثرًا له، وعيونهم تتساءل: أين اختفى الرَّاهب من الطّائرة؟ هل خرج من النافذة وطار منها إلى السماء مثل معراج تكنولوجي حديث؟

تهامسوا في ما بينهم، لكنّهم هدأوا في نهاية المطاف وانشغل كل واحد منهم بحقائبه وإجراءات الخروج من الطّائرة.

وتساءل فريق استقبالي من الفاتيكان هل هناك طائرة أخرى ستصل من بيروت إلى روما!

وإثر تدافع الرّكاب في النزول وتلاشي صخب محركات الطّائرة على أرض المطار، لمحت فريق استقبالي، من تلاميذ الفاتيكان ورهبانه جاءوا خصيصًا لاستقبالي في المطار، حاملين أكاليل الزهور، ولوحة كُتب عليها اسمي بالخط العريض: الأب إسحق البغدادي، والدهشة انطبعت على وجوههم، وهم ينتظرون نزولي من الطّائرة، حيث حفظوا أوصافي الكاملة عن ظهر قلب: أسمر الوجه، ذو لحية خفيفة، وله عينان سوداوان، متوسط القامة، يرتدي جبّة سوداء، وصليبٌ ذهبيٌ يتدلى من عنقه.

ابتسمت لهم وأنا أمرّ بجوارهم، وراح ينظر الواحد منهم إلى الآخر، وهم يتساءلون فيما لو أخطأوا في الزمان أو المكان؛ لكنّ إيمانهم بالمعجزات السماوية جعلهم يتعلقون باحتمال ملاقاتي في اللحظة الأخيرة.

حاولت أن أكتب آخر كلمات رسالتي إلى الأب جوزيف على

شكل تمتمات شفاهية صريحة: يا أبانا العزيز: لن أواصل رحلتي إلى الفاتيكان، ولن أناقش أطروحتي في الدفاع عن دير الأيقونات، كما تعهّدت لك وللآباء الآشوريين، فلم أعد قادرًا على التفكير والتأمل والجدل حول أوهام خلقناها بأنفسنا، وأصبحنا عبيدًا لها بإرادتنا، ولتفهم أن الأمبراطورية الآشورية قد أفلتت مثل الأمبراطورايات الأخريات في التاريخ، وزالت مني هموم الأمبراطورية وزال أعداؤها، فهناك أعداء جدد ظهروا لي في هذا المكان الجديد: السكن، والحياة الكريمة، ونزع الثوب الكهنوتي. ولذا سأرمي نفسي طواعية في بحر روما المتلاطم، بشوارعها، وساحاتها، وحاناتها، ومقاهيها، ومواخيرها وأسحب فرشاتي من مشجبي كالسيف، مثل محارب يصرّ على ترك مصارعة طواحين الهواء، وخوض معركة الألوان في وجوه المارّة، وتعابيرها في محاولة لفكّ أسرارها، وأستمع إلى رنين الليرات الإيطالية التي ترنّ في طاستي، وهم يلقون بها، كما يلقونها للشحاذين، لكن ما يميّزها أنها ليرات مكافأة على عملي الفني. إلا أنني قبل ذلك، سأمضي ليلة حمراء مع المضيفة ناتاشا، مستعيدًا تذوّق طعم المواعيد الغرامية التي أفتقدتها منذ زمن طويل ولم أدعُ أنثى إلى قلّايتي البائسة. ثمة صوت يتردد في أعماقي: لا تبحث عن شعرة الإيمان وسط كومة قش من الشكوك!

سأمزج فرشاة حياتي بالحبر والإرادة والحلم والنبيذ والحب.

وداعًا يا يسوع.

وداعًا دير الأيقونات.

وداعًا، أيّها الأب جوزيف.

وداعًا أيّها الآباء الآشوريون الآخرون: سامر وإيلي، ومار يوسف وشربل والياس في مثواهم الأخير.

وداعًا يا تلاميذ الفاتيكان الرائعين المنتظرين في المطار.

المعذرة لكم جميعًا.

ناتاشا تنتظرني في فندق روما بلازا.

باريس ـ دبي

١٩٩١ ـ ٢٠١٤

صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنّشر

سلسلة الأدب

الروائي پاولو كويلو

- إحدى عشرة دقيقة (رواية)
- ألِف (رواية)
- أوراق محارب الضوء (عبارات وعِبَر)
- بريدا (رواية)
- الجبل الخامس (رواية)
- حاج كومپوستيلّا (رواية)
- الخيميائي (رواية)
- الرابح يبقى وحيداً (رواية)
- الزَّهير (رواية)
- ساحرة پورتوبيللو (رواية)
- الشيطان والآنسة پريم (رواية)
- على نهر پييدرا هناك جلستُ فبكيت (رواية)
- ڤيرونيكا تقرّر أن تموت (رواية)
- مخطوطةٌ وُجِدت في عَكرا (رواية)
- مكتوب (عبارات وعِبَر)

ليلى عسيران

- الاستراحة
- جسر الحجر
- الحوار الأخرس
- خط الأفعى
- عصافير الفجر
- قلعة الأسطة
- لن نموت غداً
- المدينة الفارغة

د. نعمة الله إبراهيم

- السيَر الشعبية العربية (قصص قصيرة)
- فروخ ناز - ألف يوم ويوم (قصة)

د. أحمد حاطوم

- في مدار اللغة واللسان
- قواعد فاتَتِ النُّحاة
- كتاب الإعراب
- المساجلات
- نقوش

د. شكري نصرالله

- الثالث (رواية)
- قالوا... وفعلوا: وقائع من تاريخ العرب وتراثهم (حِكَم وأشعار)
- كنوز العرب (حِكَم وأقوال مأثورة)

منشورات المجلس القطري للثقافة والفنون والتراث

- تاريخ اللغات ومستقبلها (دراسة) - هارالد هارمان
- فلسطين في الشعر الإسباني المعاصر(شعر) - د. محمد الجعيدي
- هل كنا مثل أي عاشقَين؟ (رواية) - نافتج سارنا

جين ساسون

- بنات سموّ الأميرة (قصة)
- حلقة الأميرة سلطانة (قصة)

سلسلة الأدب

- سموّ الأميرة (قصة)
- لأنك ولدي (قصة)
- مغامرة حب في بلاد ممزقة (قصة)
- ميّادة ابنة العراق (قصة)

منى دايخ

- إيزيس في القدس (رواية)
- بوح أنثوي (شعر)
- طلاق الحاكم (رواية)
- غزَل العلوج (رواية)

راوي حاج

- الصرصار (رواية)
- كرنفال (رواية)
- لعبة دي نيرو (رواية)

روحي طعمة

- امرأة للشتاء المقبل (قصص قصيرة)
- لا أحد يفهم ما يدور الآن (شعر)

طلال حيدر

- آن الأوان (شعر)
- سرّ الزمان (شعر)

عصام محفوظ

- عشرون روائياً عالمياً يتحدثون عن تجاربهم (دراسة)
- مختارات من الشعراء الرواد في لبنان (شعر)

سردار أوزكان

- حين تستحيل الحياة نوراً (رواية)
- الوردة الضائعة (رواية)

د. عبد السلام فزازي

- الزمن المستعار... (رواية)
- ويسألونك عن الذاكرة (رواية)

د. محمد طعّان

- رحلة بهمان (رواية)
- صيف الجرّاح (رواية)

ملك محمد جودة

- أنا... والعيون الزجاجية (رواية)
- رواية ١٩٥٣ (رواية)

نوال السعداوي

- إنه الدم (رواية)
- نوال السعداوي وعايدة الجوهري في حوار حول الأنوثة والذكورة والدين والإبداع (دراسة) - د. نوال السعداوي ود. عايدة الجوهري

سليم اللوزي

- خلف العتمة (رواية)
- ذبائح ملوّنة (رواية)

بالاشتراك مع مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

- أصل الغواية (قصص قصيرة) - منتهى العزة

- **أصل الغواية (قصص قصيرة)** - منتهى العزة
- **باب للخروج (رواية)** - طارق فرّاج
- **حبيبتي الحقيقة (شعر)** - أحمد طقش
- **الخامدون (قصص قصيرة)** - ربى عنبتاوي
- **نسرين ستمون الليلة (رواية)** - خديجة نمري

شعر

- **أثواب الحزن** - هدى السراري
- **أنظر إليك** - مرام المصري
- **خريف من ذهب** - جوزيف طوبيّا
- **خطوات أنثى** - ردينة مصطفى الفيلالي
- **الظلُّ فجر داكن** - مهدي منصور
- **كما يقع التفاح** - هادي مراد
- **ما يفعله الغريب في الليل** - محمد دياب
- **مثل السَّكْت** - سوسن مرتضى
- **ميتينغ meeting** - جوليان حكيم
- **هو وهي في السعودية** - هتان بن محمد طاسجي
- **وراء الأفق** - إبراهيم أبو زيد
- **وصيّة شاعرة** - ناهد عيد
- **يساورني ظنٌّ أنهم ماتوا عطاشى** - غسّان علم الدين

دراسات

- **أبعد من الريف: شعراء خالدون في عيون الألف الثالث** - لامع الحر
- **أثر الفكر الديني في روايات پاولو كويلو** - بكادي محمد
- **أحمد فؤاد نجم** - د. كمال عبد الملك
- **أُخذَةُ كِشْ: أقدم نص أدبي في العالم** - ألبير نقاش وحسني زينة
- **إميل بجاني كاتب في الغربال** - تأليف عدد من الكتّاب
- **جدلية الحب والموت: في مؤلفات جبران خليل جبران العربية** - د. بطرس حبيب
- **الحب والتصوّف عند العرب** - د. عادل كامل الآلوسي
- **الحريم اللُّغوي** - يسرى مُقدّم
- **الدوائر المتّحدة المركز** - نادين باخص
- **الرومنطيقيّة في الشعر العربي المعاصر** - د. فيكتور غريّب
- **سنوات ضائعة من حياة المتنبي** - هادي محيي الخفاجي
- **صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية في كتب الأمثال العربية** - د. محمد توفيق أبو علي
- **طه حسين (من الشاطئ الآخر)** - عبد الرشيد محمودي
- **علم الإبداع** - د. مروان فارس
- **مهما قلت... لا تقل** - نبيل سليمان
- **موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية** - منير عبود

روايات

- **أرملة مهندس** - صالح ابن عايض
- **إمرأة... وظلّان** - خلود عبدالله الخميس
- **ابن الحزب** - فيصل فرحات
- **بائع الفستق** - سمير عطا الله
- **جحيمُ الرّاهب** - شاكر نوري

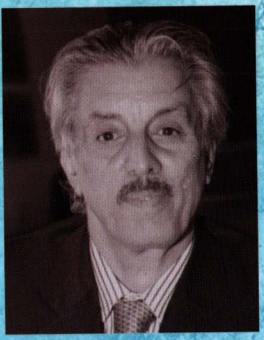

شاكر نوري

ولد في العراق عام ١٩٤٩، درس الأدب الإنجليزي في جامعة بغداد والسينما والمسرح في جامعة السوربون بباريس. دخل ميدان الصحافة وعمل في عدد من الصحف والمجلات.

سافر إلى فرنسا وأقام فيها من ١٩٧٧ وحتى ٢٠٠٤.

حصل على درجة البكالوريوس عام ١٩٧٢ من كلية التربية/جامعة بغداد والماجستير عام ١٩٧٩ من المدرسة العليا للدراسات في باريس والدكتوراه عام ١٩٨٣ من جامعة السوربون.

قام بتدريس السينما في السوربون. وعمل مذيعاً في إذاعة مونت كارلو. «جحيم الراهب» روايته الثامنة.

جحيم الراهب

«لم أتنكّر بجبّة الراهب لأخدع أحداً.. ولم أنخرط في دين جديد لأؤذي الآخرين... اسم إسحاق الذي لا يرمز إلى أي معنى ديني اختاره لي أهلي بالمصادفة ومن دون أي دلالة». هكذا قدّم الأب إسحاق صك براءته فهل أقنعنا، وهو الذي نقل إلى الأوراق ما رآه وتحسَّسه في دير الآباء الأشوريين حيث خدم وأقام؟ وهو الذي غادر بيروت إلى روما، متلمّساً طريق الفاتيكان، بعد سنوات طويلة قضاها بين سجن القلعة في دمشق وميناء بيروت ودير الأيقونات.

ثم ماذا عن أرشيف الأب جوزيف الحافل، الذي لم يثق إلّا به ليتركه وديعةً بين يديه؟

ساعات ثلاث في الطائرة كثّف خلالها الزمن ليعيش جحيماً لا مثيل له: أيستمر في البحث عن الله، أم عن ذاته هو؟

مكتبة نوميديا 195
Telegram@Numidia_Library

ISBN 978-9953-88-829-3
9 789953 888293

الجناح، شارع زاهية سلمان،
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥-١١ بيروت - لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+

tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر